

رونان هيڃن

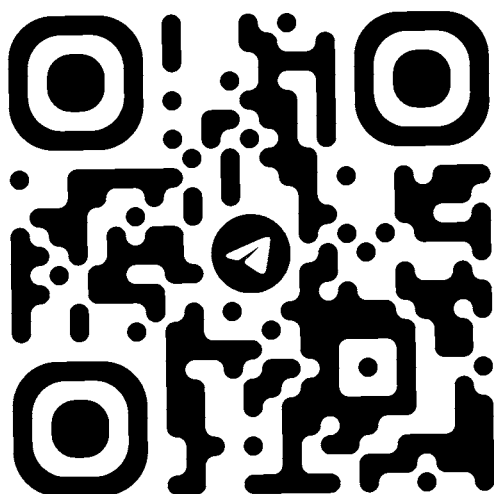
# ليونارد وهنجري بول

مكتبة

رواية

ترجمة: أحمد شافعي





سجل في مكتبة

اضغط الصفحة

SCAN QR

**ليونارد وهنجري بول**

ليونارد وهنجري بول

تأليف: رونان هيجن

ترجمة: أحمد شافعي

ردمك: 978-603-91810-2-6

رقم الايداع: 1443/7521

Copyright © 2019 Ronan Hession



دار أثر للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الدمام

تلفون: 00966549966668

الموقع الإلكتروني: [www.darathar.net](http://www.darathar.net)

البريد الإلكتروني: [info@darathar.net](mailto:info@darathar.net)

مكتبة  
[t.me/soramnqraa](https://t.me/soramnqraa)

# ليونارد وهنجري بول

رونان هيغن

ترجمة

أحمد شافعي

مكتبة

[t.me/soramnqraa](https://t.me/soramnqraa)



## الفصل الأول

# مكتبة

t.me/soramnqraa

## ليونارد

بعد فجيرة موت أبيه عند ولادته، نشأ ليونارد، في رعاية أمّه وحدها، نشأةً أُخفيت مشقتها وراء المرح. ومع أنّ أمّه لم تكن بطبيعتها امرأة مناضلة، فقد علّمته أن ينظر إلى الحياة نظرتَه إلى عقْد حبّاته هي أحداثها الصغيرة التي لا يمكن تدبّر أمر كلّ حدث منها إلا على حدة، وبطريقته الخاصّة. كانت امرأة ترى الطيبة أمرًا عاديًّا للغاية، وتعتقد أنّ المبرّر الوحيد المقبول لعدم وضع المرء آنيةً لإطعام الطيور في حديقته الخلفيّة هو أن يكون قد وضعها في حديقته الأماميّة.

ومثلما يحدث في بعض الأحيان للصبيّة الذين يفضّلون الألعاب على ممارسة الرياضة، جاء نصيب ليونارد من الأصدقاء قليلًا، ومن الأفكار كبيرًا. وفهمت أمّه بحدس عقليّ سليم أنّ كلّ ما يحتاج إليه الأطفال من أمثال ليونارد هو من ينصت إليهم. فهؤلاء الأطفال قد يخرجون إلى المتاجر ليتناقشوا في مواضيع مثل أسماك الأنقليس وفي طريق العودة قد ينخرطون في حوار عميق حول أقمار زحل، وقد يتكلّمون عن الموجات المدّيّة العارمة وهم يستحمّون، ويلقون تحيّة الذهاب إلى النوم في ثنایا ثرثرة سريعة حول صاحب أطول أظافر في العالم وفقًا لموسوعة جينيس للأرقام القياسيّة. لكنّ ليونارد نشأ في زمن لم يكن الأطفال الهادئون واسعوا الخيال فيه قد بدأوا بعد ينعمون بافتراض البراءة أمرًا مسلّمًا فيهم. فكثيرًا ما وجدت أمّه نفسها

مرغمة على الوقوف بجانبه في مواجهة معلّمين متصلبي الآراء يأخذون عليه استحالة النفاذ إلى ما في رأسه. فكم جلست بمفردها، ثابتة ثباتاً أمومياً صبوراً، في اجتماعات أولياء الأمور بالمعلّمين لتوضّح أنّ وجه ابنها، مثل المرحوم أبيه من قبل، «يفتقر إلى القدرة على إظهار الانبهار».

حتى بعد تجاوز ليونارد الثلاثين، ظلّ يحلو لأُمّه أن تشغل به، فتشتري للغداء ما يفضله من لحم الخنزير - أي قليل العروق - وتترك له الشاي بجانب السرير ليجده حين يصحو، وتكوي سراويله الجينز مبرزة فيها طيّات مهندمة دأب ليونارد على التخلص منها لاحقاً في هدوء بكيّها من جديد. وكان من ناحيته يقابل رقّتها بمرافقته لها في سنواتها الأخيرة، واحتوائها عموماً في نطاق حياته غير المزدحم.

لا بدّ أنّ العلاقة بينهما تطوّرت في مرحلة ما من علاقة بنوّة محضّة إلى علاقة شراكة، وإن لم يكن ليونارد واثقاً من هذا تمام الثقة. وبرغم أنّ حياة ابن راشد مع أمّه الأرملة لم تكن بالوضع الذي حسم المجتمع أمره، يبقى واضحاً أنّه وضع أقل من مثاليّ. ولعلّ أفراد المجتمع افترضوا - في حدود قدرتهم على الملاحظة - إمّا أنّها امرأة مسيطرة أو أنّه شاب يفترق إلى المبادرة، وربّما إلى الدافع الجنسي. وفي الواقع، لم يكن أيّ منهما يضيق على الآخر أو يقحم نفسه في حياته، فكلّ منهما شخص مستقلّ يجب أن تكون له مساحته الخاصة، ويستطيع ببساطة أن يساير الآخر. تذكّر ليونارد ذلك القدر من الارتباك الذي صاحب اقتراحاً بأن يخرجاً معاً في الإجازات، وإن لم يعرف على وجه اليقين أيّهما هو أوّل من اقترح ذلك. مؤكّد أنّ إجازات الأمّ والابنة طبيعيّة، ورحلات الأب والابن تحظى بشهرة واسعة باعتبارها طريقة من طرق النضج. أمّا إجازات الأمّ والابن ففيها إجماع بأنّ أحد الاثنين لا بدّ أن يكون عبئاً على الثاني. لكنّهما، والحقّ يقال، كانا متلائمين تماماً كرفيقي سفر،

فهي مولعة بالمشي، ولها جلد على قاعات العرض، وقدرة على التجوّل في أيّ معرض جيّد بالكامل دون أن ينصرف انتباهها إلى برطمان غسل في متجر الهدايا التذكاريّة قد يجتذب الضجرات ممّن لا يتجاوزن من العمر نصف عمرها. وكان الاثنان يحبّان الكنائس، فليونارد قد لا يكون متديّنًا، لكنّ كثيرًا من الفنّ في العالم متدين. كان يستمتع بزيارة اللوحات والمنحوتات الشهيرة في الكاتدرائيات الأوربيّة، بينما تشغل أمّه نفسها بإشعال شمعة في الكنيسة الصغيرة الجانيّة من أجل زوجها الهشّ الراحل منذ زمن بعيد.

لم تسأل ليونارد يومًا عن الفتيات، مدركة حساسية المسألة لديه، وكذلك بسبب تذبذبها في إرجاع حياة عزوبيته البادية إمّا إلى عدم الاهتمام أو انعدام الفرصة. أمّا عن ليونارد فقد أدّى به استمراره في الإقامة مع أمّه إلى لون معيّن من ضبط النفس القائم على أسباب عمليّة، بعد أن فكّر في ما يمكن أن يحدث لو جاء بفتاة إلى البيت ليجدا حينها يستيقظان في الصباح التالي كوبي شاي بجوار السرير بدلًا من واحد.

رحلت أمّه على حين غرّة في ليلة من منتصف الأسبوع وهي نائمة، ملتقّة ببطانيّة من الريش، وثياب يومها التالي موضوعة وجاهزة، وكان تقيّدُها بالنظام دلالة على احترامها للأشياء الصغيرة في حياتها. كتب الطبيب ملاحظة أرجع فيها سبب الوفاة إلى أزمة قلبيةّ، لكنّه أكّد غياب أيّ دلائل على معاناة أو دراما. ورَجَّح أنّها ببساطة «استنفدت مخزونها من النبضات».

ولمّا كان ليونارد ابنًا وحيدًا خجولًا، لأبوين كانا بدورهما ابنين وحيدين خجولين، جاءت الجنازة صغيرة. خلت مقدّمة الكنيسة تقريبًا إلّا من ليونارد، إذ نزح الحاضرون إلى التهوين من قربهم النسبي من الفقيدة، فجلسوا متأخرين بصفوف عدّة من حيث ينبغي لهم الجلوس. وفي ظلّ غياب عائلة كبيرة يمكن الاعتماد عليها، تولّى ليونارد مهمّات عدّة في الجنازة، فتلا هو

صلوات المؤمنين، وأحضر الصدقات، وتدبّر أمر جميع المهمّات الصغيرة الأخرى التي يتولّاها في العادة الأقارب والأصهار. ألقى القسّ خطبة عامّة عن الموت والأمل، فَرَأَى ذلك لليونارد، إذ كانت أمّه تمقت تلخيص حياة الميت تلخيصًا كاريكاتوريًا بليغًا. ولو وجد ليونارد في نفسه الشجاعة لوقف وتكلّم وقال في حقّ أمّه إنّها اعتنت بكلّ شخص في حياتها مثلما اعتنت بالطيور في حديقته، أي بمتعة لا حدود لها وسخاء نفس غير مشروط.

في المحرقة، تقدّم تابوتها على قضيين عبر الستائر الحمر، بحركة لا تخلو من اضطراب، شبيهة - من حسن الطالع - بحركة قطار الأشباح الذي كان يتمتع ركوبه في الملاهي. كثيرًا ما جعلها خوفها من المرتفعات والمسابقات ترى الملاهي أقرب إلى محنة، ولكنّها من أجل ليونارد فقط كانت تذهب إليها وتستمتع بقطار الأشباح، فهو في جوهره رحلة بطيئة داخل معرض فنيّ مضاء بالنيون المعتم. ومع انسداد الستائر حول التابوت على نغمات لحن «لا شيء على القافية» لمطربها المفضل جلبرت أوسوليفان<sup>(1)</sup>، مسح ليونارد دمعة عن نظّارته واستدار راجعًا إلى بيت الأسرة، الذي أمسى بيته، يتيمًا.

عندما يفقد ابن وحيد ثاني أبويه، تنقلب في روزنامة الأجيال صفحة. هناك أمور عمليّة وترتيبات لا بدّ من الاعتناء بها، ولكن هناك أيضًا مواجهة عامّة كبرى، ولا بدّ منها، لكلّ شيء. وسواء استعددت لظهور هذه الأشياء أم لم تستعد فإنّها لا محالة تظهر. والنتيجة سبيكة من الحزن والحيرة. ففي تلك الحالة، وبمزاج انخفض بمقدار أوكتاف كامل، قضى ليونارد أسابيعه القليلة الأولى بعد الجنازة: محمّلًا في فطيرة تنضج داخل الفرن، متلكنًا أمام

(\*) جميع هوامش الرواية إيضاحات من المترجم.

(1) Gilbert O'Sullivan (1946-) مغني وموسيقي أيرلندي، والأغنية هي (Nothing

(Rhymed



كيس من بذور عبّاد الشمس عند أواني الطيور، أو ثابتًا من فرط الحزن بقلم التظليل أعلى برنامج في دليل برامج التلفزيون. ولو كان سئل في تلك الفترة عمّا يجول بخاطرهِ أو مورست عليه إحدى الطرق الشائعة لانتزاع شخص من شروده - كمقاطعة بلا سبب - لحار في ما يمكن أن يقوله لمن يفعل ذلك، وقد رجع وعيه بالدنيا رجوع قطّ غاب أيّامًا قليلة دونها تفسير.

مضى يجلس، كلّ مساء بعد العشاء، على الأريكة تلك الجلسة المعهودة في الأعزّاب من الرجال ممّن يصبح الوقت لديهم شيئًا يُملأ ولا يُنفق، فيفتح أحد كتب السير التاريخية المنتظرة في صبر على رفّ مكتبته، وقد وضعت في العديد منها علامات بعد صفحات قليلة، فلم يزل أبطاها ينتظرون تجاوز طفولتهم. صار يجد في متاجر الكتب أماكن للسلوى، وفي شرائها عزاء، لكنّه أمسى في تلك الأيام قارئًا شارد الذهن، تملّؤه القراءة بالوحدة في غياب حركة أمّه في أرجاء البيت في الخلفيّة. صار يجلس إلى الطاولة ويحاول أن ينسخ رسومًا من الدليل السنوي لمراقبة الطيور - فمرّة طائر صندرنج مهاجر يهوي إلى ساحل، ومرّة طائر جلموت بيضاته لها هيئة الإحاص فلا تندرج على الجروف - ولكن في غياب من يعرض عليه رسومه لم يعد يبالي بتفاصيل الريش والفوارق الطفيفة بين الألوان. وبالطبع كان التلفزيون موجودًا على الدوام: هو الأعلى بين البدائل، ولو أنّه يصبح على نحو غريب بديلًا مستبعدًا، فور أن يغيب عن الأريكة من تمكن محادثته عما يعرضه.

لو أنّ ليونارد من طينة أخرى من الناس لذهب - ربما - إلى الحانة ليقابل بعض الأصدقاء ويقضي معهم أمسية في لعب التصوير بالأسمه، أو الدومينو، أو الورق، أو أيّ من ألعاب السجون تلك، ولكنّ شعوره بالوحدة في هذه الأيام لم يكن يشتدّ عليه مثلما يشتدّ فور أن تخطر له فكرة قضاء وقت بصحبة أولئك الاجتماعيين المفتحين. وفي مثل هذه الأوقات

نكتشف من هم أصدقاؤنا الحقيقيون، أو من يمكن أن نسمّيه - كما في حالة ليونارد - بالصديق الوحيد. وهكذا، اجتنابًا لهذا الفصل المسائي السقيم، أو ملئًا له، درج ليونارد على اللجوء إلى رفقة هنجري بول.

## الفصل الثاني

### بارلي فيو

لم يزل هنجري بول يعيش مع أبويه، في منزل الأسرة الذي نشأ فيه. تجاوز الآن ثلاثين عامًا من نصيبه المفروض من العمر، وقد يبدو في عيني فضوليّ غريب أنّه يفتقر إلى نداء «الخروج»، أو يرجو أن يعيش بعد أبويه ليكون على الطريق اليسير إلى ملكيّة البيت. لكن هنجري بول كان رجلًا تقيه من أيّ نائمة غفلته عن كلّ شيء. والحقيقة أنّه لم يترك البيت قطّ لأنّ أسرته أسرة سعيدة، وربما بات وجود من يقدر هذه الأمور حقّ قدرها أمرًا أندر ممّا ينبغي.

عمل أبوه، بيتر، سنين كثيرة أستاذًا للاقتصاد، لكنّه الآن تقاعد ويعيش على راتب تقاعدي تقدّمه له يد السوق الخفيّة. وهو رجل أصلع، وإن بدا السبب في صلعه هو الجاذبيّة فكأنّ فروة رأسه تشدّ شعره إلى داخل رأسه ليبرز من أذنيه، ومن أنفه، ومن حاجبيه. أمّا أمّ هنجري بول، وتدعى هيلين، فمعلّمة على وشك التقاعد، تخفّفت الآن إلّا من يومي عمل في الأسبوع. وكانت هيلين أيضًا قد درّست لليونارد لسنتين في المدرسة الابتدائيّة ودرجت على امتداح رسومه، وقولها له إن «لديه مخّ من ألماس ليته يستعمله» وهذه أرقّ طريقة يُرمى بها شخصٌ بالكسل. وكأيّ معلّم يقابل تلميذًا سابقًا في رشدّه، فقد دأبت على أن تستقبل ليونارد بترحاب وسعادة حقيقيين.

كانت قد التقت ببيتر ذات يوم حينما توقّف ليرشدها إلى مكان معرض

فني ثم دعا نفسه إلى مرافقتها. وقعا في الحب دونما جهد. واتسعت الكيمياء الأولية بينهما لتتحول إلى فيزياء ثم إلى أحياء، إلى أن بوركا بجريس، أخت هنجري بول الكبيرة، وطفلتها الأولى. ثم رزقا بهنجري بول بعد إجهاضين شاقين، ومفهوم في هذه الظروف أنه صار لهما بمثابة كنز. وبقيت هيلين وبيتر زوجين متقاربين شأن اثنين خاضا معًا الكثير.

باقتراح من هنجري بول، أطلقا على بيتها اسم «بارلي فيو» تيمُّنًا بأغنية فرنسيّة سمعها ذات مرّة في نادٍ للرجبي. أصرّت هيلين على تهيئة حديقة البيت الخلفيّة للطيور والأماميّة للنحل، فيما تولّى بيتر ما أطلق عليه «الصيانة الداخليّة»، أي تعليق الصور، وتغيير المصابيح، والقيام بكلّ ما يمكن القيام به في بيت كثير الاحتياجات دونما شراء لكثير من الأدوات اللازمة لذلك. تركت جريس البيت منذ زمن بعيد وأخذت تستعدّ لزفافها الوشيك، وهو مشروع يدار بمساعدة مكالمات هاتفية ليلية مع هيلين التي اقتصر دورها في المقام الأكبر على الكثير من الإصغاء والمقاطعة بين الحين والحين بصوت أموميّ مطمئن قائلة «أعرف يا حبيبتي، أعرف».

عندما وصل ليونارد في ذلك المساء، كان بيتر هو الذي فتح الباب بابتسامته المعتادة وعينه القائلتين سعيد برؤيتك.

«تفضّل يا ليونارد تفضّل».

دخل ليونارد ماسحًا دونما داع نعليه النظيفين في الدوّاسة، فهي إيلاء احترام اجتماعي وليست مراعاة لأيّ اعتبارات صحيّة. جلست هيلين في الصالة منهمكة في لعبة تجميع قطع الصور على صينية شاي. بدت الصورة التي تعمل عليها أشبه بلوحة انطباعيّة، وإن صعب تحديدها ولم تكتمل منها بعد إلّا الخواف. استقرّ فنجان شاها متوازنًا فوق ذراع الأريكة على نحوٍ ما كانت لتسمح به أم ليونارد قطّ. رجع بيتر وهيلين كلّ إلى موقعه المعتاد من

الأريكة، واستقرَّ الاثنان في المكانين كأنَّهما قطعتان من صورة.

قالت هيلين، وقد أرادت أن تزيج من الطريق، بسرعة وبرقّة، أكثر الأمور حساسية «ما أخبرك يا ليونارد؟ هل بدأت الأمور ترجع إلى طبيعتها؟ أنا واثقة أنَّ أمورًا كثيرة بحاجة إلى ترتيب».

قال ليونارد «في طريقها إلى هذا»، دون أن يحدّد هل يقصد الوضع الطبيعي أم الحزن أم الترتيب.

قالت «جميل أن نراك، تفضّل» وأشارت إلى بيضة فصيح مفتوحة قبل ثلاثة أسابيع من الموعد، والاثم يطلّله اقتسامه. اقتطع ليونارد قطعة كبيرة، حاول أن يقتطع منها جزءًا أصغر، وأليق، ثم قرّر في النهاية أن يأكلها كلّها وقد اقتطعت في حجره. توقّف التليفزيون في منتصف برنامج تحديّ الجامعات، وهو من برامج ليونارد المفضّلة.

كان أسلوب بيتر هو أن يجلس متأهّبًا ثم يطلق تخميناته كالمُدفع الرشّاش فور أن يضغط متسابق الزرّ: «توماس كرومول، لا، أوليفر كرومول، لا...» قبل أن يأتي ابن عشرين سنة ذو جسم مكوّر على نحوٍ مستحيل فيقول «كاردينال وولسي». على النقيض من مدفع بيتر الرشّاش كانت قنّاصة هيلين التي يحلو لها أن تنشغل في شيء آخر، فمرّة كلمات متقاطعة، ومرّة سودوكو، أو جمع أجزاء صورة كما في تلك الليلة، متظاهرة بأنّها غير منصّة أصلًا. ثم يُطرح سؤال غامض يحار في أمره كلا الفريقين، فتأتي هي بالإجابة الصحيحة من العدم، دون أن ترفع رأسها إلّا قليلًا. ويكون في العادة سؤالًا لا يحتمل التخمين، كحدث مثلًا وقع في سنة كبيسة أو الأخ التوأم للملك فلان الكذا عشر. وكانت تتصنّع عدم الاستمتاع بأنّ إجابة واحدة من إجاباتها الصحيحة المقدّمة في برود قادرةٌ على محو ستة من تخمينات بيتر المذعورة. وحدث مرّة أن سجّل بيتر حلقة وحفظ إجابات الأسئلة العشرين الأولى

ليثير جنونها حينما يشاهدانها معاً، وذلك ما فعله كما ينبغي، ولو أننا لن نعلم يقيناً إن كان الأمر انطلى حقاً على هيلين أم أنها استمتعت فقط لما رأت إلى أي مدى لم يزل بيتر مستعداً للذهاب ليثير إعجابها بعد كل تلك السنين. ولكن أكثر ما كان يثير اهتمامهما في ذلك البرنامج هو إيمان الاثنين العميق بالشباب، وتشجيعهما لهم وغفرانها لهم فرط ثقتهم في أنفسهم، ورؤيتهما النقاء والكمال في أي شاب لامع أو شك أن يكمل تعليمًا جيدًا.

سأل بيتر «وكيف حال العمل يا ليونارد؟». كان لم يزل لديه اهتمام المتقاعدين بأحوال أماكن العمل بصفة عامة بعد أن تركها وراءه.

«لا بأس. لا بأس. يملأ الوقت».

«وما الموضوع في هذه الأيام - الديناميكيات؟ كائنات المحيط؟ رجال الكهوف؟ الإغريق؟»

«اقتربت. الرومان. وخصوصاً فترتهم في بريطانيا وتلك الأماكن. الحقيقة أنه موضوع مثير. عاشوا وقتاً عصيباً بسبب الأسكتلنديين».

كان ليونارد يكتب موسوعات للأطفال وكتباً معلوماتية أخرى، وبرغم أنه كاتب الكلمات الفعلية، فإنه ليس مؤلفها بالمعنى المعروف. فذلك اللقب كان من نصيب الأكاديمي المكلف بالإشراف على المضمون، وأيضاً شرف تصدر الغلاف. أمّا دور ليونارد الفعلي فاقصر على التثبت من تناول جميع المفاهيم في جمل قصيرة يسيرة على الذاكرة. كان بعض الرسامين يحبون طريقته في الإيجاز فتراكت له ببطء سمعة كاتب معلومات له عينا طفل. كانت الوظيفة ملائمة له تماماً، بسبب اهتمامه الشخصي بكل ما هو مثير، وتفضيله القيام بدور ثانوي في قصة شخص آخر على أن يكون هو نفسه النجم. كما كان يحب مصداقية مهضوم الحق التي تنبع من الحرمان من الثناء وإنكار الفضل، حتى لو قلّت النقود قليلاً عما كان ليروق له في هذه المرحلة

من حياته. كان يعمل منفردًا في مكتب يقع داخل صالة فسيحة يشاركه فيها آخرون من شركات أخرى وإداريون من شركته ولعلمهم من شركات أخرى أيضًا. وذلك كله أعطاه إحساس ومظهر الانتهاء إلى مجتمع، بينما الواقع هو أنه كان يعمل منفردًا، وداخل رأسه في أغلب الوقت. وكان الرسامون - وهم أكلو العيش الحقيقيون - يضيفون رسومهم بعد أن ينتهي هو من الكتابة، فلم يكن يلتقي بهم. أمّا علاقته بالكتّاب المشرفين فكانت في العادة علاقة عملية تجري من البعد، فهم يرسلون إليه الملاحظات عبر البريد الإلكتروني ويتابعون التعليقات بأدب رسمي لا يخلو من الودّ لكنه يفتقر إلى الدفء. ولم يكن ليونارد يجد بأسًا في ذلك. فلم يكن يسعى إلى صداقات مهنية مع زعماء قطيع الكلاب في الشركة.

قالت هيلين، التي قضت حياتها المهنية كلّها تبث الشجاعة في الآخرين وتدفّعهم دفعات رقيقة، «عليك أن تتولّى أمر الرسوم يا ليونارد، فطالما برعت في هذا. ثمّ اقضِ على المشرف المتسلّط وانشر الكتب بنفسك. وتساfer إلى جزر الباهاما وتكتب جالسًا على الشطّ».

قال ليونارد «ربّما في يوم ما. المشكلة هي أنّ كلّ الكتب المعلوماتية صدرت ملايين المرّات، فمن الصعب أن يقال شيء أصيل. الرسّامون هم الذين يتصدّرون الواجهة، أمّا أنا فلا أفعل إلّا أن أعيد طبخ المعلومات القديمة نفسها. أظنّ أنّي أنال نصيبي الكافي من السعادة، يكفيني جزاء أن أتصوّر الأطفال وهم يقرأون الكتب ويستمتعون بها».

قالت هيلين «لا شيء ألطف من رؤية طفل يقرأ. أتذكّر جريس وهي مستلقية على بطنها تقرأ على السجّادة، لاهية عن التلفزيون أو عنّا نحن. لم أقابل قطّ طفلًا سنحت له الفرصة ولم يحب القراءة. كان بعض أولياء الأمور يأتونني في المدرسة ويقولون إنّ أبناءهم لا يقرأون فكانت نصيحتي

دائمًا واحدة: لو أن وليَّ الأمر يقرأ، سوف يتبعه الأطفال. إذا أردتهم أن يقرأوا، فاقرأ أنت» وقالت وهي تشير إلى طلبة تحذِّي الجامعات على الشاشة «أراهن أن آباءهم كانوا قراء».

قال ليونارد «وعلى ذكر الشباب الموهوبين، لا أرى أيَّ أثر لابنك المفضل؟»

قال بيتر وهو يمدُّ يده إلى الريموت «فوق - طلب أن نبعثك إلى أعلى». وفيما كان ليونارد يغادر الغرفة، ألغى بيتر إيقاف التلفزيون، وسمعه ليونارد يصيح من ورائه «المغنسيوم».

في الطابق العلويِّ كانت غرفة هنجري بول خاوية. لم يدرِ ما قواعد الدخول المثلَّى إلى غرفة شخص راشد، فتوقَّف في المدخل، متمهِّلاً، بأقصى قدر ممكن من الارتياح يمكن أن يشعر به رجل يسمع صديقه يتغوَّط على مقربة. انتهز الفرصة واستعرض تفاصيل غرفة نوم هنجري بول التي لم يكن قد دخلها فعليًا من قبل. ففي ما بعد الثانية عشرة من العمر أو نحو ذلك، ينزع الرجال إلى عدم مقابلة بعضهم بعضًا في غرف نومهم، إذ يصعب التوصل إلى مقدِّمات منطقية لطلب شيء كهذا. كانت الغرفة مزيجًا من حقب مختلفة، تكتسي عمومًا ببريق رشد فاتر ينال منه نثار هوايات الصبا. تراصَّت دُمى المقاتلين في وقفات تمثيلية على أرفف من المؤكَّد أن أبوي هنجري بول تمنَّا أن تحتلَّها كتب عظيمة في يوم من الأيام. تدلَّى من المصباح الوحيد في الغرفة نموذج طائرة ورقي مصنوع منزليًا. وطلبت الجدران بأخضر فاتح من الدرجة التي يمكن أن تختارها لحجرة نوم طفل لا تعرف بعد هل سيكون ذكرًا أم أنثى. أمَّا الستائر وملاءات السرير فهي من النوع الشائع في المتاجر العامَّة: بورق شجر وما يشابهه بدرجات متفاوتة من الأزرق والرصاصي. وعلى الجدران علَّقت أعمال فنية لهنجري بول منها بورترية



لـ الفارس الضاحك، ملوّن بطريقة الأقسام المرقومة المتبعة في كتب الأطفال، ولوحة من سلسلة أين وولي؟<sup>(1)</sup> جمع هنجري بول أجزاءها ووضعها في إطار اعترافاً بصعوبتها. وبرغم أنّه يصعب وصف الغرفة بأنّها غير مرتّبة، لكنّ فيها لمسة العشوائية التي تسم أحياناً غرف الأبناء الذين تجاوزوا الطفولة ولم يبرحوا بيوت آبائهم بعد.

خرج هنجري بول من الحّمّام مرتدياً ثوب حمّام أبيض وثيراً معقوداً حوله حزام أبيض وسروالاً رياضياً قصيراً وخُفّين علقت فيهما مناديل ورقية. أخذ يهزّ معصميه وقد علت وجهه سيماء التركيز الشديد التي تظهر على الرجل حين تكون يده مبلولتين ولا يعرف طريق المنشفة. أمّا وضعه النادر، بارتدائه ثياباً مصنوعة من الخامة التي كان بحاجة إليها بالذات، فلعلّه كان ليغري رجلاً أقلّ شأنًا، أمّا الذي خاطر مثله للتوّ باستعمال المرحاض جالساً وهو يرتدي ثوباً أبيض فما كان ليستسلم أمام تحدّ أهون. فواجه تلك الصعوبة بأن استلّ من سبت الغسيل الوسخ تي شيرت أبيض وجفّف فيه يده، مقدّراً أنّ الثياب التي كانت حتّى وقت قريب نظيفة بما يكفي لارتدائها لا يعقل أن تكون قد بلغت من القذارة ما يمنع استعمالها. ولما لاحظ هنجري بول وجود ليونارد، تهلّل وجهه بسعادة غامرة ورخّب به في مودّة صادقة.

«مرحباً ليونارد. بعثاك إذن إلى فوق. عظيم عظيم. كيف الأمور؟»

قال ليونارد «بخير، شكرًا. ما حكاية ثوب الحّمّام؟»

«آه، بدأت أتدرب على الفنون القتالية - كيف يبدو شكلي؟»

---

(1) بورترية «الفارس الضاحك» [The Laughing Cavalier] للرسم الهولندي فرانس هالز Frans Hals. أمّا أين وولي؟ Where's Wally؟ فهي سلسلة كتب ألغاز إنجليزية للأطفال.

«شكلك ممتاز وأصلي تمامًا. كيف خطرت لك الفكرة؟ ليس من طبعك عمل شيء عنيف».

«أوه، ولم أغيّر رأيي في العنف، لكنّ الفنون القتاليّة معنيّة أكثر بالثبات في الفعل. بالهدوء في غمرة الصراع. مؤكّد أنّها بدنيّة، لكنّ العقل يبقى ساكنًا وهادئًا. لا يوجد عنف عقلي، أو نيّة خبيثة، وهذا أسوأ ما في العنف. فضلًا عن أنّها الجودو، فلا لكم في الوجه أو أيّ شيء من هذا القبيل».

«وكيف إحساسك وأنت تتقلّب مع بشر نياندرتال؟ معلوماً أنك لا تحب أن يلمسك الناس، ناهيك عن جدل أطرافك كالضفيرة».

«يعني، هذا موجود. فكّرت فعلاً أنّه قد ينفعني في المسائل المتعلّقة بمساحتي الخاصّة. على قولك، هذه من أكثر الرياضات القتاليّة حميميّة، بما أنّنا نرتدي لها ثياب نوم بدلاً من أن نلبس مثلاً ربطة عنق سوداء. لكنّ للأمانة، لياقتي الشخصيّة أيضًا اعتبار يؤخذ في الحسبان. فلا يمكن أن أتدبّر أمر حزام أسود إذا لم يكن بوسعي أصلاً أن أتدبّر صعود السلم دونها لهاث».

ثم ارتمي هنجري بول على الأرض وبدأ تمرين الضغط معتمداً على مفاصل أصابعه، فارتفع صوت طرقة متبوعاً ببعض اللعنات، ثم بدأ من جديد وكأنّه راقص أكروبات يؤدّي حركات رقصة الدودة.

سأله ليونارد «كم مرّة ينبغي أن تؤدّي التمرين؟»

«يقول مدرّبي إنّني يجب أن أستمّر حتى أصل إلى أقصى حدودي، ثمّ أتجاوزها. أكون كالماء. كان ذلك أسهل في الصفّ، على الحشايا الإسفنجيّة، أمّا أرضيتي الخشبيّة فصلبة بالفعل بعض الشيء. قد أجرب مرتدياً جوارب صوفيّة بدلاً من الخفّ».

«لكن شكلك جيّد في الزّي كلّه عموماً. حزام أبيض، هذا أمر عظيم

فعلاً. ما نوع الحركات التي تعلّمتها حتى الآن؟»

«الامر يتطوّر بإيقاع ثابت. أوّل ما يعلّمونه لك هو كيفيّة توقيع نموذج إعفاء من المسؤولية، ثم كيفيّة تحسين الوقوع، فلا تصاب بأذى، برغم أنّي أشكّ أنّ احتمال إصابتي بأذى من عدمه يرجع إلى خصومي في المستقبل بقدر ما يرجع إليّ. ثمّ أجرينا بعض التدريبات مع الآخرين. أغلبهم أضخم قليلاً منّي، فكنت بالدرجة الأساسيّة أدرّب على الدفاع».

قال ليونارد «أتصوّر أنّ ذلك مفيد لقواك العقلية أيضاً. فالمعروف عن الفنون القتالية أنّها تعزز أحاديّة الذهن والجسد». وكان ليونارد قد كتب من قبل عن الفنون القتالية في موسوعة للأطفال عن الألعاب الأولمبية، وإن لم تحتل الرياضات القتالية منها غير جزء وجيز في النهاية، مع الرماية ورفع الأثقال ومربّع عن المنشطات أيضاً.

«ظريف أن تقول هذا، فقد شعرت فعلياً أنّ رأسي يدور بعد الحصّة، وهو ما يحدث لي غالباً كلّما جرّبت أشياء جديدة. ولكنّها الحصّة الأولى فقط. سألت المدرّب عن قدراتي فقال إنّني لو طوّرت ثوب الاستحمام وسروال التدريب فاشتريت الجي، وهذا هو الاسم الذي يطلقونه على زيّ الجودو، فسيكون هذا علامة حقيقية على الالتزام. أشعر أنّي سوف أحتاج إلى مباريات كثيرة لأظفر باحترامه».

أثار هنجري بول إعجاب ليونارد بانغماسه في شيء غريب تماماً من الناحية الثقافيّة، وبعد تأمّل، وافقه على أنّه خير له أن يشتري الجي المناسب، فثوب الحّمّام قد يبدو أكثر رخاوة من أن يثير الخوف في نفس لاعب جودو متمرّس.

قال ليونارد «لو أنّك لم تكمل تدريبك يمكن أن أنتظر أسفل».

«على الإطلاق. بوسعي أن أنتهي منه لاحقًا. هيّا ننزل قليلاً ونثرثر معًا». وشدّ هنجري بول حزام ثوبه الوثير، مستعملًا العقدة التي تستعمل في ربط الحذاء.

اختار هنجري بول المطبخ بدلًا من الصالة وصاح على أبويه قائلاً «نحن هنا» فزقزت هيلين من الصالة قائلة «تمام يا حبيبي». نقر زرّ غلاية الماء واختفى في حجرة هي فرع من المطبخ ربّما أريد لها أن تستعمل مخزن طعام لكنّها في هذا البيت كانت تستعمل في تخزين لعب الرقعة. استعرض الكعوب المهترئة للعلب المكدّسة استعراض نادل شراب يبحث عن نبذ معيّن. وفي الوقت الذي استغرقت الغلاية كي يغلي الماء، أبرز ذراعه من داخل الحجرة وقال من الداخل «أهذه جيدة؟». كان يمسك لعبة ياهتزي التي لم يلعبها منذ زمن بعيد.

«اختيار جيّد. أنت في مزاج شرقيّ للغاية هذا المساء. تخطّط لشراء الجي، وتعدّ لنفسك ما يبدو أنّه شاي أخضر، والآن لعبة ياهتزي. أهو توجه جديد تسلكه في حياتك؟ لم تعد الحضارة الغربيّة ملهمة لك؟ وبالمناسبة سأخذ أنا شيئًا عاديًّا إذا سمحت».

«أعتقد أنّي يجب أن أنغمس بعض الشيء في ما يتعلق بالسياق الثقافي للوجودو إذا أردت أن أتفادي الضرب مرّة أخرى على يد بنات في السادسة عشرة في الأسبوع القادم. أعتقد أنّ حصّتي الأولى كان ينقصها شيء مهم. أعني شيئًا آخر عدا التوازن والمهارات الحركيّة، شعرت أنّ شيئًا ينقصني من جوهر لاعب الوجودو. والآن مرّت فترة منذ أن لعبنا هذه اللعبة. فكيف تلعب؟»

بسط هنجري بول القطع والأجزاء، رقعة دائريّة مرتفعة الحواف، مغطّاة كلّها بنسيج أحمر يحاكي نسيج موائد فيجاس، أربعة مكعبات نرد، ممّا يعني

أَنَّ مكعبًا مفقود، وفنجانًا أسود لهُزْ مكعبات النرد قبل إلقيائها بما يضيفي على اللعبة صوت خشخشة جوفاء مميزة، ومجموعتي ورق معقّدين أشدَّ ما يكون التعقيد، فيهما قوائم بما ينبغي أن يحاول اللاعبان تحقيقه.

قال ليونارد عن اللعبة «إنَّها لا تبدو مشرقيَّة للغاية»، وهي لعبة اخترعها كنديٌّ ورَّجها الأمريكيان.

«لعلَّه أسير لعبة حربيَّة في معسكرات يابانيَّة خلال الحرب العالميَّة الثانية. هل تتذكَّر طريقة اللعب؟ لقد بدأت أتذكَّر لماذا لم نخرجها منذ وقت بعيد. أظنُّ أنَّ آخر مرَّة حاولنا معها انتهت بنا وقد يئسنا ولعبنا شيئًا آخر أقلَّ تعقيدًا مثل ريسك، وهذا له دلالة». كان هنجري بول يعيش على حافة سكين بين الشغف باللعاب الرقعة وكراهية كتب الإرشادات المصاحبة لها.

شرح ليونارد ما يتذكَّره من أساسيات اللعبة، فكان هنجري بول - الذي يفتقر هو أيضًا إلى القدرة على إظهار الانبهار - يومئ إيماءات فهم زائف.

«لماذا لا تبدأ أنت أولًا فأرى كيف تسير الأمور؟ أنا متأكّد أنَّها سترجع لي. فجميع القواعد متشابهة في كلِّ ألعاب الورق، وهو ما لا أفهمه مطلقًا. أوه، كان ينبغي أن أحضر نردًا إضافيًّا». واختفى هنجري بول في الحجيرة وأتى بنرد من لعبة أخرى، وذلك في ألعاب الورق هو المكافئ لأكل لحوم البشر.

مضت اللعبة وليونارد يهزُّ فنجان النرد، مستعملًا كلتا اليدين كأنَّها يخلط شرابًا من أشربة عدَّة. رمى النرد فجاء مكعبان برقم وثلاثة مكعبات برقم، لكنَّه قلب خمسة أرقام مختلفة. قرَّر هنجري بول أن يجرب الحصول من النرد على مثل ذلك فسارع يرمي في فمه قطعة بسكويت كاملة البذور ليحرِّر كلتا يديه، وقد أوقع بالفعل كثيرًا من الفتات على ثوب الحَمَام المخصَّص للجودو والمفتوح كاشفًا عن صدره تحت ضغط اللحظة. جاء مكعبًا نرد بالرقم اثنين، والبقية بثلاثة وخمسة وستة. فلم يدر لذلك أيَّ معنى.

قال لما لم تواته فكرة أفضل «أوه، تذكرت، هل أقول ياهتزي؟»

«ليس كذلك بالضبط. لعلك تفكر في بينجو أو سناپ». وبدأ ليونارد يفسر معنى رمية هنجري بول ويرشده خلال بضع رميات تالية.

ولما كانا يلعبان ألعاب الرقعة بانتظام، ويبدآن بينها كثيرًا، فلم يكن نادرًا أن تبدأ اللعب بطيئة كلما انتقلا إلى لعبة جديدة. كان طبيعيًا تمامًا أن يمرًا بفترة إحماء، كما يحدث لشخص يجيد لغات كثيرة فور وصوله إلى مطار، إذ يحتاج أن يسمع اللغة المحليّة حوله قبل أن يستعيد طلاقته في الحديث بها. لم يمض وقت طويل قبل أن تستقرّ اللعبة على إيقاع ثابت من رمي النرد وتبادل الأدوار، فضلًا عن جولات ممتدة من الأحاديث بين الصديقين، وكلاهما ذو تفكير حرّ ونطاق عريض من الاهتمامات.

طالما افتتن هنجري بول بالعالم المحيط به، ورآه شيئًا خلابًا. وطالما رأى أدبيّات الفهم العلمي أشبه بأنطولوجيا للخرافات، فهي شيء شديد الروعة منيع لا نفاذ إليه فلعله هو نفسه أسطورة. وراق له دائمًا أن يستعير نسخ مجلة ناشونال جيوغرافيك من المكتبة، فيؤخّرها عنده بالشهور في بعض المرات، ولا يجد غضاضة في ذلك وهو يقرأ مقالات عن التأريخ الكربوني أو الفُرس. فبقي له بتلك الطريقة اهتمام حيّ بالعالم الأوسع، مع بقائه أعلى وأبعد عمّا يوصف عمومًا بالأحداث الجارية. أمّا ليونارد، العصامي إلى حدّ بعيد، فحافظ على اشتراكه في نيو ستيتسمان، وكان تجديده هدية أمّه السنويّة له في الكريسماس منذ سنين كثيرة. كان يحبّ أيضًا أن يقرأ يسترداي توداي ليعرف أحدث مستجدّات التاريخ العتيق. فكان ابيضاض الشعاب المرجانيّة، لدى كلا الصديقين، حدثًا جاريًا شأنه شأن أحدث انتخابات عامة، واكتشاف كواكب قزميّة جديدة في مثل أهميّة ركلات الجزاء في الليلة الماضية، وماركو بولو موضع نقاش بقدر ما تكون فاتنات البساط الأحمر في المهرجان الأخير

موضع نائم الآخرين. كانت أحاديثهما تجمع اليْن من محبة ليونارد للحقائق باليانج من فضول هنجري بول العشوائي.

قال هنجري بول «هل تذكر معرض إدفارد مونش الذي ذهبنا إليه العام الماضي، وكلّ تلك اللوحات الآسرة للأطفال المرضى؟»

«طبعًا أتذكر. أرى أنّه لم تزل لديك الصرخة على مغنطيس الثلاجة الذي اشتريته تذكّارًا بعد الجولة. ليس فنانًا عاديًّا يا أخي ذلك الذي يشقُّ طريقه حتى يصل إلى الثلاجة».

«يعني، كنت أقرأ اليوم مقالة عن تلك اللوحة بالذات، وتخيّل ماذا عرفت؟» وواصل هنجري بول تعذيبه «هل تريد أن تعرف ماذا يكون أكثر شيء فاتن فيها؟»

«دعني أفكّر. الخلفيّة البرتقاليّة تتصل باندلاع بركان كراكاتوا؟ صح؟ أليس كذلك؟»

«حلوة. لكن ليست هذه» وكان هنجري بول يهزُّ فنجان النرد طيلة الوقت مضيّفًا المزيد من التشويق.

«إذن أستسلم».

رمى هنجري بول نرده على الرقعة وهو يكشف أنّ «الشخص الذي تصوّره اللوحة لا يصرخ في حقيقة الأمر»، ورمى بقدر من الحماسة تحمّمت معها استعادة أحد مكعّبات النرد من أسفل الطاولة، وكان على أربعة، ولم يكن ذلك لينفعه في شيء.

«فعلًا؟ متأكّد؟»

«تمامًا. هذا هو الأمر كلّهُ. الشخص في واقع الأمر يسدُّ أذنيه دون صرخة. أليس هذا مذهلًا؟ أن يساء فهم لوحة إلى هذا الحدّ وتبقى شهيرة».

«فعلاً؟ أعترف أنني في ما أعتقد قد ارتكبت ذلك الخطأ بنفسي في العديد من الموسوعات. لا يهم. ستكون إضافة مهمة إلى طبعة منقّحة».

هزّ ليونارد النرد ورماه فحصل على أربع مكعبات برقم واحد ولعب دوره. وارتشف من فنجانه، ولكن الشاي كان قد برد دون أن يلحظ، فاضطرّ إلى بلع ملء فمه من الثفل المثير للغثيان.

قال هنجري بول وقد بدأ يدخل مرحلة الاستغراق التام «لا أتصوّر أن تكون رأيت الفيلم التسجيلي عن إدوين هابل<sup>(1)</sup> ليلة أمس. شاهدته أنا وأبي بعد الجودو، بينما أمّي على الهاتف مع جريس. أعترف أنني لولا التلفزيون لما فهمت شيئاً مطلقاً عن الفضاء. الحمد لله أن أساتذة أكسفورد المتحمّسين أولئك يُعدّون كلّ هذه الأفلام التسجيليّة في بي بي سي على هامش اهتماماتهم، ويكسبون قرشين محترمين في ما أتصوّر. التلفزيون والفضاء خلق أحدهما للآخر. انهمكت وأبي في المشاهدة لدرجة أننا أكلنا قالب شوكلاتة توبلرون كاملاً، ومن النوع الكبير الذي تجده في المطارات».

قال ليونارد «يؤسفني أنّه فاتني. من الأمور التي لم أورها قطّ بشكل صحيح في موسوعاتي، حتّى بعد أن قرأت عنها مرّات كثيرة على مدار السنين، مسألة توسّع الكون وانقباضه هذه. أقصد أنني لم أتمكّن من فهم فيزيائها، ففكرة أنّ الكون محاط بشيء ليس من الكون، ويتمدّد الكون فيه، أم أنّ الكون لا يتمدّد بل الفضاء هو الذي يتمدّد؟ كيف تشرح هذا لأطفال دون أن تتركهم للمليون سؤال بلا إجابة؟ دعك من فكرة أنّه سوف ينكمش فجأة انكماش المطّاط ليصبح بحجم رأس دبّوس مرّة أخرى، فهذه كفيّلة بأن تروّع أيّ طفل عنده شعور. كيف لنا أن نسير ونمضي في حياتنا الطبعيّة

---

(1) Edwin Powell Hubble (1889-1953) عالم فضاء أمريكي شهير أطلق اسمه على مسبار

هابل الذي بات يفوقه شهرة.



ونحن نعرف أنَّ شيئًا كهذا يحدث فوق رؤوسنا؟ ينبغي لنا جميعًا أن نكون أقلَّ اهتمامًا بنصينا لو أنَّنا نقدَّر حقًّا أنَّ الكلَّ سوف ينتهي في آخر الأمر إلى مثل نقطة ضئيلة في آخر السطر. أتصوّر أنَّك يجب أن تثق في العلم، لكنَّه يتحوَّل إلى إيمان أعمى بعد نقطة معينة، في حدود ما يعينني أنا على الأقلَّ».

ضاق ما بين حاجبي هنجري بول وقال «الصراحة أنَّني أجد مسألة تمُدُّ الكون هذه تفطر القلب. كأنَّ أَمَّنَا الطبيعة تحاول أن تبعد كلَّ شيء عن كلِّ شيء. شيء يصعب وصفه بالأمومي. ربَّما الكون يتمدَّد بالفعل، لكنَّه يتمدَّد ليتعدَّ عنا، تاركًا إيَّانا أشدَّ وحدة، وتاركًا عالمنا أصغر بكثير».

ثم ركن الصديقان إلى إحدى سكتاتهما الطويلة التي تسم ارتياح كلَّ منهما إلى رفقة الآخر. كان بوسعهما أن يجلسا هادئين لفترات ممتدَّة دونها حاجة إلى المسارعة بالرجوع إلى ما كانا يفعلانه، متيحين للصمت أن يذوب بينهما على مهل. غير أنَّ ارتجال هنجري بول - في تلك المرَّة - حول الفيزياء الفضائية ضرب وترا شجياً في نفس ليونارد. ففي الأسابيع المنصرمة منذ وفاة أمِّه، لاحظ ليونارد انقباضاً بيئاً في كونه الشخصي. أمسياته باتت أقلَّ انشغالاً، وخياراته الاجتماعية ضاقت، وعقله بدا منكفئاً إلى الداخل باتجاه أسي حالم مبهم. وفيما نهض هنجري بول ليعيد تشغيل الغلاية ويغسل الفنجانين، أثار ليونارد الموضوع من جديد.

قال «ربَّما لا يقتصر التمدُّد والانقباض على الكون، بل ينطبق ذلك علينا نحن، فاهم، فيما نكبر، تبدأ حياتنا في التقلُّص».

«ماذا تقصد؟»

«الأمر أنَّ العالم كان يبدو للواحد منَّا، وهو طفل، ضخماً بصورة مرعبة. المدرسة ضخمة. الكبار ضخام. المستقبل كان يبدو ضخماً. لكنَّ شعوراً بدأ يتابني الآن بأنني بمرور الوقت نكصت إلى عالم أصغر. أرى الناس

يسارعون من حولي فأتساءل إلى أين هم ذاهبون؟ ومن الذين يقابلونهم؟ حياتهم شديدة الامتلاء. أحاول منذ فترة أن أتذكر لو أن حياتي يوماً ما كانت على مثل ذلك».

توقّف هنجري بول لوهلة. «أظنُّ أنني أعرف ما تعنيه، لكن بالنسبة إليّ، كانت ضخامة الحياة هي المشكلة دائماً. أنا قضيت ثلاثة عقود أشقُّ طريقاً آمناً عبر البريّة، مثلك أنت بدرجة ما. ذلك الدرب يضيق في بعض المواضع، لكن هل هذا أمر شديد السوء؟»

قال ليونارد «لا يقتصر الأمر على الظروف الخارجيّة فقط، أشعر أن نفسي تصغر. أشعر أنني أكثر هدوءاً، وأنتي أيضاً أكثر، لا أعرف، أكثر خفاءً. مع هذا الإحساس المادي بالفيزياء، بأنّ حياتي تُشدُّ إلى الداخل. وشيء أفضى إلى آخر فإذا بي الآن أشعر أنني لو لم أفعل شيئاً فإنّني ماضٍ إلى وجود تافه عديم الأذى».

قال هنجري بول «هذا يحتمل كلاماً كثيراً. أنا كما تعرف كنت دائماً أبوقراطياً بطبيعتي، فلا أحبُّ أن أتسبّب في أذى. وطاب لي دائماً أن أتقهقر عن العالم. تماماً مثلما يوصي كتيب التعليقات المروية، أحبُّ أن أتوقّف، وأنظر، وأسمع، قبل أن أتورّط في شيء. وهذا أفادني وحافظ لي على علاقة سلمية مع من حولي. ومؤكّد أن هذا أفضل من محاولتي أن أترك أثري على العالم فلا أنتهي إلّا إلى محوه».

«لا تتصوّر أنني أوشك أن أحتج بتقييد نفسي في القضبان أو رمي الحديد على رجال الشرطة، لو أن هذا ما تعنيه. فلا نقص في العازمين على سلوك هذا الطريق. لكنني لا أملك ألا أشعر بأنّني بحاجة إلى أن أفتح أبواب حياتي وشبابيكها قليلاً».

تردّد هنجري بول، ممسكًا قطعة بسكويت أعلى فنجان شايه لبرهة أطول قليلًا من المعتاد، ناظرًا في أسي إلى هلال من البسكويت يغرق إلى قاع فنجانه. قال «قد يكون الأمر كذلك، لكنّ المحكّ هو أن تعرف مقدار ما تسمح بدخوله من العالم، دون أن يغرقك. فالكون كما علّمنا إدوين هابل بيئة معادية».

قال ليونارد «فعلاً. وفي بعض الأحيان يصعب عليك أن تعرف هل تريد أن تصرخ أم تريد أن تسدّ أذنيك دون صرخة».

يصعب القطع بها إذا كان السبب هو حديث الياهتزي، لكنّ الرجلين وجدا نفسيهما في أحد تلك الأحاديث المزهرة التي تفتح فيها فكرة الباب لفكرة. ربّما كان بوسعهما أن يتناقشا في الأمر طوال المساء، لو أنّه كان افتراضيا محضاً. ولما كان الأمر غير ذلك، فقد أتاحت لهما السكّنة الطبعيّة لحظة لمراجعة نفسيهما. فحتّى بين الأصدقاء المقربين، يبقى من الأفكار ما يحسن التمهّل عليه إلى أن ينضج في معزل.

أنها شايهما، وبعد اللعب الممتع طوال المساء، وبعد أن تحوّلت ورقة نتائج كلّ منهما إلى فوضى، توصّلا إلى قرار غير معلن بأنّه يحقّ لهما أن يعدّا هذه ليلة وأيّ ليلة.

أطلّ ليونارد برأسه في غرفة الجلوس ليلقي التحيّة. كانت هيلين قد انتهت من تجميع الصورة - وهي للوحة الزنابق لمونيه التي كتب عنها ليونارد في موسوعة عالم الفن - وانهمكت في مكالمّة هاتفية مع جريس أخت هنجري بول لمناقشة الذي جيه في الزفاف. وكان بيتري، بصبر القدّيسين، قد أوقف البثّ التليفزيوني مرّة أخرى وردّ التحيّة برفع إبهاميه.

ودّع هنجري بول صديقه ليونارد عند الباب.

قال ليونارد «تصبح على خير».

قال هنجري بول «وأنت من أهله يا ليونارد» مغلقاً ثوب حَمَام الجودو حتى حلقة ليقى صدره من البرد.

ودونها تفكير، رفع الاثنان رأسيهما إلى الكون الحالك الذي كانا يتكلمان عنه للتو، فبدأ قمر، في ضخامة كشاف، ساطع على الحلازين متقاطعة المسارات في الممشى. خطا ليونارد فوقها في طريقه إلى البيت، حاملاً معه أشياء قالها على مدار المساء، أشياء لم يكن يعرف تقريباً أنه يعرفها.

مكتبة  
t.me/soramnqraa

## الفصل الثالث

### الرومان

في اليوم التالي، حاول ليونارد في العمل أن ينقذ فصلًا عن الرومان في بريطانيا. كانت الدفعة الأولى من التعديلات قد وصلته من الكاتبة المشرفة فإذا هي غارة من الخطوط النحيلة الحمراء والكلمات المحذوفة. حينها قبل جميع تعديلاتها ليرى فقط كيف تبدو النتيجة، إذا بعدد الكلمات يتقلّص أمامه حتى صار الفصل كله ملائمًا للطبع في ورقة بحجم كعكة.

كتبت له في أحد مربّعات التعليقات تقول «هل بوسعنا أن نكتب هنا شيئًا أصيلًا؟» وفي آخر أثارت السؤال «هل هذا كلام يمكن أن يقوله أحد فعلاً؟». ومثل هذه التعليقات المبهمة المحبطة هي العرف بين الكتّاب المشرفين الذين قد يكونون خبراء في مواضيع معيّنة لكنهم لا يكادون يعرفون شيئًا عن عقول الأطفال ومشاعر الكتّاب. فكان ذلك يفضي إلى تبادل للتعديلات أشبه بمباراة في تنس الطاولة تستوجب قدرًا من التحمّل أكبر بكثير ممّا ينبغي. حتى إنّ ليونارد كثيرًا ما شعر بأنّه يحصل على راتبه جزاءً لصبره. فما أشقّ أن يعمل بأحسن ما يستطيع وهو يعلم أنّ أفكاره الجيدة إمّا ستُرفض دونما فهم أو ستصادَر وينسب الفضل فيها إلى شخص سواه. فحاول دائمًا أن يُبقي نصب عينيه نصيحة أمّه له ذات يوم بأن يأخذ عمله على محمل الجدّ، شريطة ألا يأخذه على محمل شخصي.

بصفة عامّة، لم تكن لموسوعات الأطفال التاريخية مثل شعبية الكتب

المعلوماتية الأخرى أو جودتها. فكان خيرة الرسامين يفضلون العمل على الديناصورات (لمن يحبون منهم الرسم باليد) أو كتب الفضاء (لمن يحبون الجرافيكس). في حين بدا أن موسوعات التاريخ تجذب الرسامين مختلطي المواهب. فواحد من الرسامين لا يستطيع رسم الناس إلا وهم يواجهون الناظرين في الصفحات، يحملون في القارئ، فتأتي مشاهد المعارك هزلية. وآخر لا يستطيع أن يرسم جنسيات مختلفة في رسم الجميع وعلى وجوههم شيء من العبوس، مقدراً، دون أن تخطئه البصيرة، أن الغاضبين في كل العالم متماثلون.

والرومان أنفسهم، بصفة خاصة، مشكلة. لأن كل ما يقع بين ما قبل الميلاد وما بعد الميلاد يستحيل عملياً شرحه للأطفال. إذ يبدو أنك تتحرك في الزمن عكسياً إلى الصفر ثم تعود فتמضي قدماً، وهذا مربك للأطفال الذين يحسبون الزمن وفق أعياد ميلادهم عيداً بعد آخر. كما أن أسماء الرومان الطويلة تجعل من الصعب الإحساس بتشابه معهم، وخصوصاً أن أستريكس ومونتي بايثون<sup>(1)</sup> استعملوا جميع الأسماء الهزلية اللائقة ولم يكن من سبيل غير هذا لتجاوز تلك المشكلة. نعم، كان ثمة المعلومات المعتادة عن اللاتينية، وقنوات المياه، والطرق المستقيمة، والعبيد، لكنها استهلكت ولم يعد بوسعها أن تنافس هجمة التيرانوصور أو الانفجار النجمي الهائل المعروف بالمستعر الأعظم.

لكن مشكلة ليونارد الحقيقية هي تنمر الرومان الذين تحرشوا بالجميع على مدار أربعمئة سنة، ولم تنكسر شوكتهم إلا حينما تعرضوا لتنمر من

(1) أستريكس Astérix أو مغامرات أستريكس Astérix le Gaulois سلسلة كتب كوميدية فرنسية مصورة أبطالها مقاتلون من الغالين يحاربون الرومان في عصر يوليوس قيصر، ومونتي بايثون Monty Python كانت فرقة كوميدية سريالية بريطانية.

القوط والبربر فاق تنمُّرهم. وهذا، في نظر طفل، خطُّ قصصي مزعج. فالمرء قد يحلو له الظنُّ بأن يد المتنمِّر العليا قصيرة العمر وأنَّ سقوطه يأتي عنيقاً ودائماً. لكنَّ الحكاية الحقيقيَّة تفتقر افتقاراً مزعجاً إلى الجزاء.

ولمَّا أُجذبت أفكاره، خلع ليونارد سَماعات عزل الصوت وإقصاء المجتمع ومضى إلى حجيرة المطبخ لإعداد فنجان منتصف الصباح، برغم أنَّه لم يطق قطُّ الانتظار الأبله إلى أن يغلي الماء واحتمال الوقوع في شرك ثرثرة الغلايات قاتلة الوقت.

راجع هاتفه المحمول فوجد مكالمة فائتة من رقم خاص، من المؤكَّد أنَّها اتصال أجراه هنجري بول من هاتف المنزل. فلم يكن لدى هنجري بول هاتف محمول، وكثيراً ما كان يترك رسائل صوتيَّة ملحميَّة، تمتدُّ عبر العديد من الرسائل، لتبدو في بعض الأحيان وكأنَّها مسرحيات مونودراما إذاعيَّة: أهلاً، ليونارد، الظاهر في عالم يتنافس فيه الناس والأعداد أنَّ الأعداد تنتصر.

هكذا بدأ هنجري بول بداية غامضة، ووجيزة، وبليغة، شأن روائيٍّ في روايته الأولى.

المعتاد أنَّني أفضل مناقشة الأمور الدقيقة وجهاً لوجه، لكنني أظنُّ أنَّ ترك رسالة صوتيَّة أفضل من الانتظار إلى أن أراك في لقائنا التالي.

لم يرغب عن ليونارد أدب هنجري بول المعتاد الذي لا تشوبه شائبة.

أمِّي وجريس تكلمتا عن الزفاف، بشيء من الإسهاب، وبشيء من التفصيل، والأمر أنَّ الأعداد محدَّدة للغاية. أعني أنَّه زفاف «نحو مئة» مدعو، على حدِّ قولهما لي، وإن لم تكن لديَّ فكرة عمَّا — \*صافرة\*

ليس حديث هنجري بولي الفائض بالغريب على ليونارد، فأغلب رسائله

يأتي في قالب المتتالية.

آسف. لا بدّ أن أبرع في إلقائها دفعة واحدة، فأرجو ألا يكون في هذا جفاء شديد.

وتريّث في نطقه كلمة جفاء، مستغرقاً في ذلك فترة طالت بعض الشيء فجاءت الكلمة كأنّها بلكنة أخرى.

والمنة في الحقيقة ليست سوى خمسين لكلّ من العروس والعريس، وهذه في الحقيقة ليست سوى خمسة وعشرين لكلّ منها، إضافة إلى مرافق لكل واحد من هؤلاء الخمسة والعشرين. وفي حين أنّه مقبول تمامًا للناس من الأفلاك البعيدة أن يخرجوا من القائمة، فهم، أقصد، «نحن» - فقد قيل لي تحديدًا أن أقول «نحن» - نحن بحاجة إلى ضبط الأعداد قدر الإمكان. -  
\*صافرة\*

وفيما يكتمل نزول الرسالة التالية هيئاً. ليونارد نفسه لتقليل درجته من مدعوّ في الزفاف، إلى مدعوّ إلى حفلة الاستقبال في ما بعده، بما يعني ضياع كلّ فقرات الزفاف اللطيفة، والاكتفاء بحضور فقرات السكر المتأخرة التي يكرهها. كان من المستبعد أن تتاح فرصة لتقليل مكافئ في درجة هدية الزفاف، دونها إثارة لضغينة وانطباع سلبي.

فأنا، بل نحن، نحن نتساءل إن كانت لديك أيّ خطط لاصطحاب مرافق، لأنني أكدت بالفعل أنني سوف أحضر بغير مرافق في الليلة المعنيّة بسبب جمع من العوامل، ولو أنّك في مثل موقعي، إذن قد يكون كلّ منّا مرافق الآخر، وبذلك نخلي مكانين أنا على يقين من أنّهما سوف يُخصّصان لضيفين دون حضورهما قد يكون الزفاف كله، وبحسب التعبير الذي أعتقد أنّ جريس استعملته، «متوتّراً». في ظلّ هذه الظروف، وفي ضوء أنّ جريس لم تطلب منّي أيّ شيء مطلقاً، أجد في نفسي ميلاً إلى التساهل، فلعلّ



بوسعك أن تفكر في الأمر وتتصل بي عندما تتاح لك فرصة. ولا أريدك أن  
تتصور - \*صافرة\*

ولا مزيد من الرسائل.

كان اتخاذ ذلك القرار أمرًا يسيرًا. لقد مرَّ وقت غير قليل منذ أن كان  
ليونارد يحضر الأعراس مرافقًا إضافيًا على دعوة أحد، والحقُّ أنَّه في هذه  
الأيام لم يكن نفسه أصلًا، فالمرافق أقرب إلى الصواب. بل إنَّ إنزالهم له  
إلى مرتبة المرافق فيه مغالاة شديدة في التقيّد بالرسميات.

اتصل ليونارد فردت هيلين، وبدا عليها بعض الحرج من الأمر كلّ،  
لكنّها لم تبذل جهدًا لإثناؤه عن الموافقة على أن يكون مرافق هنجري بول.  
قال مازحًا «ما دمت لن أضطرّ إلى ارتداء فستان والرقص معه، فلعلمك، أنا  
مستعد تمامًا لأن أكون كَنَّة لك».

«شكرًا على تفهّمك يا ليونارد. لم نكن نعرف كيف نطلبها، لذلك أنا  
سعيدة أنَّك لا تجدد في الأمر بأسًا».

«على الإطلاق، على الإطلاق. أبلغني جريس أحرَّ آمياتي، وعسى ألا  
تكون متوتّرة. كلُّنا معها».

أنهى ليونارد الاتصال وخلع قناع اللين الودود. في وقفته تلك بحجيرة  
المطبخ، استعاد صدق الحرج الذي بدا على هيلين، ولستعاد معه أمرًا آخر.  
لا بدَّ أنَّ مرافق دعوته، التي تلقّاها قبل أسابيع، كالم أمّه الراحلة. لطمته  
الفكرة لطمة هيّنة للحظة في حين دخل رجل في ثياب قطنيّة وأصدر جلبة  
ناقمة فحواها تتعلّق بالعثور على الفناجين التي تترك منقوعة في الحوض.  
في لهفة إلى العودة إلى سمّاعاته العازلة للصوت، رفع ليونارد علبة الشاي  
الخاصّة به وانتهى من تقليب حليب وحدته الملموس.

## الفصل الرابع

### جريس

لو أن حادثة واحدة هي الأفضل تجسيداً للعلاقة بين جريس وهنجري بول، فتلك حينما تلقى الجنيهات الخمسة مع بطاقة عيد ميلاد للمرة الأولى وهو طفل. دس ورقة الجنيهات الخمسة في ذلك الجيب الغريب الذي يتميز الجينز بوجوده داخل الجيب: وهو جويب ضيق غير عملي لا يكاد يتسع لإصبع. أخذته جريس - التي تكبره بثلاث سنوات - إلى المحلات لإنفاقها على مكسبات اللون والمجلات المصوّرة. وفي الطريق لمح هنجري بول أحد أولاد الحيّ، ولعلّه صبيّ من ملعب كرة القدم كان عادة يتجاهله أو يعمد إلى ما هو أسوأ من ذلك، فناداه، مبتهجاً بأنّ لديه ما يستعرض به عليه ولو مرة. وفيما يحاول اصطياد الورقة النقدية من ذلك الجويب السخيف قطعها نصفين. شخر الولد ساخرًا ثم ركل الكرة أمامه ومضى يطاردها نازلاً التلّ، تاركًا هنجري بول واقفًا هناك، وقد شلّته الخيبة والارتباك. وقبل أن يتاح له الوقت الكافي لحساب آخر إخفاقاته، مدّت إليه جريس خمسة جديدة وأخذت القديمة المقطوعة. جرى وراء الولد ذي الكرة، فرحًا بنفسه، ناسيًا أن يشكر جريس التي سارعت تتبعه خشية أن يعبر الطريق دون النظر يمينًا ويسارًا.

شأن كلّ الأطفال الكبار، ظلّت جريس لفترة وحيدة أبويها، فكبرت في دفع قنديل اهتمام أبويها كاملاً غير منقوص، ثم لما جيء بهنجري بول من

المستشفى بعد بعض التأخير بسبب التحاليل، رحّبت به بحماسة بناتيّة أخويّة واضحة. ولَمَّا مرَّ عليه الوقت وبدأ يمشي وكبرت هي، صارت تساعد دونها إشراف من أبويهما في الاعتناء به بطرق بسيطة، منها في العادة منعه من إيذاء نفسه، إذ كان يحلّوله الاستناد بأصابعه على مفصلات الأبواب، وحشر رأسه بين القضبان، وبلع علكة النيذ دون مضغها.

كانت في المدرسة الابتدائيّة طفلة متفوّقة، وجادّة في المذاكرة، ومهذّبة، أي أنّ فيها كلّ مواصفات حبيبة المعلّمين، ولم يحمها من سيّئات ذلك الدور ومزالقه إلّا فتنّتها الطبيعيّة وظرفها. ولكنّ الأمر لم يكن يسيرًا كله. في أولى سنوات المدرسة كان أقرب الأصدقاء إليها ولدًا واسع الخيال رقيقًا اسمه فريدريك يخترع ألعابًا فنتازيّة ويثرثر بحماسة ملهمة عن الديناصورات والفضاء الخارجي. (وقد أوضح أنّه لا داعي لأن نذهب إلى الفضاء بما أنّنا نعيش في الفضاء، «وإلا فأين تظنّين الأرض موجودة يا عبيطة؟») ولم تمض بضع سنين حتى انتقل فريدريك إلى مدرسة أخرى مع أنّ أبويه لم ينتقلا من البيت. وذاقت جريس الحرمان. والأدهى من ذلك أنّ جميع من الفصل كانوا قد استقرّوا في مجموعات في تلك الأثناء، فبقيت جريس بلا صداقات. صارت ترهب وقت الغداء، وتودُّ لو تطيل قدر الإمكان أمد تناولها السندوتش والفطيرة لكي تقضي أقلّ وقت ممكن وحدها في فناء المدرسة. فلا عجب أن أصبحت جريس الأبطأ تناولًا للطعام في البيت، ولكلّ بيت عموماً بطيئه في تناول الطعام.

والوحدة تلد الوحدة. وهي كانت طفلة منعزلة، فلم تكن تمثّل لبقية الأطفال وعدًا مثيرًا، وهكذا، دون أن يفعل أحد أيّ شيء، أصبح أمرًا واقعيًا أنّها بلا أصدقاء. أمّا هي فمضت تقارن نفسها بهنجري بول إذ تراه في فناء الصغار، وحيدًا كدأبه وهائئًا داخل رأسه، ولكنّه يبدو لها بتعايشًا مع وضعه،

لا هيّا عن كلّ شيء وله من لهوه هذا ما يحميه.

في تلك الفترة التي دامت قرابة سنة، وإن شعرت بها وكأنّها عهد الإمبراطوريّة العثمانيّة، كانت جريس تهيم في الفناء وحيدة، وفي بعض المرّات، بدافع من الإحباط المحض، قد تنطلق في الجري كمن تريد أن توهم نفسها بأنّ أحداً يجري وراءها. ومرة تعثّرت ووقعت على الأرضيّة الحجريّة القديمة وخدش باطن يدها خدشاً عميقاً، وأصبح الجرح مزيجاً من الدم الخفيف وذرّات الحجارة المؤلم تنظيفها. خجلت أن يسألها أحد لماذا كانت تجري وحيدة، فأخفت الجرح عن المعلّمة ونظّفته لاحقاً بنفسها في البيت، دونما دربة. ولما سألتها هيلين عن الجرح عند النوم تحصّنت بالغموض، وذلك ما سيكون دأبها لاحقاً، في سنوات مراهقتها.

تبدّل وضع جريس بحادث مأساوي. كان جاري كراو ولدًا في التاسعة من عمره يحلم بأن يكون إطفائيًا، ويجلس هو وجريس إلى طاولة واحدة في المدرسة، ومات في حادث تعرّض له في بيته. كان أبوه ميكانيكيًا يعمل في محرّك معلق في رافعة بمرآبه وذهب ليشتري بعض قطع الغيار. تعلّق جاري في سلسلة الرافعة فجذب المحرّك وأوقعه من فوقه. أصابت وفاة جاري الفصل كلّّه بالذهول. وتردّدت أصداء القصّة الصاعقة في كوابيس الأطفال ممّن عرفوه، فأعادوا تحيّلها في أسرّتهم بعد إطفاء المصابيح. وقضى نحو عشرين زوجا من الآباء الشهر التالي وهم يشرحون في هدوء أنّه لا داعي للقلق من أيّ شيء، وأنّها محض حادثة، وأنّ الأسرة والبيوت وأماكن السيّارات أماكن آمنة تمامًا. فنجا الأولاد - في تلك الفترة على الأقل - من الرعب الحقيقي الذي كانوا يشعروا به لو تحيّلوا ما كان يمرّ به والدا جاري.

صعقت المأساة الفصل وأعادت تركيب بنيته الاجتماعيّة. تحطّمت قواعد الفناء وتفتّنت المجموعات فصار الجميع يلعبون مع الجميع دونما

وعى بأنَّ غرائز البقاء هي التي ساقطتهم جميعاً إلى غُصَّ الطرف عمّا بينهم من اختلافات. ومضت جريس وقد شعرت أنَّ ذلك التغيُّر ذوّب الجليد الاجتماعي من حولها فانغمست في ما شعرت بأنّه قد يكون فرصة قصيرة من فرص العمر، ومضت تضحك على نكات الأولاد الآخرين وتلعب ألعابهم وتكتب رغباتها الثانوية الخاصّة لصالح رغبتها الأساسيّة في أن تكون جزءاً من الكلّ.

كانت الصداقات التي كوَّنتها جريس في المدرسة الابتدائيّة «صداقات نجاة» لا صداقات حقيقيّة - فلن يحضر الزفاف من أولئك أحد - لكنّها ساعدتها على أن تتزن وتستعيد مرّة أخرى حبّها لنفسها. دامت هذه الصداقات حتّى المدرسة الثانويّة حين بدأت جريس تتمايز بانغماسها في شيوعيّة التلامذة وروايات المفتش مورس<sup>(1)</sup> وألبومات جودي ستيل<sup>(2)</sup> وبالخروج في تمشيات طويلة طويلة كانت لتجعل أيّ أبوين متيقّظي الضمير يتفقّدان نشرات المفقودين. كانت سنوات مراهقتها استكشافيّة، وبشكل عام، معتدلة المزاج. وبرغم بعض التقلُّبات المزاجيّة والقليل من صفق الأبواب، فقد بدا أنّها تجرّب ذلك كلّ بدافع من الفضول لا أكثر، مستشعرة أنّ لديها بعض الورق الجامح وأنّ من العار أن تغفل اللعب به.

بلغت علاقتها بهيلين أقصى درجات الصعوبة في تلك السنوات. فقد كانت جريس وهيلين دائماً مقربتين وبينهما قناة اتصال حدسيّ يتبادلان عبرها النكات والنظرات والتلميحات والتفاهات، فكأنّهما ثنائي من الممثلين الفكاهيين برع كلّ منهما في معرفة دور الآخر حتى بلغ أدأؤهما معاً

---

(1) شخصيّة خياليّة في سلسلة روايات بوليسيّة للكاتب البريطاني كولين دكستر Colin

(1930-2017) Dexter

(2) (1944-1979) مغنية أمريكيّة

مستوى يفوق الخيال<sup>(1)</sup>. وخلال سنوات مراهقتها، ودونها أي نقطة بداية واضحة، نأت جريس عن هيلين، وانكفأت على نفسها. بات صعباً الوصول إليها أو التواصل معها. وبرغم أنَّها لم تكن تعيسة أو نكدة، فقد بحثت عن التغذية من داخل نفسها، في أفكارها الوليدة وميولها الناشئة، فكان ذلك ببساطة أمراً لا يمكن إشراك هيلين فيه. ولأنَّ جريس هي الابنة الكبرى، فقد كان كلُّ جديد عليها جديداً على أبويها، ولعلَّ هيلين وقعت في خطأ المعلمين الكلاسيكي فظنَّت أنَّها، في ما يتعلق بالأطفال، رأت كلَّ شيء، وأنَّه ما من شيء جديد عليها. فكلَّمها حاولت الاقتراب من جريس، ضاعفت عدم فهمها إيّاها.

وكالعادة في أكثر الحالات، حينها يشقُّ الأمر على أحد الأبوين يتقدَّم الآخر، فالأبوة رياضة جماعية يلعبها أفراد. في تلك الفترة صار بيتر - وهو نفسه قد يكون عميقاً ومنغلقاً على نفسه - أقرب إلى جريس. قبل ذلك كان له دائماً حضور دافئ وودود في حياتها، فيقضم القطع المسودة من موزاتها أو يسمح لها بنتف الشعرات من أذنيه، لكنَّه في بعض الأحيان اقترف إثم التصرُّف كأنَّه أب بالنيابة، يحاكي طريقة هيلين بدلاً من أن يعثر على بصمته الخاصة. كان بطبيعته منطوياً، سعيداً بانطوائه. تملؤه بالطاقة لحظات الصمت والعزلة والسكون. فلم تكن الوحدة قطُّ بالشيء الذي يسعى إلى قهره، ولكنَّها الشيء الذي يصاحبه ويسعى إليه. وهكذا نقلت جريس اتصالها من هيلين إلى بيتر في تلك السنوات، وصار الاثنان ينعمان برحلاتهما الطويلة الصامتة في السيارة أو قراءة الكتب على مائدة المطبخ دونها إحساس بالحاجة إلى تبادل الآراء أو حتى تكوينها في ما يقرآن.

---

(1) الإشارة هنا إلى (الفعل المزدوج) double act أو (الثنائي الكوميدي) comedy duo وهو شكل كوميدي نشأ في المسرح الموسيقي البريطاني حيث يقوم اثنان من الممثلين بالأداء معاً كأنهما ممثل واحد.

وبرغم أن جريس ربّما ما كانت لتوافق بالضرورة على هذا، فقد كان يقال بصفة عامة إنّها خرجت منها سالمة. كان لذلك علاقة بمواهبها التي يوازنها التواضع والبساطة، وبأنّ إنجازاتها هي نتاج للعمل الجاد وليس للتميّز. والمجاملة جزء من ذهنيّة يتسم بها الناس ممّن لا يؤمنون بالمديح إلاّ حين لا ينطوي على مبالغة. ولو كانت جريس سئلت في ذلك الوقت، فلعلّها كانت لتقول إنّها لا سعيدة ولا غير سعيدة، فهي كغيرها، وإنّها لم تزل تحاول أن تتحقّق طريقها في الحياة. ذات ليلة في حفلة عيد ميلاد صديق، خلال سنوات الكلية حين كانوا لا يزالون يعتادون على الشرب، سئلت أمام كاميرا تسجّل الحدث، عمّا يمكن أن تتمنّاه لو أتيح لها أن تتمنّى أيّ شيء في العالم. فدون أن تستغرق وقتاً في التفكير أو الاستظراف، أجابت إجابة قالت صديقاتها إنّها «جريسّيّة محضة». نظرت إلى عدسات الكاميرا التي باتت الآن تحفة بالية وقالت «أتمنّى... ما هو خير لي».

## الفصل الخامس

### تحيات

مرت الأيام القليلة التالية لحديث الياهتزي مع ليونارد هادئة على هنجري بول، ولم تكن الأيام الهادئة نادرة في جدول له. أتاح له هذا فرصة للتأمل في تمدد الكون وانقباضه مثلما يتجلى تجليًا بسيطًا في حياة أقرب أصدقائه. لو كان إدوين هابل نظر داخل ليونارد بتلسكوبه، لسجّل أن كلّ شيء على الحال الذي يوجبه الكون. إنّها الأمر - في ما يرى هنجري بول - هو أن العالم مكان معقد، والناس أنفسهم هم في آن واحد السبب الرئيسي والضحايا الأساسيون لتعقيده. كان يرى المجتمع مجموعة أدوات كيميائية، ممتلئة بعناصر قابلة للتفجّر، إنّ حسن التعامل معها فقد تكون فاتنة وتعليمية، أمّا في غير تلك الحالة فالأفضل حفظها بعيدًا عن متناول من لا يعرفون ماذا يفعلون. وبرغم أن حياته كانت - إلى حدّ بعيد - هادئة وعديمة الأحداث، فقد نحت خياراته إلى الحكمة: كان قد عاش بالفعل أكثر ممّا عاش الإسكندر الأكبر، وكان أعداؤه أقلّ أيضًا. لكنّه أفاق الآن على فكرة أنّه مهما تكن تفاهة شأنه قياسًا إلى سماء الليل، فإنّه يبقى خاضعًا لمثل ما تخضع هي له من قوى التمدد الجوهريّة. بدا له أن الكون عاجلاً أم آجلاً سوف يأتي ليطرق بابه. وهكذا حدث بينما يتناول فطيرة في الضحى أن قرأ في جريدة مجانيّة محلية مقالة قصيرة لم تخل من حسّ قدريّ كونيّ.

كانت صوت المجتمع توزّع على البيوت بناء على تصوّر كريم بكونها



معفاة من لافتات «يرجى عدم ترك بريد دعائي» الملصقة على صناديق البريد في المجتمع الذي ترى الجريدة أنها صوته. وكان دأب صفحتها الأولى أن تتصدّر لها صورة امرأة عجوز أو طفل في كرسيّ متحرك، وفي يد هذا أو تلك ما نجد أنفسنا مدفوعين إلى الاعتقاد بأنه رسالة مخاتلة من المجلس. ولم يكن العنوان الصارخ في العادة يتيح مجالاً يذكر لأن يصل القارئ إلى استنتاجات أخرى. وفي الصفحات الداخلية إعلانات فجّة في شكل مقالات، وصور أوسمة تقلّد، وعمود نصائح من الطبيب المحلي، ومخطّط مفيد يبيّن أيّ سلال القمامة يتمّ جمع محتوياتها في أيام الاثنين، للمبادلة بين القمامة المهملة والقمامة القابلة للتدوير.

كانت المقالة التي استولت على اهتمام هنجري بول تحمل توقيع الغرفة التجارية، وقد افترض أنها مجموعة ذات صلة ما بـ غرفة الأهوال في متحف الشمع، وأنها تعرض تماثيل شمعية لرجال أعمال من أمثال ريتشارد برانسن أو العم بن<sup>(1)</sup>. تناولت المقالة ما رآه هنجري بول مأزقاً شديداً للحدثة. فالتواصل يجري بصفة أساسية من خلال البريد الإلكتروني، في العالم الذي نعرفه اليوم، ومنه عالم التجارة بصفة خاصة في هذا الصدد. وقد انقضت سنوات من الجهود المبذولة لتعليم أعظم العقول التجارية كيفية كتابة نماذج الرسائل ثم انتهى ذلك كلّ إلى لا شيء، نظراً لأنّ فنّ التعبير لم يلاحق التطورات التكنولوجية. فمعجم العبارات الكلاسيكية، يواجه الآن الانقراض، بعد أن بدا ذات يوم أنّه أبديّ. وقد أفرد كاتب المقالة - أي السيد إتش مينز محرّر شئون المجتمع - مقالته لشيء من التأمل في الأمر برمته:

---

(1) هو السير ريتشارد تشارلز نيكولاس برانسن (1950 - ) رجل أعمال ومستثمر وعلاق اقتصاد إنجليزي أسس في السبعينيات مجموعة فيرجن التي تمتلك حالياً أكثر من أربعمئة شركة في مجالات عدة. و(العم بن) علامة تجارية أمريكية للأرز وغيره من المنتجات الغذائية.

إنَّ عبارة مثل «إلى من قد يهّمهُ الأمر» يبدو لها وقع رسالة في زجاجة، من حيث أنَّها تتوجّه إلى قارئ غير محدّد، أو تحاول التعرّف على اسمه، واسم عائلته، ولقبه، ونوعه، وعمله. وهي أيضًا تفسح مجالًا لاحتفال ألا تكون للرسالة أيُّ أهميّة للقارئ على الإطلاق، ذلك أنَّ «قد» ربّما تشير إلى أنَّ الرسالة كلّها قد لا تعدو صيدًا عشوائيًا جامحًا لأبعد الفرائس احتمالًا.

«سيّدِي العزيز أو سيّدتي العزيزة»، عبارة صيغت في الأصل بوصفها تنازلًا أليّما من أنديّة السادة ذات المقاعد الجلديّة لمواجهة احتمال حتميٍّ بأنَّ بعض الرسائل المهمّة سوف تقرأها نساء. ونهج «إمّا أو» المتّبع هنا يفتح دونها قصد احتماليّة أن يقرّر القارئ قراءة الرسائل مرّة كرجل وأخرى كامرأة. وعلى أيّ حال، لم يعد أحد في أيّامنا هذه يخاطب بالسيّد، إلّا من بائع في محلٍّ لا يحتمل مطلقًا أنّه يكنُّ أيّ احترام حقيقيٍّ لزبائنه، أمّا مخاطبة امرأة بـ «السيدة» فرسميّة بصورة لا تعقل، بل رسميّة إلى حدّ المسرحيّة، ولا يكاد يوجد في العبارة ما يعلو على النقد. حتى كلمة «العزيز» توحى برسالة بين حبيبين على وشك أن يفتحا قلبيهما في رسالة اعترافيّة، وهو سيناريو مستبعد الحدوث بالمرّة بين التابعين للغرفة التجاريّة.

والمشكلة الحقيقيّة تتمثّل في الحيرة الشائعة والارتباك العام إزاء كيفيّة ختام الرسائل الإلكترونيّة. في الرسائل الرسميّة، دأبت الغرفة التجاريّة على استعمال «المخلص لكم» إذا لم يكن المرسل إليه محدّدًا، برغم أن بعض الأعضاء يشعرون أنَّ في الإشارة إلى الإخلاص تناقضًا ما مع التحيّة المجهّلة، فالمعنى الفعلي هو أنَّ «لكم منّي الإخلاص دائمًا، أنتم أيّا من تكونون». ثم إنَّ هذه الصيغة الختاميّة عُدّلت مرّة في الخمسينيات فاختصرت عبارة «وأبقى لكم مخلصًا» نظرًا للشكاوى من إيجاءاتها الخليعة آنذاك. كما كانت «الأمنيات الصادقة» أيضًا مشكلة لبعض الأعضاء الذين رأوا في استدعاء الصدق

إشارة ضمنية إلى أنهم يتعاملون مع مرسل مشكوك في صدقه.

أتاحت الرسائل الإلكترونية، بطموحها إلى الثروة غير الرسمية، أن تستعمل المشاريع المحلية عبارات ختامية أرق، لم يقم أيٌّ منها بالوثوب من درجة القبول إلى درجة الإرضاء في حدود ما يعني الغرفة التجارية.

«تحياتي» هي الأكثر شيوعًا، لكن البعض يشعر أنها عبارة ختامية رخوة فاترة من النوع الذي «يؤدّي الغرض». بدأت العبارة رحلتها فعليًا من «تحياتي للزوجة والأولاد» ثمّ اختصرتها الغرفة قبل سنوات تطوّرًا مع الزمن.

بالمقارنة مع العالم، تجدر ملاحظة أنه في الولايات المتحدة الأمريكية، التي يحبون فيها أن تكون مراسلاتهم التجارية مختصرة ووقحة، هجروا بالكلية عبارات الحشو الختامية، فتنتهي أغلب الرسائل الإلكترونية الآن بسؤال: «هل هذا صحيح أم صحيح؟»

كل ذلك، بحسب ما جاء في المقالة، أفضى بالغرفة التجارية إلى أن وجدت نفسها في حال قرّرت معه أن تفتح القضية للجمهور عسى أن تكون لديهم أيُّ أفكار أفضل. بل إنهم في واقع الأمر أقاموا مسابقة لتحديد عبارة ختامية جديدة يستعملها أعضاؤها على مستوى الوطن كلّ في جميع المراسلات التجارية. والجائزة المعلنة شيك بعشرة آلاف وتمثال صغير. وعلى الفور تناهى إلى سمع هنجري بول - الذي لم يمتلك قطُّ أيّا من الجائزتين - هاتفٌ مهنيٌّ يقول له إنَّ عليه أن يشترك.

ولمّا كانت الأفكار الجيدة جميعًا تتمتع بخاصية القابلية للطفو بما يدفعها دفعًا إلى البروز على السطح، لم يملك إلّا أن يثير الأمر عندما حضر ليونارد في وقت لاحق من المساء للمشاركة في لعب رباعيٍّ لسكرابل<sup>(1)</sup> مع هيلين وبيتر

(1) Scrabble لعبة تقوم على تكوين كلمات من مجموعة حروف يختارها اللاعبون =

تحوّل إلى ما يشبه سهرة طقوسية في ليلة الأحد تساعد في تخفيف إحساس مماثل لإحساس آخر ليلة قبل المدرسة. لعبت هيلين وبيتر لعبة سكرابل لسنين، منذ أن اشتريا البيت معاً فلم تبق لديهما نقود للسهر بالخارج. كانا يلعبان سكرابل بمراهنات عالية، فيلبي الخاسر للفائز أهواءه الجسدية، وحقّق لهما هذا النظام استكشاف أعماق معجميهما اللغويين وأعماق زواجهما في الآن نفسه. وطبيعي أن أفضى بهما هذا إلى جرأة في اختيار الكلمات التي يكونانها، ونتيجة لذلك كان يمكن التضحية بالدرجة المضاعفة ثلاث مرّات في سبيل تكوين كلمات قد تحرز درجات أقلّ لكنّها أوقع وأكثر دغدغة للمشاعر. وما كادا يصبحان أبوين، حتى تعطلّ ذلك المزاح الساحر، وإن استمرّا في ممارسة ألعاب الرقعة (بطرفها العادية) فبات ذلك اللعب بعضاً من روتينهما الأسري المنزلي.

غير أن اللعبة في تلك الأمسية بالذات كانت محبطة بعض الشيء، شأن أغلب المباريات حين يشترك فيها أربعة لاعبين، بسبب العجز عن التخطيط لأكثر من كلمة في الدور الواحد. ظلّت هيلين تشكو من وضع بيتر حروفه في الأماكن التي تضع عينها عليها. وظلّ بيتر يسأل «هل هذا دوري؟» عاجزاً عن متابعة تتالي الأدوار المعقّد بين اللاعبين الأربعة، فلم تكن الأدوار تتوالى باتجاه عقارب الساعة أو بعكسه، وإنما تتوالى بتوالي تواريخ ميلاد اللاعبين، وتلك بدعة اتبعت منذ سنين للحيلولة دون الشجارات الأسريّة على ترتيب الجلوس. بدا أن نصيب ليونارد من الحروف المنتقاة عشوائياً لم يتجاوز حروف المدّ طيلة المساء، فلم ينفعه ذلك في شيء كما لم ينفع بقيّة اللاعبين

---

= عشوائياً، ويجري تكوين الكلمات على رقعة واحدة، فقد يضع لاعب حروفاً وسط حروف اللاعبين ليكون منها ومن حروف كلماتهم أكثر من كلمة في لعبة واحدة. وتحدّد الرقعة درجات لكل كلمة، قد تتضاعف مرتين أو ثلاث مرات بحسب موضع حروفها في الرقعة. ويمكن أن يشترك في اللعبة حتى أربعة لاعبين.

الذين كانوا يحتاجون إليها. وكدأبه دائماً، تولّى هنجري بول دور الحكم مزوّدًا بكتاب كلمات سكرابل البالي الذي يضعه بجانبه فضلاً عن القاموس. فمنذ بضع سنوات، وفي ردّ فعل على ما بات يعرف بـ «المحادثة»، وضعت قاعدة منزليّة بأنّ على من يضع كلمة أن يكون قادراً على شرح معناها. وطبّق هنجري بول تلك القاعدة بمرونة الحديد، برغم أنّه شخصياً وقع ضحيّة لها في أكثر الأحيان، وهو ما يقطع بحسّ نزاهته الفطري.

في لحظة ما، عقب استراحة جدليّة لدخول الحمام، فتح هنجري بول موضوع اليوم الخاصّ بالغرفة التجاريّة، فأثار اهتمام جميع الحاضرين. وبدأ على الفور طوفان من الأفكار واهية الصلة بالموضوع. ففي حين اعترفت هيلين أنّها تستعمل تفاهات من قبيل «اعتن بنفسك» أو «أكلّمك عمّا قريب»، قال بيتر إنّّه أميل إلى التقشّف في عاداته وإنّه في الغالب يختتم رسائله بـ «بيتر» على غرار الأساطير ذوي الأسماء الأحاديّة مثل موريسي وبرينس<sup>(1)</sup>.

اختفى بيتر وهيلين في أحد جحورهما الزوجيّة الصغيرة وهما يتناقشان في طول ختامه لرسائله، ويضحك كلّ منهما الآخر بنكات خاصّة قال هنجري بول إنّّه على يقين من أنّ طهارتها مصطنعة إلى أقصى حدّ. بينما وجد ليونارد نفسه مدفوعاً - وهو عميق التفكير دائماً - إلى لحظة من التأمل في طريقة اختتامه رسائله الإلكترونيّة الخاصّة. كان في العادة يستعمل «تحيّاتي»، لكنّها هو ينتبه إلى قصورها السافر. ولما بدا أنّه الوحيد الذي لم يزل يتعامل بجديّة مع سكرابل، برغم أنّه يخسر، فقد أولى الموضوع شيئاً من الحماس.

«أعتقد أنّنا على أعتاب شيء ما. أعني أنّ التكنولوجيا قطعت شوطاً بعيداً وهي الآن حاضرة في كلّ شيء، فلا بدّ أنّ كوكبة كاملة من أعراف التواصل

(1) ستيفن باتريك موريسي (1959-) مطرب إنجليزي، وبرينس روجرز نيلسن (1958-

2016) مطرب أمريكي، وكلاهما اشتهر باسم مفرد.

بحاجة إلى تحديث. التهنئات والتحيّات والعبارات الاختتامية والردود الآلية، وكل شيء. لا حاجة حتى إلى عبارة ذات معنى، إنها الحاجة هي إلى شيء له وقع الصواب، ففي نهاية المطاف، هكذا سارت الأمور حتى الآن».

قالت هيلين «يروق لي أن تكون العبارة ودودة. فالرسائل الإلكترونية والنصيّة جميعها شديدة البرود تفتقر إلى الحسّ الشخصي. لا بدّ من شيء يرقّق وقع الرسالة كلّها».

قال بيتر مازحًا بلا تحفّظ، وهو يخرج الكتب الجيدة التي كان يعث فيها «هؤلاء يا حبيبتي أهل تجارة وعمل. لا يمكن أن تمضي إلى اقتراح أيقونات ووجوه باسمه وما شابه هذا. لم لا نختصر الطريق وندهن الرسائل بالمرّبّي ويكتب الواحد عمره في النهاية بأنصاف السنين؟»

قال ليونارد «بوسعك لو فزت أن تسجّل حقّ ملكيتك الفكرية للعبارة فتجني بعض النقود من كلّ استعمال لها. حتى العائد الزهيد عن كلّ رسالة يمكن أن يتراكم لو استعملها الجميع».

«أنا لا أطلّع إلى جني مال من هذا. أريد أن أقدم شيئًا للمجتمع. أن أحدث فارقًا. أريد شيئًا كهذا». وسرت رعشة في أنحاء الغرفة إثر هذا الإيضاح الورع من هنجري بول.

لم يتخلّ ليونارد بسهولة عن فكرته وقال «يمكن أن تتبرّع بالنقود لأعمال الخير».

إذ ذاك رمى هنجري بول حروفه الساكنة. «هذا جمع تبرّعات وليس عملًا خيريًا. والفارق كبير جدًّا. العمل الخيريّ يحوّل المعطي والمتلقّي إلى الأفضل. وهذا يوصف عن جدارة بالفضيلة. أمّا جمع التبرّعات أو التصدّق على أعمال الخير وكلّ التنويعات على هذه النعمة فشيء آخر، خليط متشابك

من الدوافع والنتائج، منها الجيّد، ومنها ما يثير الأسئلة. وأنا أريد أن أقدم إسهامًا واضحًا نظيفًا للعالم. غير ملوّث. لا يستوجب تفسيرًا. ومن ثمّ فالأمر ليس جمع تبرّعات».

على مدار يوم عمله كان ليونارد يؤدّي على الدوام دور مقدّم الاقتراحات المجحودة، لكنّه فوجئ أنّ هذا الرأي السلبي مؤلم، بصدوره عن صديقه العزيز وفي غير ساعات العمل. نظر إليه بيتر نظرة دعم سريعة كأنّها يقول بها إنّه يوافقه الرأي وإن خالفه هنجري بول، وإن كان قصده الأكبر منها أن تكون إقرارًا المفهوم قوى السوق بصفة عامّة لا لفكرة ليونارد بخاصّة.

وفي اللحظة التي تهدّد فيها الحوار بالانحدار إلى مستوى برامج الاتصالات الهاتفية النهارية حيث يتبارى الناس أيّهم أقدر على طرح أنفه الزوايا لمناقشة الموضوع، علا رنين الهاتف الأرضي وأصاب الجميع في توقّعهم بأنّه اتصال آت بأحدث جولة من التطوّرات واللاقرارات على صعيد جريس. ردّت هيلين، واستقرّت على الأريكة طاوية ساقها تحتها، في جلسة موحية تمامًا بأنّ صاحبها سوف تنشغل لردح طويل من الزمن الآتي. وفي حين أنّه من الممكن نظريًا تحويل لعبة رباعية إلى لعبة ثلاثية، لكنّه أمر ببساطة شديدة لا يحدث في عالم سكرابل، فانتهدت المباراة في هدوء دون أدنى محاولة لعدّ الدرجات ومعرفة الأعلى رقمًا.

بدأت جولة من الشاؤبات والتمطّيات، والنظر في الساعات وكلّ تلك التمهيدات اللاواعية لإعلان نهاية الأمسية. أشار ليونارد إلى انشغالات النهار التي تنتظره في غده، ولم يكن هذا صحيحًا أو غير صحيح، ولكنّ كونه الضيف الوحيد في المجموعة أشعره بأنّه يحمل عبء تبرير خروجه. وهنجري بول سوف يصحو مبكرًا لاحتمال أن يتصل به مكتب البريد لتولّي نوبة العمل صباح الاثنين. وبيتر لم تكن لديه خطط محدّدة، ولكنّه دأب على

الشعور بالترُّمل كلّما وردت تلك الاتصالات المنتظمة من جريس وكان حريصًا على عمل شيء ذي قيمة في ما بقي من الأمسية.

خرج هنجري بول مع ليونارد، ووقف معه قليلًا في المدخل يستعرضان السماء ليريا إن كان المشتري وعطارد ظاهرين في ذلك المساء، وكانا كذلك. وترك كلّ الآخر بعد تحية وجيزة، وذلك شأن من يلتقون بانتظام من الأصدقاء، وهو ما لا يفعله جميع الأصدقاء.

دخل هنجري بول فملأ لنفسه كأسًا ضخما بالماء ليصطحبه إلى السرير، وفيما يستشعر برودة الأرض عبر جوربي قدميه، صعد السلم إلى غرفة نومه. مستلقيًا في السرير، تاركًا إحدى قدميه ناتئة من الغطاء طلبًا للبرودة، شعر هنجري بول بشبح الإلهام يدخل الغرفة. وفيما هو مستلقٍ هناك على عتبة ما بين التأمل والنوم، راودته فكرة آتية من المكان الخاص الذي تأتي منه الأفكار. منقلبًا إلى اليسار، مدَّ يده فتناول قلم رصاص قصيرًا على الطاولة المجاورة للسرير وكتب مسودة مثالية لما سيشارك به في المسابقة.



## الفصل السادس

### جريس قبل الوجبات

أخذت جريس إجازة من العمل لنصف يوم في منتصف الأسبوع لتقابل أبويها لتناول الغداء والتمشية. فالآن وهما «يتقدّمان في العمر» بدأت تقتطع أجزاء من جدولها وتخصّصها لهما، تعويضًا عن السنوات اللاهية في العشرينيات من عمرها، وعن المرات الكثيرة التي ضغطتَها فيها بدلًا من أن تمنحها الوقت الذي يستحقّاه. ومع أن بيترو وهيلين كانا لا يستسيغان كثيرًا جزئيّة التقدّم في العمر، فقد كانا يسعدان بقضاء الوقت مع ابنتهما وفقًا لأيّ مسوِّغ.

كان لدى جريس متسع بسيط من الوقت قبل الموعد فمرّت بمتجر كتب لتنتقي شيئًا لأبيها، ولكن بيتر قارئ نهم، وأغلب المتاح في هذه الأيام صحف، ومجلات ودوريات، وما لا يكفي من الروايات وكتب تطوير المهارات. استعرضت الطاولات فرأت كتبًا إمّا سبق أن قرأتها أو أرادت أن تقرأها، وأوشكت أن تشتري أحدها كهديّة تبشيريّة، رغبة منها في أن تحبّه في ما تحبّه. كان في آخر المتجر قسم مليء بكتب في التاريخ وغيره من المواضيع الجاذبة لدرجة الموت. بدا ذلك القسم أقرب إلى حضانة للرجال الكبار الذين تركتهم زوجاتهم هناك ومضين يتسوّقن في أماكن أخرى. رفعت جريس كتابًا ثقيلًا هائلًا عن ستالينجراد وخطر لها أنّه ما من شيء يعلن أنّه «هديّة» مثل كتاب هائل الضخامة ذي غلاف مقوى. بالطبع كان بوسعها دائمًا أن

تراهن على شيء غرائبي: مجموعة قصص قصيرة مثلاً لكاتب منتظر النجاح من أمريكا الجنوبيّة، أو رواية أولى لامرأة فيها بعض الجنس. وفي النهاية استقرّت على رواية لكاتب أمريكي متحقّق في منتصف العمر، موقّعة من الكاتب، بما يعني ضماناً للمشتري بأن يصبح مليونيراً في غضون سنوات قلائل. وتأكيداً لأنّ العدالة الفطريّة في أكبر الأبناء لم تزل فاعلة فيها، انتقت أيضاً شيئاً هيلين، فسهل عليها الاختيار: كتاب طبخ أو شيء عن الحديقة يفى بالغرض، ولكنها لم تكن تعرف أنّ هيلين سئمت من مثل هذه الكتب. ألقت نظرة سريعة على هاتفها وهي واقفة في صفّ الدفع، ثمّة بضع رسائل إلكترونيّة بعثت إليها نسخ منها، لكن ليس فيها ما يورّطها في عمل، أو ذلك ما تمنّته.

وصلت مبكّراً إلى المطعم وجلست في الطابق العلوي. كان مطعمًا إيطاليًا، فهو خيار وسط آمن من شأنه أن يرضي الجميع. هيلين يمكن أن تجرّب أي شيء، أمّا بيتر فابن جيله تمامًا ولا يحتمل فكرة أن يخرج من المطعم جائعًا. لم يكن المكان مزدحمًا للغاية، وقد نجا للتو من فترة زحام وطنين. لوّحت لهما من مكانها حينما وصلا.

قالت هيلين «مرحبًا يا حبيبتي، أرجو ألا تكوني قد انتظرت طويلاً».

«إطلاقًا، عظيم أن أراكما».

قال بيتر «مرحبًا يا جريس، تبدين بخير» مبتسمًا ابتسامة رقيقة كأنّها تقول «ها هي طفليتي كبرت».

بدت جريس في خير حال. لم تزل لها البشرة المشرقة الطبيعيّة، وقد بلغت في عملها مرحلة أصبحت النقود فيها جيّدة، وتعرف أيّ الثياب أنسب لها وتملك أن تشتريها في أغلب الأوقات.

«قبل أيّ شيء، اشتريت لكلّ منكما شيئاً بسيطاً. الآن يا أبي، أعرف أنّك انتقائي، لكن هذه ينبغي أن تكون جيّدة وأعتقد أنّك قرأت للكاتب أحد أعماله السابقة، عمله الذي فاز بالجائزة، وقد قرأت الغلاف وأعتقد أنّه سيعجبك. وأحضرت لك هذا يا أمّي، كتاباً في الطبخ الهندي، أعرف أنّك لست من هواه، لكنّك لعلّك تعثرين فيه على شيء».

قالت هيلين «آه، شكراً لك يا حلوة، أنت رائعة. والآن، كيف حال كلّ شيء؟ اطمأننت على الزهور والكعكة أم لا يزالان بحاجة إلى ترتيبات؟» كانت جريس قد أحبطت من بعض ترتيبات الزفاف التي اقتضت العديد من مكالمات آخر المساء مع هيلين لبحث أمرها.

«أعتقد أنّ الأمر انتهى. عثرت على بائع زهور لطيف حقاً. يعني، هو لا يعمل بالفعل في حفلات الزفاف، لكن لديه مخزون كافٍ لتجهيز الباقات وزهور المذبح ثم أشتري أنا بعض الأربطة لربطات الفراشات والأغراض لطرفي الممر. والرجل الذي سيعدّ لي الكعكة لم أزل أنتظر ردّه. لا بدّ أن أبعث إليه رسالة نصيّة في ما بعد». ووضعت جريس هاتفها على المائدة. «آسفة، أنا في إجازة لنصف يوم، وهم على علم بأنّهم لا ينبغي أن يتصلوا بي ما لم تكن مسألة حياة أو موت، لكنّكما تعرفان».

سأل بيتر «كيف حال أندرو؟ أرجو أن يكون متلهّفاً. أخبريه أنّي اشتريت بذلتي. كحليّة، فبوسعه الآن أن يمضي قدماً ويشتري هو القطيفة البنفسجيّة المجعّدة».

ابتسمت جريس وهي تشرب الماء. «شكراً يا أبي على أيّ حال. لكن أظنّ أنّنا سنترك بذلة كتلك لشهر العسل».

قال بيتر «لا بدّ أن تأتي إلينا في عطلة هذا الأسبوع. مرّ زمن منذ أن جلسنا

جميعاً نثرثر. كنت أقول لأُمك تَوَا إِنَّه سيكون جيِّداً لو نرى أندرو أكثر قليلاً ممَّا نراه وقد طلب يدك للزواج».

قالت هيلين «لعلَّه مشغول بكلِّ هذا السفر. متى سيرجع؟»

«ليس قبل الأسبوع القادم. هو في أمستردام. عنده إجازة لبضعة أيَّام لكنَّها لا تستحق أن يسافر إلى هنا، لذلك نلتقي في المساء عبر سكايب. سأعرف موعد رجوعه ونلتقي جميعاً معكم قبل اليوم الموعود. لا أصدِّق أنَّه على بُعد أسبوعين وأيَّام. لكنَّني نظمت كلَّ شيء. لم يبقَ إلَّا الأغراض التي لا يمكن عملها قبل الدقيقة الأخيرة. كيف حال أخي المفضَّل؟»

«بخير. لم يزل يتقدَّم ببطء. شارك في مسابقة للغرفة التجاريَّة. يحاول التوصل إلى طريقة جديدة لاختتام الرسائل الإلكترونيَّة. سأبلغه أنَّك ترسلين إليه تحياتك. لم ينته بعد من أمر بذلته، ولا أتوقف عن تذكيره. مقاسه صغير، فقد لا يجد ما يناسبه في ماركس. طلبت منه أن يطمئنَّ إلى تناسب الحذاء والحزام. وحللنا بالمناسبة مسألة المرافق مع ليونارد، وهذا كلُّ ما تمَّ الاعتناء بأمره».

قالت جريس «آه، عظيم. أنا مضغوطة جدًّا في الأعداد. كان عندي أمل ضعيف ألا يأتي جمع غفير من زملاء العمل. وأنا لم يحدث قطُّ أن خلطت بين العمل والأسرة».

قال بيتر «سنفعل أقصى ما نستطيع لكي لا نصيب بالإحباط أو نصاب به. هل نطلب الطعام؟ هل لدينا مقبَّلات؟»

حفلت قائمة الطعام بالأطباق ذات الشعيبة العريضة، لكنَّها خلت من البيتزا والسباجيتي بولونيز وما شابههما.

قالت جريس «سأطلب من قائمة الوجبات. وأعرف ما أريده. الحقيقة

أنهم كانوا لطفاء جدًا معي في العمل. فبرغم أنني أقضي أوقاتًا هائلة على الإنترنت أو في مكالمات شخصية، فإنهم لا يتوقفون عند ذلك، لذلك لا ينبغي أن أقول فعلًا إنني لا أريدهم أن يحضروا. آسفة، أنتقل بين المواضيع - نرجع إلى مهمتنا الحالية. سأبدأ بالهليون وقديد الخنزير وبعدها أطلب النوتشي<sup>(1)</sup> بالكماة».

قال بيتر «النوتشي؟ كنت أتصور أنها تُنطق الجينوكي. أعتقد أنني سأطلب الحساء وبعض المكرونة - بالدجاج».

قالت هيلين «وأنا مثلك، لكنني سوف أبدأ بالبروسكيثا<sup>(2)</sup> وبعدها سأطلب ريزوتو<sup>(3)</sup> بعيش الغراب».

قال بيتر «وما الذي يجعل هذا مثلي؟»

«كنت أقصد أنني سأختار من قائمة الوجبات أيضًا، لكن شكرًا على يقظتك».

أملوا طلباتهم على نادل ذي وسامة مستحيلة، ظلت تنهمر منه آيات محبة الإيطاليين لطعامهم الوطني، وهو يسجل الطلبات ناظرًا في عيني جريس.

---

(1) [gnocchi] طبق إيطالي من أنواع مختلفة من المكرونة.

(2) bruschetta نوع من المقبلات الإيطالية يتكون من خبز يحمص مدهونًا بالثوم وزيت الزيتون والملح وقد توضع عليه خضراوات أو بقوليات أو لحم مقدد. ويقدم عمومًا بكميات صغيرة.

(3) طبق من المطبخ الإيطالي أيضًا مكون من الأرز المطهو بالمرق لدرجة الذوبان تقريبًا، ويكون المرق من لحم أو سمك أو خضراوات أو عيش غراب، ومن مكوناته الأخرى النبيذ الأبيض والبصل والزبد.

قال بيتر بعدما ذهب النادل «أعتقد أنه معجب يا جريس. ولعله صيد جيد، بكل هذه الإكراميات، والإعفاء الضريبي».

«ربما يسمح لي أندرو بزواج ثانٍ تحسُّباً لفترات وجوده خارج المدينة».

قالت هيلين «زوج واحد يكفي أيَّ امرأة ويفيض. لا أصدِّق أنك فعلاً سوف تتزوَّجين. نحن في هذه الأسرة حذرون عند الزواج. أنا شخصياً نظرت طويلاً في الحقل قبل اقتطاف رجلي».

قال بيتر «كنت أعلم أنني لو انتظرت فإنَّ كلَّ البنات الجميلات سوف يخفُّضن في النهاية معاييرهنَّ حتى يصلن إلى مستواي».

قالت جريس «كان الوضع غريباً عندما ارتبطنا. لم أكن أعرف بأيِّ صفة أصف أندرو وأنا أتكلَّم عنه. لم يكن بوسعي أن أقول صاحبي، وخطيبي كانت تبدو شديدة الزيف. أتذكَّر أنني كنت في حانة ووقفت في انتظار خلوّ أحد المراحيض ورأيت علامة (مشغولة) في قفل أحد الأبواب فخطر لي أنها تصفني تماماً. منتهى السخافة»<sup>(1)</sup>.

وصلت المقبلات، جاءت بها نادلة لم تلتق عيناها بعيني أحد، ولا حتَّى بيتر حينما طلب بعض الملح.

أصدر هاتف جريس طنيناً على المائدة.

قالت جريس «سوف أتجاهل هذا»، مبيِّنة أنَّها لن تشتَّت انتباهها، ولكنها أبقت الهاتف حيثما كان.

قالت جريس «أليست لديكما يا جماعة أيُّ خطط لأيِّ رحلات؟ بعد كلِّ هذه السنين، يجب أن تستفيدا إلى أقصى حدٍّ من قضاء بعض الوقت معاً بعيداً

---

(1) كلمة engaged التي تظهر في القفل لنتم عن وجود شخص داخل المرحاض هي الكلمة التي تعني أيضاً «مرتبطة» و«مخطوبة».

عن هنا». كانت دائماً ما تشجّعهما على الخروج في إجازات قصيرة بالمدينة أو قضاء عطلة مشمسة في الهواء الطلق ليكونا معاً بعيداً عن هنجري بول، ففي ذلك لهما وله خير عظيم.

قالت هيلين «لم نرتّب لشيء. كلُّنا حالياً في انتظار الزفاف فقط. لكننا كنّا نفكر في عمل شيء في سبتمبر. الحرُّ في يوليو وأغسطس يكون شديداً ووالدك لا يحتمل الشمس».

قال بيتر من وراء ملعقة الحساء غير المملّح «ومع ذلك، أودُّ أن تنتقل بشرتي من درجة بياض طلاء الجاليريهات الحالي هذه ولو إلى درجة بياض زهرة المانوليا».

قالت هيلين «هل فكّرت في إعطاء أخيك دوراً في القدّاس؟ لا أعني شيئاً أساسياً أو مركزياً، فقط، كما تعلمين، لاحتوائه قليلاً».

«ياه، طبعاً. أحبُّ أن أشركه، لكنني أودُّ أن أجد شيئاً يتحمّس له. تعرفين كيف يكون حاله في ثنايا الحركات. يظلُّ يجرّج نفسه في المكان دونما قصد. ولا أريده أن يقضي الصباح كلّهُ متخوّفاً من أن يفسد الأمر كلّهُ. أنا لا أبحث عن الكمال ولا أيّ شيء، أنا فقط سعيدة بأننا سوف نكون جميعاً معاً في هذا اليوم».

قال بيتر وقد انتهى من حسائه وقت أن وصل الملح «ماذا عن تكليفه بتلاوة بعض الصلوات؟»

«المشكلة أنّه ليس من المتردّدين على الكنيسة، ولا أنا بصراحة، فقد يصيبه القلق بشأن مواضع الانحناء أو مواضع السير أو مواضع القيام. ماذا لو طلبت منه أن يحضر هدايا الحضور؟ مخاطرة بسيطة طبعاً بأن تقع أو أيّ شيء، لكنّه في الغالب سيتدبّر الأمر». وكانت جريس لم تزل على وشك أن تأكل قطعة الهليون الأولى في شوكتها.

قالت هيلين «لكنَّ أم العروس وأم العريس هما اللتان تقومان بهذا الدور في العادة. ماذا عن القراءة؟»

«هي مشكلة الصلوات نفسها بكلِّ ما فيها من لغط. وهو أيضًا يصيبه الشلل في بعض الأحيان عندما يواجه جموعًا، برغم أنَّني أعتقد أنَّ الزحام لا يخيفه على الإطلاق. كلُّ ما هنالك أنَّه يذهل كأنَّه منوَّم مغناطيسيًّا. كما لو أنَّه يدرك ندرة وقوفه في مواجهة جمع من الناس، فيقف منتظرًا أن يستوعب الأمر إلى أن يوجَّه أحد. رأيته كذلك مرَّة في المدرسة حينما فاز بجائزة العلوم. وقف فقط كأنَّه تمثال شمع. ربَّما أجعله يورِّع كتيبات القدَّاس، يعني، أو يسأل الناس أهم مدعوُّ العروس أم العريس، مثل هذه الأمور، مثلما يفعلونها في أعراس التلفزيون».

قال بيتر ناظرًا إلى شوكة جريس «ربَّما. وهذا بالنسبة له لن يكون اجتماعيًّا، أليس كذلك؟»

قالت هيلين «وماذا لو فعلها هو وليونارد؟ قليل من الدعم المعنوي. والاثنان على أيِّ حال لهما دعوة واحدة. ولا بدَّ أن يكون لهذا معنى. كلي يا حبيبتني».

قالت جريس وفمها مملوء أخيرًا بالطعام «إلا إذا بدَّله هذا هامشيًّا. أقصد أنَّه جزء من الدائرة الأصليَّة مثلنا نحن الثلاثة، وأريده أن يشعر بالاحتواء».

قالت هيلين «أوه، أنا أضمن أن يسعد بذلك. سيكون اليوم كلُّه كثيرًا عليه، لذلك أعتقد أنَّنا انتهينا من هذا. سأخبره وسوف أذكِّره بالبذلة مرَّة أخرى. بيتر أعطاه بعض النقود لهذا الغرض ولكنَّها لم تزل في درجه، فليس لديه مبرر للتأخر. سأكلِّمه في هذا عندما أرجع. أيُّ لون تفضِّل أن يرتديه أو يحبَّته؟»

قالت جريس «أيُّ شيء يحلو له. عندي ألوان معيَّنة أحب أن ألبسها حينما



أحتاج إلى الثقة، في مقابلة أو عرض، فلعلّه مثلي. سأتركه على حريته».

قالت هيلين «لست واثقة من هذا. فهو ليس جيّدًا في اتخاذ القرارات، إلّا في أمر يهّمه. ربما أطلب منه أن يختار بذلته بلون فساتين الوصيفات، أم أنّ هذا سوف يجعله يبدو مثل الإشبين؟».

كثيرًا ما كان ذلك شأن الثلاثة عند حديثهم عن هنجري بول. كانوا دائمًا يرون أنفسهم بمثابة حواجز مسار البولنج يتيحون له أن يتقافز بينهم، وهم يقونه أخطار الدنيا ويرشدونه إلى طريق منجزاته، على تواضعها. وكان في ذلك إخلاص، ومحبة، بل ربما ضرورة. ولكنك حينما تحبّ شخصًا، يصعب عليك أن تعرف أين تنتهي حدود الرعاية لبدأ التدخل. وكان الدليل على إخلاصهم في هذا أن كلّ واحد فيهم - بمعزل عن الآخرين ودونها مناقشة معهما - بدأ يعارك شكوكه في هذه المسألة. كيف تعرف أنّ القوّة التي تمثّلها قوّة خيرة؟ كيف تعرف أنّ العالم لن يضيع حقًا لولاك؟ في أيّ مرحلة بالضبط تتحوّل يد العون إلى يد المنع؟ ولم يكن عدم مقاومة هنجري بول لجهودهم تلك دليلًا بالضرورة على أنّ ما يفعلونه يساعده. وقد يصحّ بالقدر نفسه أنّ افتقاره إلى الاستقلال ليس مبرّر تدخلهم ولكنه نتيجة له. فما أسهل أن تتحوّل مساعدة شخص إلى عادة يألّفها الطرفان، والناس كثيرًا ما يكونون أكثر ارتياحًا إلى أن يمدّوا أيدي المساعدة من أن يتلقوها.

كان بيتر يقول دائمًا إن هنجري بول هو سمكة هيلين الشمسيّة. فمنذ سنين، قبل أن يرزقا بابنيهما، زارت هيلين وبيتر حديقة الأسماك في مونثيري بكاليفورنيا. وكان تفضيل حدائق الأسماك على حدائق الحيوانات من الأمثلة المبكرة على أن شكل فين<sup>(1)</sup> الذي يعبر عن ذائقتيهما الشخصيتين كثيرًا ما

---

(1) تعبر أشكال أو مخططات فين عن العلاقات الرياضية بين مجموعات من الأشياء والمفاهيم، أين تتلاقى وتتداخل وتتبعّد.

تقاطع تقاطعات غربية. وسط أسماك القرش الرشيقة في الشعاب المرجانية، وقناديل البحر الغريبة، والأشعة المموهة، بدا شيء شبيه برأس منحور عائم، لم يكن إلا سمكة ضخمة غير متزنة تسبح مائلة، لها جلد يعكس الضوء، ويبدو عليها تعبير كأنه لكائن تائه. كانت السمكة الشمسية، وقالت هيلين إنها المفضلة لديها. نظر إليها بيتر حين قالت هذا. نظر إلى الصدق المركز على وجهها. كان في العادة يغیظها بقوله إنها تتعمد الاختلاف في اختياراتها، ولكن حتى هو عرف أن تلك لحظة شخصية للغاية. لم تبرر اختياراتها، لكنه عرف أنها اختارت السمكة الشمسية لتكون سمكتها المفضلة لأنها علمت أنها السمكة التي لن يختارها أحد. تألم قلبها الجميل لما ظنت أن كائناً حياً قد يقضي حياته غير محبوب، فأحبت أن تعوضها عن ذلك ببذل جهد عمدي خاص بأن تكون هي من يحبها. وبالمثل، حينما ولد ابنها، بعد الإجهاض مرتين، وبعد أن أوشتك هو نفسه ألا ينجو، تعهدت إن نجا ألا تطلب منه أو حتى أن تتوقع منه لما بقي من حياته أكثر من هذه النجاة. ولذلك قبلت هنجري بول مثلما كان، وتركته يمضي في مساره الطبيعي المتعرج عبر الحياة كأنه سمكتها الشمسية.

كان بيتر لم يزل في التاسعة من العمر حينما مات والده فنشأ وهو لا يعرف فعلياً كيف يفترض أن يكون مسلك الصبية والرجال، فدأب على النكوص والنظر في نفسه بدلاً من محاولة إسقاط رؤيته المضطربة على العالم. وفي أثناء حمل هيلين بجريس لم يعرفا جنس الجنين قبل الميلاد وظل القلق يعتري بيتر طوال الحمل من احتمال أن يأتي ذكراً. فقد عاش حياته كلها بنصيب من الرجولة لم يكده يكفيه، فكيف يفرض منه على ولد؟ ولما ولدت جريس شعر بالارتياح لأنه سوف ينال على الأقل بعض التدريب على الأبوة قبل أن يواجه تنشئة صبي. عندما ولد هنجري بول، لم يكن الوقت يسمح بمجال

للمشكلات المجردة، إذ امتلأت الأسابيع القليلة الأولى بالقلق وعزّ فيها النوم. وفي ما بعد، في المدرسة، بدا هنجري بول دائماً طفلاً مغلوباً على أمره، أصغر حجماً ممّا ينبغي أن يكون عليه في سنّه، وقليل الأصدقاء. وظلّ بيتر قلقاً طيلة الوقت من أن يتعرّض ابنه للتنمّر. وذلك الضعف المحتمل أشعر بيتر بالذنب - فهل كان خوفه هذا على هنجري بول أم أنّه خوف على نفسه، من ألا يعرف كيف يعالج الأمر إن أصبح ابنه بالفعل ضحية للتنمّر؟ ولما ترك هنجري بول المدرسة، ربما كان بوسع بيتر أن يبذل المزيد لمساعدته في العثور على وظيفة يجيدها - وكان موهوباً في العلوم وقادراً على التفكير الجيّد، وإن أعوزته الأفكار في ما يتعلّق بالعمل. لكنّ بيتر ترك هنجري بول يعثر على طريقه بنفسه، أو للدقّة، تركه يتيه ولا يعثر على طريق المرأة. ظلّ إحساس موجه يتتاب بيتر، بوصفه أباً لهنجري بول، إحساس بأنّه كان ينبغي من خلال الوسائل الأبويّة التي لا علم له بها - كالترثرة رجلاً لرجل أو ربّما الخروج في رحلات لصيد السمك - أن يجهّز هنجري بول لمواجهة العالم تجهيزاً أفضل.

عندما جيء بهنجري بول من المستشفى، أثارت هيلين وبيتر جلبة كبيرة حول جريس، وكيف أنّها الأخت الكبيرة وأنّ تلك وظيفة مهمة. وبعد سنوات قليلة، حينما التحق هنجري بول بالمدرسة، أجرت هيلين حديثاً رسمياً مع جريس حول الواجبات والمسؤوليات التي تقع على عاتق الأخت الكبيرة لشخص مثل أخيها. وتعاملت جريس مع تلك الأحاديث بجديّة: فلم يكن حرصها على أن تكون ابنة مثاليّة بأقلّ من حرصها على أن تكون أختاً مثاليّة. ودون أن يقال المزيد على الإطلاق، ودون أن تقرّر هي نفسها أيّ قرار عمديّ، واصلت جريس دونما توقّف عملها ملاكاً حارساً لهنجري بول حتّى المدرسة الثانويّة وحتّى بعد كبرهما. والحق أنّها لم تحسم قطّ مع نفسها ما

إذا كانت الواجبات التي أوكلت إليها في طفولتها قد رفعت عنها بعد ذلك. وفي ثانياً تخطيطها لرفافها ونظرها قدمًا إلى زواجها، بدأت تتساءل عما لو أنه بوسعها أن تنتقل إلى حياة جديدة دونما تحلُّ عن حياتها القديمة. وجدت نفسها تشجّع أبويها على أن يجعلها هنجري بول أكثر استقلاليّة، وأن يصبحا هما شخصيًا أكثر استقلاليّة. وفي موضع ما من خلفيّة ذهنها المشغول مضت تتساءل عمّن سوف يعتني بهنجري بول حينما يرحل إن لم يكن بوسعه هو أن يعتني بنفسه. كانت فكرة الدور الواقع عليها - كونها المرشحة الوحيدة للقيام به - تثير في نفسها الذعر. لم تشأ أن تتجمّد في الزمن مع الصبيّ الذي قابلته للمرّة الأولى وهي في الثالثة من العمر، فشرعت تضع خططاً أخرى، ملتزمة تجاه أندرو للتخلّي عن واجبها تجاه هنجري بول.

وهكذا، في ظلّ هذه التيّارات السفليّة بما تحدّثه من موجات خفيّة على السطح، أخذ ثلاثة أشخاص يحبّون بعضهم بعضًا حبًّا شديدًا، ويحبّون هنجري بول حبًّا شديدًا، يثرثرون في تفاصيل حياتهم وهم يتناولون وجبة إيطاليّة. كان حديثًا طويلًا، مضت جريس خلاله تاكل في تراخ لكن برضا من والديها، اللذين كانت كلّ لحظة يقضيانها معها تستحقّ أن يثبت لها الزمن. ومع القهوة بدأوا يتحدّثون عن الحياة الزوجيّة، وطرحت جريس سؤالاً عريضًا عن سرّ السعادة الزوجيّة التي نعيم بها بيتر وهيلين، وذلك سؤال لا يمكن أن يجيبه بغير تحبّط أيّ اثنين حظيا ولا شكّ بنصيبيهما العادل من الشجارات الشخصيّة على مدار السنين.

غامر بيتر قائلاً وهو يحرك جفنيه ناظرًا إلى هيلين «هو شيء واحد».

«أبي، أنا أتكلّم بجديّة. أريد أن أعرف. كيف تأتّى لزواجكما أن يستمرّ طويلًا هكذا، بينما انتهت زيجات أخرى؟ بعض الأزواج يفصلون بعد أن يترك أبناؤهم البيوت، أو عندما يتقاعد الاثنان ويصير عليهما أن يتقاسما

الحياة من جديد بعد كل تلك السنين من إدارة البيت، وكأنها لا نجاة أبدًا من الخطر».

قالت هيلين «طيب، لو أنك تريدين إجابات جادة، أعتقد أنك يجب أن تجعلي الأولوية لعلاقتك. أعني المقام الأول فعلاً، وليس فقط أن تقولي إنها رقم واحد في بطاقات الفلانتين وما يشبه هذا. أعني أن عليك أن تقدّمها حتى على أبنائك. وإلا فإنك تغرقين في الأمومة، وتنسين، دون أن تنتبهي، أن لزوجك أولوية، وتجدين نفسك في أسوأ الأحوال على الإطلاق: متزوجة، وعندك أطفال، ووحيدة أشد ما تكون الوحدة. فيما تتغيران أنتما الاثنان، يظلّ الواحد منكما يفقد الآخر بوتيرة منتظمة. فعلى كل واحد منكما أن يعثر على الآخر كل حين، وإليك الحيلة، بدلاً من محاولة تجديد ما كان، عليك أن تعيدي ابتكار نفسك وعلاقتك. عليك أن تبدأي علاقات جديدة ولكن مع الشخص نفسه. لن تري الآن أي منطق في كلامي هذا، لكن في مرحلة معينة من زواجك بأندرو، قد يكون هذا في منتهى الأهمية». أوضحت هيلين كل هذا باعتناء شديد، كأنها سلكت أشقّ الدروب لتعلّمه. حتى إن بيتر لم يحاول أن يخفّف النبرة الثقيلة التي استولت على المائدة، وقد أدرك أن زوجته العزيزة تتكلّم حقاً من القلب.

قالت جريس وهي منحنية إلى الأمام، قابضة بكلتا يديها على فنجان الماء «شكراً يا أمي. يبدو هذا صعباً. يبدو كأنه أمر سهل جداً الخطأ فيه».

«لا داعي للقلق قبل الأوان يا حبيبتي. ثقي فقط في غرائزك حتى لو طمرها الانشغال. على أي حال، الموضوع أصبح جاداً فجأة. لماذا لا نخرج لنمشي؟ سأندم على كعكة الجبن حينما أزن نفسي في سيلفر سليمرز الأسبوع القادم، ففي سنّي هذه تدفع الواحدة ثمن طبق التحلية مرتين».

أومأت هيلين للنادل الوسيم بإشارة توقيع الشيك وبدأوا يللمون

أغراضهم قبل الجلبة المحتومة على أيهم يدفع الحساب، ودفعت جريس يد أبيها بعيداً عن الفاتورة.

وفي الخارج لم يكن طقس مارس قد حسم أمره بعد. فبعد شتاء طويل متراخ، بدت الشمس - في المواضع التي تشرق عليها - أشدَّ سطوعاً ممَّا هي عليه بالفعل. تشابكت أذرع الثلاثة، شاعرين بالشبع الشديد، مغمضين أعينهم قليلاً دون الريح، بينما ارتفع طنين هاتف جريس في قعر حقيبتها.

مكتبة

[t.me/soramnqraa](https://t.me/soramnqraa)

## الفصل السابع

### يوم الاثنين العارض

استيقظ هنجري بول في السادسة صباحًا، كشأنه في أغلب أيام الاثنين. في ثلاثة تقريبًا من كل أربعة أيام اثنين كان يتلقَّى مكاملة من مكتب البريد ليشغل نوبة عمل كساعي بريد عارض، يغطِّي المتمارض أو السكران من سعاة البريد الأساسيين في المكتب، فكان يحلو له أن يستيقظ مبكرًا ليسارع بالردّ على الخط الأرضي قبل أن يزعج أبويه. وكانت هيلين ويتر في العادة يحبّان أن يتكلّمًا ويمزحًا في السرير لآجال بعد إطفاء المصابيح، كأنّهما طفلان في مخيم مدرسيّ، فكانا ينزعان إلى قضاء أغلب الصباحات نائمين.

كان أوّل ما خطر له هو أن يراجع ما كتبه في الليلة السابقة ليطمئنّ إلى أنّه لم يتخسّر في الليل. وبرغم أنّه سرّ بها رآه، فإنّه لم يشعر أنّه ملكه حقًا. فقد خطر له كأنّها هو آتٍ من مكان آخر، بلا تيّار سابق من الأفكار وبلا أثر في ما تلا من خواطر.

ذهب إلى الحمام ليصق البلغم الصباحي ويأخذ حمامه واقفًا مستعينا بمنشفة مبلولة، مع إعطاء أولويّة لمنطقة الإبطين ومنطقة «آدم وحواء». كان دائم الاندهاش كلّما نظر إلى نفسه في المرآة، إذ تذكّره صورته بمدى ضآلة المساحة التي يحتلّها من العالم. كان بصفة عامة مهندم المظهر، وبخاصّة في زيّ ساعي البريد الرسميّ وهو أقرب ثيابه إلى البذلة الرسميّة. ولولا أن يضبط نفسه فلعلّه ينتهي إلى ارتدائه في زفاف جريس.

سمح لنفسه بلحظة سكون قضاها جالسا في الطابق السفلي، منصتًا للصمت والوخز الرقيق للتردد العالي في أذنيه الذي لا يسمع خافتًا إلا في هدوء مثل ذلك الوقت. لم يكن واضحًا إذا كان ذلك التردد طنينًا بسيطًا في الأذن من جرّاء سنوات استعمال السماعات في غرفته أم أنه صوت عدم حدوث شيء وحسب. موسيقى الهواء المحيط نفسه. كان يتصوّر أن العالم مليء بمن لم يسمعوا قط ذلك الصوت، مليء بأصحاب الحياة المزدحمة والعقول الأكثر ازدحامًا.

رأى أن آنية إطعام الطير المتأرجحة في الحديقة خاوية، فأخذ بعض كرات الدسم والبذور المخلوطة من خزانة الركن، مدركًا أنه يستحيل عليه أن يطمئن إلى طعامه ما لم يعتنِ أولًا بالطيور التي تكون طيورًا ضارية في ذلك الوقت من السنة، تتفجّر أجسامها بدوافع التناسل، فتتناوب على الآنية عصافير الصغنج المغردة، وطيور الحداد، والزرابير، واليها المَطوّق، والعقاعق، والغربان المبقّعة، وفق نظام هيراركي حقيقي. بدت له الطيور الكبيرة في أوّل الأمر متنمّرة حتّى أدرك الخدمة التي تسديها للطيور الصغيرة إذ تضمن أمان المنطقة وخلوها من الحيوانات المفترسة، وكانت الطيور الصغيرة، لأسباب وجيهة، مريضة فطريا بالخوف. ولم يكن هنجري بول بمراقب الطير الأصيل. لكن كان يطيب له النظر إليها والتعرّف على نفسه فيها، وأن يكون جزءًا من حياتها، وإن لم تطب له قطّ ذهنيّة الاقتناء المسيطرة على مراقبي الطير: تلك القوائم الطوال المقرونة بنودها بعلامات المشاهدة، وإيثار المجهول منها على الحاضر في الحياة اليوميّة. كان يرى الطيور جزءًا من الطبيعة، شأنه هو نفسه، ويهتمّ بها اهتمامًا أخويًا.

كان هنجري بول من مشجعي الروتين وقدرته على بثّ الألفة في حياة المرء عندما يكثر فيها الجديد والمتغيّر والمريب. ولما بدا كلُّ يوم طازجًا



بطريقته الخاصة، لم يشعر قط بالحاجة إلى تبديل تنوع الحياة الفطري بتنوع آخر من عنده. فثبت إفطاره كل صباح: ثلاثة عبوات من حبوب ويتايكس يضيف إليها في الطبق الغويط موزة يخرطها بحدّ الملعقة، وفنجان قهوة ثقيلة محلاة بالسكر. وفي حين أن الناس بعامة يحاولون تنويع عاداتهم على الغذاء والعشاء، فالأفضل في الإفطار في العالم كله أن تجد نظامًا وثبت عليه. وذلك هو إحساس هنجري بول تجاه أغلب الأشياء.

وبما أن الصباح كله ملك له، فقد انتقل إلى الصالة وجلس بجوار الهاتف. وهنجري بول في المقام الأكبر شخص صبور، يرى الصبر سبيلًا يتيح للأشياء أن تحدث من تلقاء أنفسها، موقنًا أنه لن يكون من أمرها إلا ما أريد لها، دونما تدبير وتعمد، ولكن بدافع من نظام أصيل كامن فيها. وفيما بدأ يحك جانب ظفر إبهامه بعلبة ثقاب، رنّ الهاتف، وبعد حديث وجيز جدًّا، ورجالي جدًّا، مقتصر على ألزم المعلومات، مضى بالدراجة إلى مكتب البريد، والريح تهبّ عابرة خوذته. ولم تكن تلك وظيفة بمعنى الكلمة، لكنّه أحبّ فيها أنّه ساعي بريد عارض وكان يفخر بأنّه لا يتولّى وظيفة كاملة، فيحرم بذلك شخصًا غيره من أسباب الحياة. ومثل طابع البريد الشعاريّ الذي يستعمل لإصلاح مزق في طرد كبير، كان هنجري بول يغطّي المناطق التي تلزمها التغطية.

حينما دخل منطقة الفرز التي تنتظره فيها حقييته البريديّة، رأى الغرفة الكبيرة خاوية تقريبًا، ليس فيها إلاّ الموظفون الثابتون الحريصون على بدء يومهم مبكرًا، أو لمزيد من التحديد، هم الحريصون على إنهاء يوم عملهم مبكرًا قدر الإمكان. كان مكانًا مزدحمًا لكنّه في حالة هجران، ويغلب عليه جوّ راكد من الذكورة والآراء الحادّة. بدأ هنجري بول ينظّم البريد في جويبات، كلّ منها لشارع في خطّ سيره، قبل ترتيب بريد كلّ جويب بحسب أرقام البيوت. وذلك ما يسمّى الرمي والرصّ. فإذا كنت لا تعرف شارعًا

فأنت لا تعرف كيف ترتب الرسائل. بعض الشوارع يحسن تقسيم رسائلها إلى البيوت ذات الأرقام الفردية والبيوت ذات الأرقام الزوجية، وشوارع أخرى يحسن اتباع الترتيب الرقمي المنتظم. وفي المناطق شبه الريفية، حيث تحمل البيوت أسماء بدلاً من الأرقام، يعتمد الأمر على الدراية بالمنطقة، وهذا ما لا يتيسر لساعي البريد العارض. وكان المنطقي في أغلب الحالات هو ترك هذه الرسائل لليوم التالي عند عودة ساعي البريد النظامي، فلم يعد البريد يحمل تقريباً أي شيء طارئ، لكنهم ما كانوا يفعلون ذلك مطلقاً، بل كان يقال إن الطاولة النظيفة تعني ضميراً نظيفاً.

تكشَّف الجوُّ عن صباح ربيعي لطيف: ساطع دافئ في الجانب المشمس من الشارع، وإن بقي في الظلِّ برد ينتظر كلَّ من تسوَّل له نفسه الخروج بلا قُبَّة ظناً منه أنَّه يوم صيفيُّ قبل الأوان. مرَّ بصغارٍ ذاهبين إلى المدرسة وشاحنات تسارع بطلبيَّات متأخرة. أخذ يستمتع بمشاهدة النشاط العام المفكَّك في ذلك القسم من الصباح، لكنَّه ما كاد يدخل منطقة البيوت الكبيرة حتى عمَّ الهدوء. لم يكن يفترض أن يعبر ساعة البريد الأسوار، وإن عمد أكثرهم إلى ذلك، فكان عليه أن يصعد كلَّ ممرٍّ ويهبطه، مواجهًا تفرد كلِّ بوابة.

فشخص بدين - أو «متين» كما قد تصفه هيلين - مستند إلى بوابته، وخصره شاهد حيٌّ على متانة غرز خيوط الزيِّ الرياضيِّ الذي يرتديه. «لو أنَّ ما معك فواتير، فأنا لا أريدها». في حديقته الأمامية أريكة قديمة، وكلب قويٌّ من نوع ستافوردشير يهاجم إطار سيَّارة معلق في شجرة بتولا صغيرة.

«ما أنا إلا بديل، الشخص المعتاد سوف يعود غداً».

ثمَّ شابةٌ، لم تزل في بيجامة النوم، صاحت فيه وهي واقفة على بابها بشيء عن تأخير بطاقات عيد ميلادها.

«ما أنا إلا بديل، الشخص المعتاد سوف يعود غداً».

وكان عليه أن يجعل عجزاً توقّع باستلام طرد في الشارع التالي نيابة عن جارها. «لا تجدهم في البيت أبداً. والأطفال المساكين في الحضانة طيلة اليوم. سأمرّره عليهم لاحقاً. لقد تأخّرت اليوم قليلاً، أليس كذلك؟».

«ما أنا إلا بديل، الشخص المعتاد سوف يعود غداً».

لم يتوقّف لتناول الغداء، فقد كان يشعر دائماً بالذنب حينما يجلس لتناول سندوتشه وهو لابس زيّ الرسمي، ولم يكن الناس يحبّون هذا المنظر.

واصل هنجري بول جولاته، وحقيقته تخفّ وتخفّ، ممارساً وظيفة قائمة، دونما تغيير يذكر، منذ مئات السنين. وفي نظر أيّ شخص مشغول، مثقل بشتّى مسؤوليات الحياة وهمومها، قد يبدو نصيب هنجري بول هيئاً. فلم يكن عليه أن يقرّر أيّ أطراف المريض يبتّر أولاً، أو أين يستثمر مدّخرات العمر لمتقاعدي شركة. ولا يقع تحت ضغط رفع تقرير بالخسائر ربع السنويّة إلى «الرؤساء» في المقرّ الرئيسي أو إقحام الجزر المهروس البارد في فم رضيع محموم. ولم تكن وظيفته، في الأيام القليلة التي يمتهنها فيها، تفرض عليه اتخاذ قرارات أليمة، أو تثقله بندم يعكّر صفو أحاديث العشاء.

ومع ذلك، بات العمل البريدي، في الداريجة الحديثة، مرادفاً للانهايات العصبية العنيفة. لماذا يحدث هذا في مجال عمل بادي الهدوء، يقوم على الثروة السعيدة مع أصحاب البيوت وأداء مهمّة أظهرت على مدار التاريخ نفعها من جميع النواحي؟ فأغلب المديرين المتوسطين الغارقين في العمل مستعدّون لأن يستبدلوا عن طيب خاطر بمؤتمراتهم الهاتفية المسائية مع ساحل أمريكا الغربي بساطة عمل ساعي برید يسير في سطوع شمس مارس المختلط بشيء من الغيم، وحيداً إلا من رفقة أفكاره. ومع ذلك فإنّ خرافات ذوي الياقات

البيضاء هذه تعجز عن إدراك ذلك الذي يلوي حتّى أصفى العقول وينحو بها إلى تدمير الذات. فبرغم أنّنا سلالّة تقدّر العقول العظيمة وتكافئها، فإنّنا في الوقت نفسه تروّعنا أفكارنا.

ف نجد في السجون أن أقسى وأشقّ عقوبة تخصّص للسجناء المنحرفين - ممّن يتجاوز سلوكهم حتّى المعايير الشيطانيّة في ذلك المجتمع المغلق - هي الحبس الانفرادي، أي المصير الرهيب الذي يفرض على المرء سجنًا لا صاحب له فيه إلّا أفكاره، لا يلهيه عنها لاه، فتدفع الفكرة أختها دفع كرات البلياردو بعضها بعضًا، ويفيض مونولوج داخلي لا نهاية له على بقيّة الحياة إلى أن يغرقها، نشازًا يחדش الصمت، وقلقًا يعترى السكون، وهو اجس تشوب التفكير. فإذا بشخص معيّن، معزول لا تطيب له فترات التأمل اليوميّة الطويلة، يفكر ويفكر إلى أن يسلمه التفكير للجنون.

لكن هنجري بول بدا قادرًا على أن يحافظ على سلامه حيثما يمكن أن يعلن غيره الحرب على نفسه وعلى من يحيطون به. فقيم كان يفكر؟ الإجابة ببساطة هي لا شيء. فمن النعم التي بورك بها هنجري بول نعمة السكون العقلي الذي بات طبعًا من طباعه بمرور السنين. كان عقله يعمل بمثاليّة وكان لديه جميع ما يحظى به شخص سويّ، وإن يكن متحرّرًا بعض الشيء، من جيله. كلّ ما في الأمر أنّه لم يكن لديه اهتمام بالثروة الذهنيّة أو مقدرة عليها. لم يكن لديه راو داخلي. فإن رأى كلبًا فقد رأى كلبًا وحسب، دون أن يضيف عقله أنّه ينبغي أن يكون له صاحب، أو أنّ لسانه متدلّ كشريحة لحم، وإن سمع نفير عربية إسعاف فقد سمع نفير عربية إسعاف دون أن يلاحظ لها تأثير دوبلر<sup>(1)</sup> أو يتساءل أهى في مهمّة طارئة حقًا أم أنّ سائقها متأخّر على

(1) تأثير دوبلر Doppler effect هو الفارق الظاهر بين التردد الذي تترك به الموجات الصوتيّة أو

الضويّة مصدرها والتردد الذي تصل به إلى مشاهدتها - بريتانيكا

العشاء لا أكثر. وعلى ذلك النحو كان هنجري بول يحافظ على صفاء طبيعيّ خلال نهاره، وينأى عن المشكلات التي لا شكّ في أنّ العالم لا يبخل بها على من يبحثون عنها.

عند منتصف النهار تقريباً أنهى توزيعه وأرجع حقيبته إلى الإدارة. ولكن بقيت رسالة واحدة قبل أن ينتهي يوم عمله. أخرج مشاركته في المسابقة من جيبه العلويّ ووضعها في صندوق البريد خارج مكتب التوزيع بعد أن ألصق طوابع صغيرة ممّا يحتفظ به في جيب محفظته الخلفيّ. وقد أتمّ ذلك كلّه دونما إحساس بإثارة أو قلق تجاه المسابقة، فلم تكن مشاركته إلّا عطاء، ولم يكن يرغب في الفوز بقدر رغبته في المساعدة. فإن فازت عبارة أخرى، ففي ذلك خير أيضاً.

وجد البيت خاوياً حينما رجع، وقد ترك بيتر وهيلين رسالة على الثلاجة تقول إنّهما خرجا لشراء بوذا من مركز الحديقة. أعدّ هنجري بول لنفسه سندوتش من زبدة الفول السوداني، ولمّا عجز عن العثور على أي إضافات جانبية في الخزانة، فقد اكتفى به وحده فأكله في المطبخ جالساً على المقعد الذي شاهد منه الطيور قبل سويعات، ورأى آنية الطير وقد فرغت من جديد.

قرّر أن يستلقي على الأريكة فخلع حذاءه بطريقته الكسول، دافعاً بمقدمة فردة كعب الأخرى دون أن يفكّ الأربطة. سرى الخدر في قدميه وقد تخلّصتا من الثقل بعد مشي الصباح الطويل. غلبه النعاس غير مبالٍ بذلك الشعور بالدوار الذي يعقب نوم الظهر. والبيت من حوله، في كلّ اتجاه، غارق في الفراغ، والاتزان.

## الفصل الثامن

### لا تستعمل المصاعد

مضى ليونارد ينظف لوحة مفاتيح الكمبيوتر من الزغب بدبوس أوراق حينما تلقى المجموعة التالية من تعليقات المؤلفة. كان قد بعث إليها مادة أرشيفية عن الأنوف والمركبات الرومانيّة بهدف تعطيلها إلى أن يحاول الانتهاء من بعض الأفكار، فأحبّتها. وجاءت رسالة الإرفاق منها متفجّرة بالعواطف: «ها نحن أخيراً نضع أقدامنا على الطريق»، وكأنّها معلّمة تحاطب طفلاً بليداً أجاد أخيراً مهمّةً أساسيّةً تعلّمها بقيّة الفصل قبل آجال. وانصبت تعليقاتها وتصحيحاتها - كما هو متوقّع - على محاولة جعل الكتاب شديد الشبه قدر المستطاع بكلّ كتاب آخر عن الرومان. سيكون إسعادها أمراً يسيراً، وكذلك تعبئة بقيّة الكتاب بالاعتماد على المعلومات المعروفة المكرورة. لم يكن ليونارد يحبّ إعادة تسخين المواد البائتة، لكنّه لم يكن يجد داعياً للمقاومة إذا تبنّى الكاتب وجهة نظر مختلفة. فتلك في النهاية كتب تجارية، ولقد كانت لديه بالفعل رخصة فنيّة أكبر ممّا يمكن أن يتوقّع، وسبب ذلك الأساسي أنّه يتنازل للمؤلّف عن أيّ أمر مهمّ مستقبلياً لإبداعه الفتات الذي لا يبالي به المؤلّف أو لا ينتبه إليه. فكلّما خسر شجاراً حول محتوى، حاول التعويض بمزيد من التأنق الأسلوبيّ أو بتسريب عبارة يرى أنّ طفلاً ما قد يحلو له أن يتعلّمها أو أن يسأل عنها أبويه، ومن ذلك «الحملقة» أو «مسيرة الضفدع»<sup>(1)</sup>

(1) إمساك ذراعي شخص وراء ظهره ودفعه إلى السير قدماً كما قد تفعل الشرطة بمتهم.

لكنّه في هذه المرّة لم يرتح بالقدر الكافي للتنازل والمضيّ في عمله. لم يرق له الرضا ببعض المربّعات المعلوماتيّة المنضبطة، أو إيضاح بعض الانعطافات المبهمة في فقرة ملفّقة. وسواء أكان السبب هو نزاعه القديم مع الرومان أم تغيّرات بدأت، ولا شكّ، تحدّث في نفسه، فقد شعر تجاه عمله بتيّار جديد من الحماس والإبداع. فقد لا يقرأ بعض الأطفال عن الرومان إلّا كتابًا واحدًا، وقد يكون هو هذا الكتاب. ماذا لو ضاقت أنفسهم بالتاريخ من بابه؟ بل ماذا لو ألهمهم الرومان وصاروا لهم قدوة فأرادوا أن يكونوا القياصرة في ملاعبهم، يحيلون حياة الأطفال الودعاء الشغوفين بالمعرفة إلى جحيم، في حين أنّ هؤلاء الأطفال هم الذين يودّ ليونارد أن يقرأوا كتابه؟ لا، لا، لا، لن يفلح هذا. لم يكن بوسعه أن يجادل في نجاح الرومان القاطع في الهيمنة على القارّة، أو أن ينكر إسهامهم منقطع النظير في الحضارة القديمة. لكن ألم تكن تلك منجزات أجدر بكتابات المؤرخين وعلماء الاجتماع؟ إنّما أراد ليونارد أن يوقد شرارة مخيّلات الأطفال تجاه العالم المحيط بهم، وأن يثير فضولهم. سيتاح لهم وقت وافر لتعلّم دروس الحياة العسيرة، لكن ألا ينبغي أولًا أن يتاح لهم تكوين آراء شديدة الخصوصية عن العالم؟ أليس دوره هو أن يحفّز السحر الذي ينشأ عندما يقرأ الأطفال الموسوعات، وينشأ بصفة خاصّة عندما يقرأونها على آبائهم؟

تذكّر ليونارد حصوله من أمّه على مجموعة موسوعات عالمنا، واحدة تلو الأخرى، في كلّ كريسماس، وفي كلّ عيد ميلاد، وفي كلّ مناسبة خاصّة، وفي بعض الأحيان بلا سبب إلّا رغبتها في إدخال السعادة على نفسه. كم كان يتوق من كلّ قلبه إلى إكمال المجموعة كلّها: فنانونا، وحشراتنا، وثنديئاتنا، وأكثر من عشرين عنوانًا آخر. كان يحلو له الحصول على موسوعة جديدة من المجموعة دون أن يملك أدنى فكرة عمّا فيها. ففكرة أنّه له الحقّ في تفضيل شيء على شيء، أو أنّ بوسعه قراءة البعض دون البعض، كانت غريبة تمامًا

عليه. كان المفترض أن تتعلّق الموسوعات بالاكشاف، والانفتاح على الاكتشاف التالي مهما تكن طبيعته. كان يقرأها في المقعد الخلفي من سيارة أمّه، وفي السوبر ماركت، وعلى مائدة العشاء، وفي سريره مستعيناً بكشاف. كانت غاية الموسوعات هي أن يغمس المرء فيها نفسه، فهي تخلق عوالمها الخاصة عبر ثنائيات سحرية من الكتاب والرّسامين، باستعمال نثر مثير قصير مع صور تنحفر في الذاكرة، مرسومة رسماً هدفه أن يشبه الحياة على ألاّ يمتلئ بتفاصيل تمنع الصغار في السابعة من محاولة نسخ الصور بأنفسهم. صحيح أنّها كانت كتباً معلوماتية، لكنّها لم تكن محض كتب معلومات. وإنّما كتب حكايات تستعمل العالم المحيط بنا استعمالاً، فلا يعدو كونه منطلقاً، لإضرام جذوة خيال طفل.

ظُلّ دائماً يتصوّر الكاتب والرسام صديقين جسورين متلازمين يؤلّفان الكتب عن معلومات اكتشفها بنفسيهما. كانت الكتب تُكتب وتُرسّم بلمسة شخصيّة تجعل من الصعب تخيّل أن المشاركين في تأليفها لم يروا الحيوانات جميعاً رأي العين وهم جلوس حول النار مع القبائل الظاهرة في الصور. كانت تربيّه وهو طفل ما يمكن أن تكون الحياة عليه: مغامرة تخاض باسم الفضول وحده. فقرّر أن يفعل كلّ ما في تلك الكتب: يتسلّق قمة إيفرست، ويسبح في قفص أسماك القرش، ويمشي على الحبل فوق شلالات نياجرا، ويتنشل نفسه من رمال متحرّكة.

لكنّه لما بدأ العمل قبل سنين في الموسوعات مراجعاً للمسودّات، تعرّف للمرّة الأولى على أساليب عمل مزارع التفريخ المتّبعة حالياً في تلك الصناعة الحرفيّة، بعدما هجرها الأعمام المتحمّسون بزمان طويل. صور أرسيفيّة، معلومات جافّة، جمل تقريرية متبوعة بعلامات تعجّب. كانت الغاية لم تزل هي إثارة الأطفال، لكنّها باتت محض معلومات عليها نثار من السكر.



الأضحى في هذا أو ذاك، المعلومات الهائلة، الكتابة دائماً انطلاقاً من إحساس الكبار بنفس الطفل وما قد يروق لها. تكاثرت الكتب عن المركبات والفضاء والديناميكيات والجسد البشري، أمّا مجموعات الموسوعات فانخفضت أعدادها انخفاضاً لا رجوع عنه. فالمرء الآن يشتري كتباً في ما هو مهتمُّ به أصلاً.

فكّر ليونارد في أمّه التي لم تعجز قطُّ عن العثور له على موسوعة لم يقرأها بعد، والتي لا بدَّ أنّها كانت تطوف بمتاجر الكتب للعثور عليها في عصر ما قبل الإنترنت. فكّر في أنّه كان كلّما قرأ شيئاً وأراد أن يشرك فيه غيره، وإلا انفجر من فرط الذهول، سمع منها العبارة نفسها، العبارة التي تمنّى ليونارد لو قالها كلّ أب أو أمّ كلّ يوم لأبنائه «قل لي أنا»، وأمام انتباهها الكامل الذي لا شريك له فيه، يندفع حاكياً بأدقّ التفاصيل، مشجّعاً إيّاها على مشاركته عجبه، مشيراً إلى الرسوم وكأنّها البرهان الوحيد الذي يحتاج إليه المرء ليعرف أن العالم فعلاً مخلوق من السحر. في الأسابيع القليلة الماضية، عندما أخذت تنسحب من حياته، أخذت عقود من الشذرات الحوارية الماثلة تظهر بداخله. أصدقاء ذهنيّة عشوائية متباينة، لم تكتسب بعد عذوبة الماضي.

بجراً ضغط ليونارد (كونترول إن) فاتحاً ملفاً جديداً، راجياً أن يؤدي ضغطه على الزرّين إلى طريق مختصر للشروع في حملته التي طالما وعد نفسه بالقيام بها لتغيير حياته. بدأ يملأ المستطيل الأبيض الخاوي بسطور وسطور من الأفكار الوليدة لموسوعته هو عن الرومان التي سيضع فيها كلّ ما فهمه عن العالم والذين عاشوا فيه، مدرّكاً أنّه لو شاء أن ينجز شيئاً خاصّاً، ودونها مواجهة غضب الغاضبين، فإنّ عليه أن يرسم الكتاب بنفسه. وبرغم أنّه كان قد تكلّس قليلاً، لكنّه ظلّ دائماً القدرة على تصوّر رسوم ملحميّة للكتب التي عمل عليها، وكثيراً ما كانت تحبّطه رؤية السيناريوهات الميتة الراكدة

التي تظهر في الأعمال المنشورة: مشاهد لمعارك أشبه بواجهات المتاجر، محاربين أشبه بعارضي أزياء ضجرين، ومستكشفين شجعان يقتلون سباعاً دون أن تختلّ تصفيات شعرهم أو تتعكّر ابتساماتهم الهوليودية. لماذا لا يرسم ما يودُّ الأطفال أن يقطعوه ويعلقوه على جدران غرفهم، وما يمتلئ بشخوص معقولة من أزمنة أخرى وأماكن مختلفة، وقد اقتنصتهم الرسوم في أجد لحظات بطولتهم؟

فكّر في أطفال الرومان وفي قريهم من آبائهم من عدمه. هل كان الأطفال الرومان المولودون بغير زواج يلقون الرعاية على غرار ما جرى مع رومولوس وريموس اللذين يروى أنّهما مؤسّسا روما<sup>(1)</sup>؟ أعدّ قائمة بالألعاب التي كان يلعب بها الأطفال الرومان مثل الطائرات الورقية والسيوف وكلّ ما لم تزل صناديق لعب الأطفال تمتلئ به إلى اليوم. فكّر في أطفال الرومان الخجولين كيف كانت رؤيتهم للأمر كلّ - أكانوا يشعرون أنّهم جزء من الإمبراطورية أم كان القيصر يظهر لهم في كوايبهم؟ ماذا عن موظّفي الحكومة وهم المصمّمون والمهندسون الفعليّون للمشاريع العامّة التي نسب الفضل فيها إلى الأباطرة، أولئك العباقرة المجهولين الذين كانوا يقيمون أعظم الأبنية ثم يرجعون إلى البيوت ليلعبوا مع أطفالهم، منهكي الأبدان ممروري النفوس. فكر في عبيد فاقوا سادتهم ذكاء، ولو عاشوا في عصر آخر للقوا من الاحتفاء مثل ما لقي بلاكادر أو جيفيس أو سير همفري<sup>(2)</sup>. ضجّ عقله بصور وقصص

---

(1) ولد التوأم Romulus و Remus من علاقة بين أمها ري سلفيا Rhea Silvia وإله الحرب مارس - وكان غاصب عرش ألبا لونجا Alba Longa من والد ري سلفيا قد فرض العذرية على الأخيرة خشية أن تنجب من ينازعونه العرش - عن برتانيكا

(2) Blackadder مسلسل كوميدي تاريخي عرض على بي بي سي بين 1983 و 1998، و Jeeves شخصية خياليّة في سلسلة قصص وروايات للكاتب الإنجليزي بي جي وودهاوس P. G. Woodhouse و Sir Humphrey شخصية خياليّة في مسلسلين بريطانيين =

عن الناس الذين تعرَّضوا للتجاهل بعدما عاشوا حياتهم على أفضل ما استطاعوا أن يعيشوها خلال الإمبراطورية الرومانية. أولئك العاديون الطيبون الودعاء لم ترد لهم قصص إلا بأعمّ العبارات. بدت له تفاصيلهم مهمة بوصفهم ممثلين للحياة الرومانية النمطية. لقد كان يراهم من قبل موضوعاً، فوق بذلك في خطأ تجريدهم من إنسانيتهم، ونسيانه أن يحوّلهم إلى أشخاص مثيرين للاهتمام يودُّ الأطفال أن يقابلوهم، بل أن يكونوا إيّاهم. كان طوال الوقت يكتب عنهم وكأنهم تماثيل جامدة تعرض أزياء الحضارة الرومانية، وأمثلة تضرب لما يتعلق بتلك الفترة من معلومات. لا بدّ أن تصويرهم على ذلك النحو محبط للأطفال مثل إحباطهم عند اصطحابهم إلى محلّ ألعاب كلّ ألعابه محبوسة في علب. كان لا بدّ من دفع الأطفال إلى ترك الكتاب والجري إلى أصدقائهم وجذبهم جذباً ليحيلوا تلك الكتب إلى جزء من لعبهم.

حبس الساعات الموضوعية على أذنيه، مضى ينقر على لوحة المفاتيح كأنّه موتسارت، مدوّناً نسخته الخاصّة من الكتاب: كتاب عن جميع البشر الذين خفوا عن أعين التاريخ. شعر باتصال تامّ بعمله وإبداعه، وبالحرية، وبأنّه خارج الزمن. بدا وكأنّ الأفكار تندفق من فصل تلاميذ خياليّ في رأسه، كلّهم رافعو الأيدي، يسألونه أن يكتب عن مواضيعهم المفضّلة.

بدا وكأنّ ...

يداً تلوّح أمامه.

بدا وكأنّ ...

تلك اليد ظلّت تلوّح أمامه كأنّها مسّاحة زجاج سيّارة.

---

= Yes Minister و Yes Prime Minister.

رفع عينيه فإذا بفتاة واقفة بجواره تنفّوه بشيء.

خلع ليونارد سمّاعته بسرعة ونفاد صبر عظيم. وقال «أيّ خدمة؟»

قالت الفتاة ذات السترة الخضراء الفسفوريّة والشعر الكرزى «إنذار حريق» ومالت مشيرة بإبهاميهما إلى وجهة معيّنة قائلة «من هنا».

أعادت قولها «إنذار حريق» وقالت «عليك أن تخرج من هنا. انجُ بحياتك. من فضلك، إذا لم يكن لديك مانع».

«أهو حريق أم تمرين على حريق؟»

«ليس مسموحًا لي بالإجابة، وحتى إذا أجبت، لا فارق، سيبقى لزامًا عليك أن تخرج من هنا. هذه هي القواعد».

«لعلّه مجرد تمرين. فهم يجرونه بين الحين والآخر».

«لا يهمّ. عليك أن تذهب. لعلّ نساء وأطفالًا يموتون بينما أنا هنا أتكلّم معك».

قال ليونارد وهو يمدّ يده إلى السّماعة «أنا بخير، سأغامر».

«اووه، لا، لا، لا، لا، لا، لا، لا». تغنّت الفتاة بذلك كأنّها تتمرّن على طبقة سي ثم قالت «آسفة لفرض سلطتي عليك يا صديقي، لكن ليس لك خيار» وأشارت إلى أربطة سترتها الفسفوريّة وقد كتب عليها «مراقبة الحرائق».

استسلم ليونارد وسار غاضبًا باتجاه الباب. صاحت الفتاة «لا داعي لشكري على إنقاذ حياتك».

ضغط زرّ المصعد الذي بدا أنّه أبطأ مصعد في العالم، وحاول أن يتعقّب خيط أفكاره عن الكتاب، شاعرًا بأنّه فقد شيئًا من زخه، كما يحدث حينما تشارف عطسة على الانطلاق ثم لا تنطلق.

«هاي، هاي، هاي، لا يمكن أن تستعمل المصعد في حال نشوب حريق. كل الناس تعرف هذا». كانت صديقتها مراقبة الحرائق قد تبعته وقد أيقنت أنه شخص مثير للمشكلات.

«فكيف أنزل إذن؟»

«أغلب الناس يستعملون السلم، لكن يمكنك طبعاً أن تتدلى بحبل، أو تنزل على الجدار من الخارج مثل الرجل العنكبوت إذا كنت تجيد هذا. اخلص، وكفاك إزعاجاً. عصيان مراقب الحرائق فيه سبع سنين من الحظّ التيسر».

«ألا يجب أن تراقبي بقية الطوابق؟»

«لا. أنا في الطابق الثالث فقط. بقية الطوابق فيها مراقبون أقل درجة لذلك أتخيّل أنّ عدد الجثث فيها سيكون أعلى كثيراً. اسمع، لم لا تأخذ بعضك وتنزوي في الركن بين الحديقة والمتحف مثل بقية زملائك. ممكن؟»  
فعل ليونارد ما قيل له، وفيما هو ذاهب نفخت هي في صافرة معلقة بخيط حول رقبتها، فأفرغه ذلك وأضحكها.

في نقطة التجمّع، كانت الفتاة ذات الشعر الكرزّي تحمل بياناً وتحصي الجميع، فيما وقف موظفو الطابق الثالث يتحادثون في مرح، فمنهم من يتمنّى لو كان أحضر معه معطفاً، ومنهم من يتساءل إن كان في الوقت متسع لإحضار قهوة قبل الرجوع إلى المبنى.

وضعت الفتاة يديها حول فمها وصاحت تشكر الجميع على تعاونهم. وفيما الجميع راجعون صفوفاً إلى المبنى، أخذ بعض الشباب يهازون بعضهم حول أمنية أخيرة يتمنّون تحقيقها قبل أن يهلكهم الحريق جميعاً. سارع ليونارد راجعاً إلى مكتبه وبدأ يكتب جملاً قليلة، لكن اللحظة كانت قد مرّت ومعها

الإلهام. قرّر أن يتصفّح الإنترنت قليلاً، ومضى يفعل ذلك دونما غاية أو تركيز، ثم استسلم ونهض ليعدّ فنجان شاي.

وقف في المطبخ الصغير منتظراً الماء أن يغلي، متأملاً صورته المنعكسة على باب الميكرويف. رأى شعرات أهملها وهو يحلق ذقنه شارد الذهن في الصباح، والأغبي على الإطلاق، أنّه كان لا يزال يرتدي النصف العلوي ذا الجيب الواحد من بيجامته المشجّرة وقد نسي أن يغيّره في عجلة خروجه في الصباح. وفيما هو منحني مفتشاً في عمق الخزانة عن بعض السكر، علا من ورائه صفير زاعق انتقص ستين من عمره المتوقّع.

«مرحباً. سعيدة بنجاتك من الحريق». تلك كانت الفتاة ذات الشعر الكرزي.

«أوشكت أن تتسبّي لي في سكتة قلبية. ماذا تفعلين؟»

«يعني، فكرت أن آتي لأسلم. فمراقبة الحرائق يجب أن تعرف من تحميهم، فاهم، تحسباً لإبلاغ الخبر المشئوم إلى أحد الأقارب».

وتابعت «في الواقع إنني، يمكنك القول، أو تقدر أن تقول، إنني أعرفك. هل أنت مارك باكستر، دبلومة التربية، ومؤلف سلسلة معلومات عند أنامي؟ رأيتك وأنت تعمل فيها على مكتبك. هذه كتب عظيمة. وأنت ماهر فعلاً».

كانت معلومات عند أنامي سلسلة كتب معلوماتية كثيفة الإنتاج سبق أن عمل عليها ليونارد قبل سنوات قليلة، وحديثها أخيراً في سياق إصدار طبعة منقّحة. كان يفترض أن تخرج ممثلة بالقوائم والأرقام، دونما مضمون أصيل على الإطلاق، لولا أن أنقذها ليونارد خلصة بأن صبّ فيها إبداعه فأحال السلسلة إلى «واحدة من كلاسيكيات المستقبل» حسبما قالت نشرة إخبارية متعلّقة بصناعة النشر. أمّا مارك باكستر، دبلومة التربية، فهو المؤلف

المشرف الذي لم يضع إصبعه تقريبًا في العمل كلّه. فالمتدريّبات في مكتبه كنّ يبعثن الرسائل الإلكترونيّة بجميع التعديلات والملاحظات، بينما مارك مشغول بعيدًا عنهم في مؤتمر هاتفيّ ما، حيث يفترض أنّه نائم مع مزيد من المتدريّبات، وجزئيّة «دبلومة التربية» ما هي إلّا مفتاح للمجال الذي يبرع حقًا في العمل فيه.

«أوه، لا، أنا لست مارك باكستر. هو مؤلّف هذه الكتب، وأنا مشرف المحتوى وحسب. هو يقرّر ما يحتويه الكتاب، وأنا أكتبه وحسب».

«أوه، فعلاً؟ وهل هذه وظيفة؟»

قال ليونارد بشيء من الحساسية المفرطة «أرجو هذا».

«لم أقصد ما فهمته. فقط أرى أنّه من الإجحاف أن تقوم أنت بالعمل كلّه ثم يوضع اسمه هو على الكتاب. يجب على الأقل أن ينسب إليك فضل المشاركة».

قال ليونارد إنّ «الأمر لا يجري على هذا النحو».

قالت بصوت بيت مسكون وفي مرج كامل القسوة «أنت إذن أقرب إلى كاتب من الباطن، كاتب شبح كما يقال».

«أعتقد أنّي كذلك بعض الشيء. لكنني أفضل أن أكون في الخلفيّة. على أيّ حال، يستحسن أن أرجع».

«مؤكّد. وأنا أيضًا. بالمناسبة، هل عثرت على السكر. آه، لا تهتم. سأغمس البسكويت في الشاي، هل ترغب في واحدة؟»

قال ليونارد «لا، شكرًا» وهو يرثّ برقّة على بطنه البارز شاعرًا على الفور بالندم لفعل ذلك أمام أحد، وفتاة بالذات.

قالت «أوكيه، أراك في الحريق التالي».

رجع ليونارد بالشاي إلى مكتبه وافتعل بعض النقر على لوحة المفاتيح. ذلك كثير جدًا على يوم واحد: أولًا الرومان، ثم تدريب الحريق، وأخيرًا ها هو حوار مع فتاة. وواقع الأمر أن ذلك أول حوار مباشر له مع فتاة منذ فترة طويلة للغاية. جالسًا إلى طاولته، مضى يستعرض الأمر كله من جديد. في ثانيا ثرثرته معها انتابه شيء من الشعور بمفارقة جسده، وعدم إفاقته تمامًا من انغماسه المتوتر في كتابه. استعرض أخطائه بإحساس متضخم بالخرج: كيف غفل عن إشارات المازحة، تكلفه في التحفظ، وتربيته الغبي الغبي كيف غلب على بطنه. كيف أفعل شيئًا كهذا؟ أراد أن يضرب رأسه في الطاولة. ولكي يخلص ذهنه من الاستغراق في الخرج، حاول أن يبدأ الكتابة عن أبناء المجالدين، وهل كان يتيسر لهم أن يشاهدوا معارك آبائهم، لكن كل ما أمكنه التفكير فيه هو خرقه وحسب. ولم يكن يتصور أنها أعجبت به، فكل ما أراد هو أن يقدم لنفسه صورة جيّدة. لقد وقفت في صفه في مسألة مارك باكستر، دبلومة التربية، كلها - وذلك إيجابي، أم ماذا؟ لماذا لم يسمع أصلاً نبرة المجاملة الدفينة في ما قالته؟ ثم إنها عرضت عليه قطعة بسكويت، قطعة بسكويت يا أمة يسوع. فلماذا لم يقل فقط «شكرًا لك» ويلتهمها من راحة يدها، أو يقترح عليها أن يأكلا البسكويت معًا إلى أن تتلاقى شفاههما على غرار فيلم ليدي وترامب<sup>(1)</sup>؟ والبيجامة، من بين كل الأيام لا يقع في هذه السقطة إلا في هذا اليوم.

هل انجذب إليها؟ أم أن الأمر لم يعد كونها فتاة كان عليه أن ينتهز الفرصة ويلاحظ إن كانت تتودّد إليه أم أنه فقط تودّد مكان العمل المازح بين الرجال والنساء الذي لم يستطع ليونارد قط أن يفرّق بينه وبين التودّد الحقيقي؟

(1) [Lady and the Tramp] فيلم رسوم متحركة لوالث ديزني من إنتاج 1955



رجع بأفكاره إلى ما بدا عليه شكلها. لقد جعله الخجل يتفادى دونها وعي التقاء الأعين، ومعنى هذا أنه لم يكون لها صورة واضحة بقدر كافٍ. لعلّ فيها لمسة فنيّة، بعينين ذكيتين لكنّهما واهتتان؟ كم بلغ طول شعرها، بدا أنّه تقريباً واصل إلى الكتفين، لكن أهو متماوج أم غير مصفّف وحسب؟ ويدها - طلاء على أظافر مقضومة مثلاً؟ وهل من خواتم أو حليّ - خواتم يا يسوع!

لم ينتبه أصلاً إلى وجود خاتم زواج أو خطوبة. كيف غفل عن شيء كهذا؟ لعلّها متزوّجة. بوسع المتزوّجات أن يفرطن في التباسط مع الرجال دون أن يساء فهمهنّ، أم لا؟ كم بلغ طول قامتها؟ يصعب التحديد، لقد كان جالساً حين بدأ الحديث بينهما، وبعد ذلك كانت وراءه، وبالخارج بعد ذلك وهي واقفة وحدها، ومن ثمّ تصعب المقارنة، وفي المطبخ وقفت مستندة تقريباً إلى الحوض فبدت أصغر حجماً ممّا هي عليه. ليست طويلة، ولكن يصعب القطع بالعكس أيضاً. ولكتتها، أيّ لكتة، وصوتها أقرب إلى ماذا؟ حادّ ربيماً؟ ظلّت تلوّن صوتها في مرج. صوت بيت الأشباح، وأشياء أخرى مازحة - أهذه طبيعتها أم هو تؤثر لا أكثر، أم تباسط، أم ربّما خرج ممّا لها من سلطة تجعلها تقول لأشخاص كبار ما يجب أن يفعلوه أو يمتنعوا عن فعله؟ حاول أن يستأنف عمله. المجالدون. أبناؤهم. هيّا يا ليونارد، فكّر، فكّر. كلّما حاول التركيز، انجرف عقله راجعاً إلى غلطة هنا أو هناك. إنّهُ لم يسألها حتّى عن اسمها. أيّ شخص أحق، لا يرى غير نفسه، ذلك الذي ينسى أن يمدّ يده لمصافحتها ويسألها عن اسمها؟ أحقّ! إنّهُ أصلاً لم ينطق اسمه هو نفسه. كلّ ما قاله هو أنّه ليس مارك باكستر، وهذا يصحّ على كلّ بني آدم إلّا مستر مارك باكستر، دبلومة التربية، نفسه. ولم يسألها قطّ عن نفسها. وما الذي كانت تقوله أمّه دائماً؟ «يا ليونارد إن شئت أن تكون صداقات فاسأل الناس عن أنفسهم».

لعلّه كان ليحسن التعامل لو أُتيح له تنبيه ما. لو علم أنّ اليوم هو اليوم الذي تكلمه فيه فتاة، حقيقةً، ولعلّها جذابة، وتسمعه بضع مزحات، فلعلّه كان ليعدّ نفسه قليلًا. ما كان ليلبس النصف العلوي من بيجامة. بل كان ربّما ليرتدي قميصًا لطيفًا أو يعقد ستره على كتفيه، كالناجين الواثقين في أنفسهم. لعلّه كان ليحسن حلاقة ذقنه، أو يتركها نابثة كلّها، أو ربّما كان أطلق لحيه ضخمة شأن كثير من الرجال في العمل. ثم إنّه طأطأ ناظرًا إلى حذائه، فإذا به جلديّ أسود كلاسيكي لعين، مع جينز، رحمتك يارب!

لم تكن هذه هي المرّة الأولى التي ودّ فيها لو أنّ في حياته زرًّا للتراجع. تمنّى لو أنّها قابلت النسخة المثلّية من نفسه. كان يشعر دائميًا أنّ فُرصه مع النساء ضئيلة، لكنّه في أفضل أيّامه - حين يرتدي أحدث ثيابه، ويحلق شعره، وينال نصيبًا جيّدًا من النوم - قد يعدّ مقبولا في نظر فتاة لديها من الصبر ما تتجاوز به الأمور المصطنعة وتدرك أنّ لديه مؤهلات كافية لأن يكون حبيبًا تحت التمرين. فمن المؤكّد أنّه ليس المنتج المكتمل، لكن أسباب الاكتمال موجودة. عسى أن تكون قد قضت سنوات الثانوي في مدرسة مختلطة. أمّا لو كانت خريجة مدرسة بنات فقط فقد انتهى أمره. فبنات تلك المدارس كنّ يخرجن باحثات عن الرجل الكامل، رجلهنّ الكامل. أمّا بنات المدارس المختلطة فيبحثن على الأقل بمنطق «أعطني شيئًا يمكنني العمل عليه». ومؤكّد أنّه كان ذلك بالضبط. فبوسع فتاة لطيفة طيّبة القلب أن تصنع منه المعجزات، حتّى لتقول صاحباتها «أين عثرت على هذا؟ أليس له إخوة؟» وهكذا كان ليونارد، ربّما لم تكن له ثقة بنفسه حقًا مع البنات، لكنّه قطعًا كان يمتلك الأمل. رأى جحافل من البنات وقدّرن أنهن بعيدات كلّ البعد عن شواربه، لكنّه رأى أيضًا كثيرًا من الثنائيات التي تمسك فيها الفتاة، الفتاة السعيدة، بيدي شاب له مثل شوارب ليونارد. أي أنّه شاب لا بأس به شكلاً، لكنّه قد يملك القدرة على إضحاكها، أو يجعلها ترتاح إلى نفسها. لم يكن يلزم

الشاب إلا مدخل، فتعطيه فرصة. فرصة لأن يعرفها. لا لأن يحتاجها - فقد كان يعرف أنه ليس من أولئك الرجال - بل هي على الأقل فرصة لأن تدفأ مشاعرها تجاهه بمرور الوقت، أو لتعرض عنه قبل أن تدرك أنه الشخص الذي كانت تبحث عنه طيلة الوقت.

كان ليونارد يزداد تيقُّظًا. فبعد مروره بفترات طويلة قاحلة، بدأت مشاعره الغرامية تفيق، بكلّ كيمياء الجسم الجنونية. وأرهقه ذلك. وهو بالفعل لم يكن مريحًا للجسد، فها هي البرجة الجينية كلّها تركل في آنٍ واحد، داهسة نفسه الضعيفة الهشة.

لم يكن لدى ليونارد الكثير ممّا يمكن قوله عن الرومان في ذلك اليوم. خرج من العمل مبكرًا ليقابل هنجري بول الذي صدرت له التعليقات بأن يشتري بذلة لزفاف جريس - «قبل المغرب» مثلما أوضح الأمر - ولما كان يوم الخميس وقتًا متأخرًا للشراء، فقد عرض ليونارد أن يرافقه ويساعده في اتخاذ القرار.

من عواقب عدم امتلاك هنجري بول هاتفًا محمولًا أنّه كان دائمًا دقيق المواعيد، فمن الممكن ترتيب موعد معه قبل ستة أشهر في وقت محدّد ومكان معيّن ودونها تذكرة أو عذر في اللحظة الأخيرة، يحضر وفقًا لما اتفق عليه. لما وصل ليونارد مبكرًا، كان هنجري بول في انتظاره بالفعل. قرّر أن يجربًا ماركس، الذي اشترى منه ليونارد بذلة جنازة أمّه وقرّر أن يرتديها مرّة أخرى في الزفاف، مع ربطة عنق ذات لون مختلف.

سأله ليونارد «ما الذي تفكّر أن تشتريه؟»

«أتصوّر أنّي سأرى ما لديهم وحسب. أرجو أن أجد شيئًا على مقاسي. فأنا إلى حد ما بين بين، في القياسات يعني».

«متى كانت آخر مرّة اشتريت فيها بذلة؟»

«شوف، إذا استبعدت شراء الجلي، الذي اشتريته للجودو منذ بضعة أيّام، فهذه هي المرّة الأولى».

«فما قياسك؟»

«لا أعرف. عادة القمصان التي تناسبني من الكتفين تكون طويلة على الذراعين، وال سراويل التي تناسب ساقيّ القصيرتين لا تلائم خصري».

قال ليونارد «وهذا ما يقولون عنه بلغة الخيّاطين مشكلة الغوريلا. تعال نجعلهم يأخذون قياسك».

تلفّتا في المحلّ يبحثان عن عامل، مترجّمين على أيّام أن كانت المحالّ تعيّن بالفعل من يساعدون الزبائن. كان العديد من النساء متوسّطات العمر يرتدين ثيابًا سوداء ويعلّقن شارات بالأسماء يتحرّكن حولهما:

«آسفة، معي شخص آخر».

«آسفة، أنا في استراحتي».

«آسفة، أنا لا أعمل هنا».

فقرّرا أن يحلّا المشكلة بنفسيهما.

سأله ليونارد «أيّ لون تريد؟»

فكر هنجري بول في الأمر قائلاً «ليس الأزرق، فذلك أشبه كثيرًا بزّي في مكتب البريد. وليس الأسود، لكي لا أبدو وكأنني عضو في فرقة موسيقىة. وليس البنيّ، لكي لا أبدو مثل المعلمين. إذن، ربّما الرماديّ، بل الرماديّ الداكن؟»

قال ليونارد مقترحًا «ماذا عن هذه المقلّمة؟»

«لا، المقلّمة تناسب العمل، لا لمناسبة اجتماعيّة. ثم إنّ هذه خطوط عريضة، وهذه مسألة أخرى تمامًا».

قال ليونارد «أنا منبهر. توقّعت، بأمانة، أن أجذك عديم الحيلة في هذا الأمر. كيف تعرف كلّ هذا عن البذلات؟»

«أعتقد أنّ أمّي تصوّرت هذا أيضًا. لا يوجد الكثير ليعرف أو يجهل. فالرجال ليس لديهم تنوّع ضخم في البذلات، وأنا أحبّ أن أنتبه لما يجري، وبعد فترة تلاحظ من يرتدي ماذا، حتّى لو أنّك شخصيًا لا ترتدي البذلات. تعال نجرّب هذه الرماديّة الداكنة هناك».

ارتداها هنجري بول لكنّ نسب جسمه خذلته.

قال ليونارد «لعلّ بوسعهم ضبطها».

«قصّدك أنّها قد تكون مناسبة تمامًا لو أنّهم غيروا جميع الأبعاد. لحظة، ها هو أحد المشرفين».

استوقف هنجري بول عاملاً في المحلّ، بدا في قرابة الحادية عشرة من العمر وقد انطبعت على جسمه كلّ لافتة «المخزن».

سأله هنجري بول «هل لديكم هذه البذلة في أيّ قياسات أخرى؟»

قال «أعتقد أنّ الموجود منها هو المعلق هنا على المشاجب».

استجوبه هنجري بول، بنبرة مراقب للجودة، قائلاً «فماذا في المخزن إذن؟»

قال العامل بنبرة اليأس «ربّما يوجد المزيد من القياسات، يجب أن أتحقّق».

سأله هنجري بول «هل يمكن أن تأخذ قياسي أوّلاً، فلا يكون ذهابك هدرًا، لن يستغرق الأمر دقيقة».

أتى العامل بشرط مقياس من مكان ما وبدأ يقيس هنجري بول، متبعًا منهجًا ذاتيًا بدا أنه اخترعه في التوّ والحين. «آه، أظن قياسك قريب من 36 للبدلة و38 للسروال» فجاء تخمينه أقرب إلى قياس إي تي.

قال هنجري بول «أظن أننا سنتجول بنفسينا. شكرًا لك على أيّ حال».

عبر العامل الصغير ببضعة أبواب كبيرة ماضيًا إلى حيث ينهي مراهقته.

بفضل شيء من المثابرة المنهجية، تمكّن هنجري بولي من العثور على بذلة رمادية أنيقة يلائمه نصفها العلوي جيدًا ويمكن أن يلائمه سروالها أيضًا فور تعديله قليلًا. بدا أنيقًا بالفعل إلى حدّ بعيد حينما لبسها، برغم أنّ من يجرب بذلة وقدماه في الجوربين دون الحذاء (بأصابع قدمين بارزة) يترك انطباعًا قاتلًا بأنّه دون التأثير الكامل.

سأله ليونارد «وما لون القميص - أزرق ربّما؟»

قال هنجري بول «إنّها ليست حفلة لرجال الشرطة. أبيض طبعًا. أمّا ربطة العنق فدعني أنظر. سأختار البنفسجية. فقد كان ذلك دائمًا اللون المفضّل لجريس ونحن صغيران. وكان لون غلاف حلواها المفضلة في علبة كواليتي ستريت في الكريسماس».

قال ليونارد متأثرًا بهنجري بول «أتصوّر أنّي سوف أنهي أمري أنا الآخر. قميص أبيض طبعًا، أمّا عن ربطة العنق فالخضراء اللطيفة، ليست زاعقة أكثر ممّا ينبغي، صحّ؟»

قال هنجري بول بلمسة شعريّة «إطلاقًا. تبدو بلون ورق شجرة البتولا حين تشرق عبرها الشمس».

وفيا وقف الاثنان في طابور الدفع، أذهلتها مجموعات جوارب جميع أيام الأسبوع المعروضة قرب المحاسب فاشتري كلّ منهما مجموعة. والمؤسّي أنّهما

لم يدركا أنَّ هذه المجموعة أبعد ما تكون عن تيسير اختيار الجورب، وأنها سوف تمثل عناء مطلقاً، وأنه فور الانتهاء من ارتدائها جميعاً للمرة الأولى، فإن فردة كل جورب مخصَّص ليوم من الأسبوع لن تقترن أبداً بنظيرتها.

في طريق رجوعهما إلى البيت، وليونارد لم يزل منبهراً بقدرات هنجري بول الخفية، أخذاً يثرثران في عموميات الحياة، وقد تحفَّفاً من واجبهما في ذلك المساء.

سأل ليونارد «هل لديك الآن خطط لبقية الأسبوع وقد انتهيت من شراء البذلة؟».

قال هنجري بول «اقترحت أمي أن أمرَّ معها على المستشفى لأرى إن كان يمكن أن أساعد قليلاً في عملها التطوعي هناك».

قال ليونارد «منتهى كرم الأخلاق منك أن تعرض مهارتك كجراح قلب بالمجان» ثم سأله «هل تذهب بمقصدك وصمغك أيضاً؟»

قال هنجري بول «شوف، عندي كتابك الجسد البشري يساعدي، فهل يمكن أن أقع في خطأ؟ الحقيقة أن أمي تزور المكان. تسير فقط في العنبر وتساءل الناس إن كانوا يحبُّون أن يثرثروا، واقترحت أن أذهب معها. لا أظنُّني سأكون مفيداً، للأمانة فقط».

قال ليونارد «لم أرك يوماً في هذا الدور. فليس الحديث إلى الغرباء نقطة تميِّزك في العادة».

«أظن أنني سوف أجلس هناك لأسمع أكثر ممَّا أثرثر. يفترض أن أبدأ غداً. وأنت، كيف حال الرومان؟»

«لا بأس في ما أظنُّ. قرَّرت أن أقوم بالعمل الأساسي في الكتاب الأصلي، فذلك ما يريده أغلب المؤلِّفين، لكنني بدأت أيضاً أضع أفكارٍ الخاصة».

لا أعرف بعد ماذا سأفعل بها، لكنني معجب كثيرًا بأن أنطلق في تأليف كتابي أنا. الحقيقة أنني أنفق أغلب وقت الشركة في العمل على أفكارٍ حالياً».

قال هنجري بول مستدعيًا موهبة أمّه في التشجيع والتحفيز «أنت دائماً قادر على الكتابة لكن الأمر أنك لم ترقط نفسك كاتبًا، طالما أمسكت نفسك. وأنت تعرف عن الموسوعات أكثر من أي شخص، فلماذا كل هذا الشك في النفس؟ لو كنت طفلاً لفضّلت كتبك كثيرًا على اجترارات كاتب مجهول».

قال ليونارد مغيرًا الموضوع «كنت أوشك أن أذكر أيضا أنني تكلمت اليوم مع فتاة. في العمل يعني. ضمن تدريب على الحريق».

قال هنجري بول «رومانسيّة تدريب الحريق القديمة، ها؟ ما اسمها؟»  
«لا أعرف».

«هل تعمل معك؟»

«ليس معي. لا. لكن لعلها في الشركة نفسها. لست متأكدًا».

«وما شكلها؟»

«فيها لمسة فنيّة بعض الشيء. لا أعرف».

«ماذا تقصد بأنك لا تعرف؟ كانت ترتدي قناع مصارعة مثلاً؟ هل كان المكتب اليوم غارقًا في الضباب أو الظلام؟»  
«فقط لم ألق عليها نظرة جيدة».

«صدمتك وجرت إذن، هل أخذت رقمها؟ كيف لا تعرف عنها شيئًا هكذا، قل لي على الأقل هل كانت سائلاً أم غازاً أم مادّة صلبة؟»

قال ليونارد متراجعًا بعض الشيء «الصراحة أن الأمر لم يتجاوز الشرّة. لكنّها كانت لطيفة، في حدود ما أتذكّر».



«آسف، لم يكن ينبغي أن أمزح. كلُّ ما يمكنني قوله هو أنني أتمنّى لك حظًا سعيدًا في هذا. ولو احتجت في أيّ وقت إلى أيّ نصيحة لإفساد الأمر كلّهُ فليس عليك إلّا أن تطلبها».

«أكيد يا صاحب عمري».

افترق الصديقان، وكلٌّ يؤرّجح حقيّته مشتاقًا إلى تجربة جورب الجمعة في اليوم التالي. هنجري بول اشترى بذلة رماديّة لطيفة لزمها بعض الضبط، وليونارد اشترى ربطة عنق بلون ورق البتولا حين يتخلله نور الشمس الساطعة. وهو بالمصادفة في مثل لون السترة التي سبق أن رأى فيها شيلي، مراقبة الحرائق في الطابق الثالث، البالغ طولها خمسة أقدام وخمس بوصات، ذات الشعر الكرزي، التي تقضم أظافرها الحمراء، والمسؤولة عن التدريب والتعيين في شركة اسمها فيزيكال سولوشنز المحدودة وتعمل في تدريب الممرّضين على حمل مرضاهم دون أن يؤذوا ظهورهم.

## الفصل التاسع

### شكرًا على الحلوى

في الصباح التالي استيقظ ليونارد مبكرًا وبذل جهدًا خاصًا في كيّ أفضل وأحدث قميص لديه. ووافق بينه وبين سروال جديد سبق أن اشتراه ولم يلبسه قطّ، وذلك أساسًا لأنّه كان يفتقر إلى الطيّة المألوفة التي تداري السحاب فخشي ليونارد من احتمال أن تكون لذلك دلالة سرّية مشفرة البعد عنها غنيمة. أمّا عن الحذاء، فلم يكن أمامه إلّا حذاؤه الجلدي الكلاسيكي الأسود أو حذاء أديداس كان يعتزم التخلص منه. ورأى أنّه لا مفرّ من أديداس.

ما كاد يصل إلى العمل حتّى حاول أن يرى لو أنّ بوسعه العثور على طاولة الفتاة، لكنّه وصل مبكرًا للغاية فلم تكن قد حضرت بعد. كانت أعجل أولوياته هي أن يمحو آخر حوارين بينهما ويفسح مكانهما لانطباع أوّل جديد، وهو أمر لم يكن بوسعه أن يجربّه إلّا لو جعله أوّل ما يفعله في يومه ذلك، قبل أن يغلبه الشكّ في الذات.

حاول أن ينتبه إلى ما يرتديه بقيّة الرجال في المكتب، أو أنّه أراد - بعبارة أخرى - أن يعرف ما الذي يعجب الفتيات في ثياب الرجال. كان أغلب الرجال شبابًا، وناحليّن ككلاب الوبيت، فبوسعهم ارتداء القمصان المطبوعة بصور الفرق الموسيقيّة دون أن يبدوا فيها كالبالونات المفقوءة. منهم من كان يعتمر قبّعات داخل المكتب، وأحدهم في إبهامه خاتم، وهذا

يقيناً أمر غير صائب. واثنان في واقع الأمر كانا يرتديان النصف العلوي من  
بيجامتين مشجرتين - فهل استحدث ليونارد صيحة؟

عندما وصل إلى طاولته، راجياً أن يعوّض الوقت الذي ضيَّعه في اليوم  
السابق، كانت حزمة كاملة من الرسائل الإلكترونية في انتظار أن يتولَّى  
أمرها. فقد رجع كتاب في مراحلهِ الأخيرة - وهو مصانع الطبيعة ويتناول  
التمثيل الضوئي والتلقيح عند النباتات - من التصحيح ويحتاج إلى النظر  
فيه. استقرَّ رأيه على أن يتحلَّى بالمسؤولية ويتعامل مع الطلبات العديدة ثم  
ربَّما يحاول العثور على الفتاة عند وقت الغداء. فقد لا تكون لديها خطط  
للغداء وقد يذكر ليونارد عرضاً أنَّه في طريقه إلى تمشية أو يفكر في الذهاب إلى  
الحديقة ليرى إن كانوا يعزفون موسيقى عند المنصَّة. وضع السماعة العازلة  
للضجيج وبعث قرابة اثنتي عشرة رسائل إلكترونية اختتمها جميعاً بـ «تقبَّلوا  
اعتذاراتي عن التأخُّر في الردِّ».

وفي لحظة ما، وهو منهمك في إزالة ورق محشور في الطابعة، رأى الفتاة  
ذات الشعر الكرزي عبر منطقة المساحة المفتوحة. بدا أنَّها في عجلة من أمرها  
وواقعة تحت ضغط ما. حاول أن يتلَكَّأ حتَّى يدرك خلسة أين تجلس، وبذلك  
يعرف لحساب من تعمل، وبصفة خاصَّة إن كانت تعمل للشركة التي يعمل  
لها، لكن تعقُّبها كان شديد الصعوبة، فهي تختفي وسط الأثاث النمطي  
اختفاء سمكة تمزق وسط الصخور.

مضت الأمور على نحو أبطأ قليلاً من المتوقَّع في التخلُّص من العمل  
المتراكم، فكلُّ من بعث إليه رسالة بادر حتِّماً إلى الردِّ بمزيد من الأسئلة أو  
بعث طالباً منه عمل شيء آخر. ولَمَّا جاء أخيراً الوقت الذي فرغ فيه من  
ذلك كلِّه كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة ونافاذة خطَّة غدائه توشك على  
الانغلاق.

حاول السير في فتور إلى حيث ظنَّ أنَّ طاولة الفتاة موجودة، معترماً أن يقول شيئاً من قبيل «إذن ما من حرائق اليوم؟» فيعيّنه ذلك على استئناف الحوار من حيث تركه. وكان الهدف هو أن ينفّض آثار الحوار السابق، ويظهر لها ليونارد الاجتماعي المثير للإعجاب. ولما وصل إلى هناك رأى فتاتين تجلسان في حيّزٍ مخصص لأربعة. إحدهما على الهاتف تحدّث شخصاً بدا أنّه زبون صعب، والأخرى تلملم أوراقاً للتوجّه إلى اجتماع أو شيء من هذا القبيل.

قال ليونارد «مرحباً» بنبرة صوت عفوية.

تجاهلته الفتاتان واستمرّتا في ما كانتا تفعلانه.

«مرحباً، كنت أسأل لو أنَّ فتاة ذات شعر مصبوغ بالأحمر تعمل على إحدى هذه الطاولات؟»

قالت الفتاة التي تنهياً للاجتماع «نعم، لماذا؟ نحن مشغولتان».

«أسأل فقط لو أنّها موجودة. هي مراقبة الحرائق وكنت أرجو الحصول منها على نصيحة تتعلق بالسلامة. يعني... مجرد سؤال يعني... عمّا إذا كان أمناً أن أترك هاتفني في الشاحن ليلًا؟» مؤكّد أنّ ليونارد لم يكن بارعاً في هذه الأمور.

قالت فتاة الاجتماع دون أن تنظر إليه وهي تسارع إلى الناحية الأخرى من الغرفة «افعل ما يحلو لك».

قرّر ليونارد وقد شعر بالتجاهل ولم يكن مستعدّاً للاستسلام أن يتمهّل ويتنظر المرأة الأخرى أن تنهي مكالمتها. لم يدر هل عليه أن ينبّهها بنظرة فتعرف أنّه ينتظرها، أم يتريّث ويتخفّى متفادياً استفزازها. أخذت القرار نيابة عنه إذ أغلقت الهاتف بعنف، ثم طعنت الساعة بإصبعها الوسطى

طعتين متتاليتين قبل أن تدبر رأسها إليه قائلة «ماذا تريد؟»

«مرحبًا. قال لي شخص، أعني، أعتقد أنني رأيت مراقبة الحرائق هنا في وقت سابق، أقصد الفتاة التي كانت مراقبة الحريق بالأمس، وأحتاج إلى نصيحة منها تتعلق بالسلامة من الحريق، الشاحن عندي في بعض الأحيان يسخن، و»

قاطعته قائلة «شيلي لا تكون هنا بعد الظهر، في الصباح فقط».

«أوه، أوكيه، شكرًا. سأتركك ترجعين إلى عملك، ولن أحاول التسبب في حرائق في الأثناء». لم يكن مستعدًا بعد للتخلي عن إمكانية تحويل السلامة في الحرائق إلى موضوع حوارى خفيف الحضور.

قرّر ليونارد الخروج طلبًا لبعض الهواء المنعش والمشي لبضع جولات مترعة بالأفكار في الحديقة. كان بطنه متوترًا فلم يجد في نفسه رغبة في الطعام. شعر أنه مستنزف ومحبط. إذ عليه الآن أن ينتظر إلى يوم الاثنين ليراها ويوضح الأمور. والوقت كان يزحف بطيئًا منذ أول أمس بالفعل، وها هو الآن تنتظره إجازة أسبوعية طويلة بطيئة عليه أن يجتازها قبل أن يحاول الحديث إليها من جديد. وزاد عليه أن زميلتيها في المكتب نفذتا على الأرجح إلى نفسه. ولعلّهما ستسخران منه أمامها. وسوف يستحيل عليها الخروج مع شخص بدا أضحوكه لزميلتيها في العمل.

ظلّ يفكر في الأمر وهو يقضم قلقه مجسدًا في ظفر إبهامه. إنَّها تعمل في الصباح فقط. فما معنى ذلك؟ أهى وظيفة لبعض الوقت؟ هل لديها وظيفة أخرى بعد الظهر أم أنَّها تحتاج إلى التفرُّغ في أوقات الظهيرة لسبب ما؟ ما الذي يشغلها في الظهيرة، النوم مع حبيبها، زوجها؟

لكنَّه بالفعل قد حصل على اسمها. «شيلي». إهم. ردَّده لنفسه بضع

مرّات. نظرت إليه فتاة تأكل من سندوتش جالسة على أريكة قرب بركة البط  
نظرة رادعة. هل سبق أن التقى من قبل فتاة اسمها شيلي؟ أذلك أصلاً اسم  
حقيقي؟ هل اسمها شيلي فعلاً، أم هو اختصار ميشيل، أو روشيل؟

فيما يدور حول المنصة التي اعتلاها أعضاء فرقة نحاسية يجزمون آلاهم،  
استمرت أفكاره تتناثر في وجهات لا حصر لها حول الهوية المحتملة لها،  
ومضت تعتريه تكهّنات لا سبيل إلى التثبت منها قبل يوم الاثنين على أقرب  
الفروض. بدا ذهنه أقرب إلى علبة مياه غازية رُجّت وباتت الآن بحاجة  
إلى تفريغ ما بها من هواء في بطء واحتراس. رجع إلى طاولته، واهناً جائعاً،  
فحاول العمل على كتابه عن الرومان، ولكن تركيزه انصبّ على مكان  
آخر. بعد فترة استسلم وقرّر أن يتصل بهنجري بول ليتكلّم عن الحيرة التي  
يستشعرها، ولكنه لما حاول الاتصال بصديقه المقرب، ظلّ الهاتف الأرضي  
يرنّ ويرنّ ولا يجيب. بدا أنّ كاتم أسزاره ليس في البيت. وإذن فعلى ليونارد  
أن يصارع الظهيرة وحده.

\*\*\*

الواقع أن هنجري بول كان في طريقه لزيارة المستشفى. وكانت هيلين  
قد وضعت على طريق رحلته المستقلّة الأولى في هذه الوجهة بافتراض أنّه  
ذاهب لتقديم علبة من حلوى روزس إلى الممرضات بالنيابة عنها، بسبب  
تغيّنها لعمل جذور شعرها. وبكلّ حماسة رجل لا خيار له في الأمر، انطلق  
إلى المستشفى وحده وكان قد وصل إلى حديقته تقريباً حينما تذكر أنّه نسي  
إحضار علبة الحلوى. رجع جرياً إلى البيت، واستلّ علبة الـروزس من أسفل  
السلم ثم سلك الطريق مرّة ثانية.

توقّف عند زاوية وقرّر أن يعبر الشارع الرئيسي محتمياً بمسؤولة مرور

واقفة تمنع تلاميذ المدرسة على الجانب الآخر من عبور الشارع. كانت تثرثر مع شخص كبير فأضاعت فرصًا واعدة كثيرة لبدء عبور الطريق. وفيما هو منتظر مسؤولية المرور على الرصيف المقابل، أخذ يتفحص في كسل علبة الروزس، فلاحظ أنها منتهية الصلاحية. بل هي منتهية الصلاحية منذ أمد، منذ ما يزيد على سنة. أوّل ما خطر له هو العجب من شأن الكون، فهو الآن يشارف على ثلاثة عشر ونصف مليار سنة من العمر أو نحو ذلك، ولم يزل يواصل العمل متوسّلًا بالصدفة. فما كان هنجري بول ليلحظ التاريخ المدوّن على العلبة لولا تلكؤ مسؤولية المرور، التي ما كانت لتكون في الخدمة لولا أنّ اليوم يوم عمل. ولم يكن من طبع هنجري بول أن يتفحص التاريخ المثبت على علبة حلوى، فهو في العادة يفترض أنّ الأمور على ما يرام في هذه الأشياء، بل إنّه في الحقيقة كان عادة ما يحار في تحديد الفوارق ما بين «الاستعمال الأمثل قبل تاريخ كذا» و«للاستعمال حتّى تاريخ كذا»، ويبدو له أنّ الفارق شديد الدقّة وإنّه لا داعي له. غير أنّ الكون، بما أنّه أكبر من هنجري بول سنًا وأرفع حكمة - بدرجات في كلا الجانبين - قد رأى من الملائم أن يكشف عن نفسه من خلال المصادفة، وهكذا رضي هنجري بول أن يرى في اكتشاف عارض مسألة قدريّة بسيطة.

لو كان إسحق نيوتن منتظرًا مسؤولية المرور في ساعة الغداء من يوم الجمعة ذلك، لأشار بلا شكّ إلى أنّ لكلّ فعل ردّ فعل مساويًا له في القوّة ومضادًا له في الاتجاه، وفي ضوء ذلك الإطار العقلي النيوتني قرّر هنجري بول خطواته التالية. لمّا كان قد رجع مرّة بالفعل إلى البيت، فقد رأى أنّه لا يمكن أن يفعلها مرّة ثانية. ووضح أيضًا أنّه ما كان ليمشي إلى المستشفى ويسمّ قوّة العمل في عنبر سان ماثيو أو يدخل عليهم خاوي اليدين بعدما قالت أمّه قاطعة إنّه سوف يأتي بحلولى عند حضوره في المرّة التالية.

شعر هنجري بول، وهو الروح اللامبالية في العادة، أي البطيء في الغضب أو حمل الضغينة، بأنه فاقد التوازن. كان يدرك بالطبع أنه لا لوم على أمّه الغالية، فقد كانت دوافعها وفعلها في هذه الحالة طيبة ورقيقة، فصبّ حنقه وذهوله وإحساسه بالظلم على الماركت - عديم - السوبر (كما كان يحلو له أن يسخر في نفسه من السوبر ماركت) الذي اشترت منه أمّه علبة الروزس في المقام الأول. فتلك المؤسسة الوحشية لم تبال نهائياً بالعواقب الكارثية المحتمل وقوعها على طاقم التمريض الذي تذرّع عضواته المتفانيات عنابر مستشفيات البلد كلّ رعاية لأضعف المواطنين وأوهنهم. أراد هنجري بول (بالنيابة عن أمّه) لأولئك الممرضات الجسورات أن يهنأن بأبسط رفاهية تُوفي باريل أو كاراميل دريم دون أن يجدن أنفسهنّ طريحات أفخر بلاط أرميتاج شانك. أطلقت الفكرة المجردة أمزجة شكسبيرية مقبضة في نفسه، وإن تكن من أكثر الأنفس سكينه واعتدالاً. كان هنجري بول في العادة رجلاً يقف وقفة سياج، تاركاً الدنيا تمضي به ومن خلاله، لكنّه في هذا الموقف شعر بغضبة شخص ورع تقيّ يشعر بالإهانة نيابة عن الآخرين.

فيما هو سائر بمحاذاة السوبرماركت، متفزّزاً من وعود خدمة العملاء الجوفاء التي تنهق بها اللوحات الإعلانيّة في موقف السيارات، وقف مواجهاً المبنى (بريء المنظر بصورة لا يمكن إنكارها) وقد انتابه شعور مصيريّ. دخل السوبرماركت وابتدر أوّل عاملة صادفها بالكلام، فصرفته عنها قائلة إنّها في الطريق إلى استراحتها. قالت عاملة أخرى إنّها مشغولة مع زبون آخر فعرف هنجري بول أنّ تلك محض حيلة ملتوية. ولإحساسه أنّه سوف يبلي بلاء أفضل مع شخص من بني جنسه، فقد عثر على أحد صغار عمال التجزئة الذين كثيراً ما كان يراهم في المتجر وقال بشكل رسميّ «أريد أن أتقدّم بشكوى بشأن علبة الروزس هذه» حتّى إنّهُ أبرز نطقه لحرف الراء لسبب ما في كلامه.



«ها، أنا في قسم المناشف والمناديل الورقية. عليك أن تذهب إلى قسم الحلوى» مشيرًا بيده إلى مكان بعيد وغير مرئي.

لم يشأ هنجري بول أن يخطئ غضبه هدفه، فتجاهل العون المحدود في تلك الإجابة، وشقَّ طريقه العملي إلى الممرِّ المقصود. وهناك وجد عاملًا صغيرًا آخر يفرغ صينية من بيض عيد الفصح، ثاقبًا تغليف عبوة الجملة بطرف قلمه.

«معذرة، أريد أن أتقدّم بشكوى بشأن علبة الروزس هذه».

«ها، أوكيه. لا أعرف ما شأنها».

«يعني، مضى أكثر من سنة على انتهاء صلاحيتها. ما رأيك في هذا؟»

استسلم فورًا فقال «خذ من هناك واحدة أخرى بدلًا منها».

قال هنجري بول «الأمر لا يقتصر على الحلوى، إنَّها هو المبدأ» مشدّدًا على الكلمة الأخيرة ليوحي بأنَّ الصورة أكبر بكثير ممَّا تصوّر العامل.

«هل تريد مثلًا أن تتحدّث مع مدير؟»

«من فضلك. بالضبط».

اختفي العامل الصغير وراء تلك الأبواب البلاستيكية الغربية التي لا يبدو أنَّها تستعمل إلَّا في السوبرماركتات. مرَّ عليه بعض الوقت. كانت امرأة واقفة على مقربة، ولديها حسُّ أكيد وواضح بالدراما الموشكة، فاقتربت من المسرح. كانت ترتدي سترة يبدو أنَّها شغلتها بنفسها وقبّعة من نوع البيرييه، وفي عربة التسوق التي معها العديد من المخبوزات بالفعل، ومن ثمَّ فإنَّ لها مصحلة قانونية محتملة فيما يوشك أن يجري. «ماذا جرى يا حبيبي؟»

قال هنجري بول موضحًا «اشتريت هذه هديّة للممرّضات الطيّبات في المستشفى ومرضاهنَّ المساكين، أو أنَّ أمِّي بالأحرى هي التي اشترتها، ثمَّ

لاحظتُ أنَّ صلاحيتها منتهية منذ أكثر من سنة! لم أصدق عينيَّ. لا بدَّ من عمل شيءٍ».

«أنت على حقٍّ تمامًا يا حبيبي. كان يمكن أن تقع كارثة. وهم هنا لا يبالون بالمرَّة. لا. يبالون بالمرَّة».

انضمَّ إلى الجوقة صوت امرأة أخرى، لها روح مشابهة، في منتصف العمر مدكوكة البنية ترتدي سترة رياضيَّة، تصوِّر هنجري بول أنَّها تنافس في رمي الجُلَّة أو في رياضة مثلها ممَّا تكون البنية المدكوكة ميزة فيها. قالت «أراهن أنَّ نصف البضاعة هنا منتهي الصلاحية. إنَّهم يطعموننا أيَّ شيء. أنا لا أتحقِّق مطلقًا من تواريخ الشوكولاته. في الخبز أو الحليب ألقي نظرة، لكن لا أتحقِّق مطلقًا من الحلوى».

أضافت المرأة ذات السترة المشغولة يدويًّا «نعم، أحسنت صنعًا بملاحظة التاريخ» وإن قالت بلغة الجسد إنَّها تنتمي إلى طبقة من آكلي الشوكولاتة غير طبقة رامية الجُلَّة.

رجع العامل الصغير بجانب رجل يبدو خبيرًا في كرة القدم، يرتدي بذلة غير مناسبة لمقاسه، وعلى شعره المفروق على جنب دهان واضح، ويبدو أنَّه في طفولته كان من صبية الخطوط الجانبية.

«هل أنت رجل علبة الروزس؟ أنا نائب المدير، أيُّ خدمة يا أستاذ؟»

«اشتريت علبة الروزس هذه، أو اشترتها أمِّي بالأحرى هدية للناس الطيبين في المستشفى لنكتشف أنَّ صلاحيتها منتهية منذ أكثر من سنة. كان يمكن أن تتعرَّض الممرَّضات والمرضى - وبعضهم يعاني أصلًا من مشكلات في المعدة والهضم - لمشكلات لا توصف بسبب لحظة كرم أخطأت، ولا ذنب لي في هذا، وقد أضيف أنَّه لا ذنب لأُمِّي أيضًا».

تدخّلت المرأة ذات السترة المشغولة يدويًا «وأنا اشتريت منكم خبرًا ذات مرّة ووجدته متعفّنًا حينما فتحتّه في البيت».

قالت رامية الجلّة «وأنا اشتريت منكم عبوة من علب البيرة وحينما فتحتها وجدت علبة ناقصة» فجاء مثالها منحرفًا قليلًا عن الهدف.

قال نائب المدير «أنت متأكّد أنك اشتريتها من هنا؟ هل لديك الإيصال؟»

قال هنجري بول «طبعًا متأكّد، أمّي تشتري منكم منذ سنين. لا تذهب إلى مكان آخر نهائيًا. ولو أنّك تريد الدليل، فبوسعنا تقديمه في المحكمة» فجاء كلامه وسط لحن من إطراقات التأييد من كلّ من حوله. وكانت مجموعة صغيرة من الفضوليين قد بدأت تتكوّن، وبعضهم بلغ من الإعلان عن السخط بتعبيرات الوجوه حدًا بعيدًا.

قال نائب المدير «وهل أكلت بالفعل أيًا من الحلوى؟ هل مذاقها سيّء؟ أقصد أنّ بعض هذه الأشياء تكون جيّدة أحيانًا حتّى بعد تجاوز تواريخها، كما تعلم، فقد تكون التواريخ أقرب إلى الإرشاديّة في بعض الحالات».

قال هنجري بول ببلاغة لا داعي لها «تقول ذقتها؟ تحيّل لو كنت فعلت. لكنّك أتلوّى على أرضيّة هامّي، محمومًا، أشدّ يدي على حافّة المرحاض متشبّثًا في الحياة العزيزة».

أخذت حلقة المتفرّجين تضيق، بينما بدأ هنجري بول يتناول نقاطه موجّهًا خطابه إليهم مباشرة، مبرزًا مهارات سياسيّة جديدة. كانت المرأة ذات السترة المشغولة يدويًا تطرق متواصلة بعينيها مع عامّة الحاضرين، متولّيّة دور الشاهد الرئيسي في المشهد.

قال نائب المدير «هل تسمح لي بتذوّق واحدة، لأرى فقط إن كانت جيّدة؟»

قال هنجري بول وقد استشعر أنَّ الحلَّ بات وشيكًا «على الرحب والسعة».

تناول نائب المدير العلبة. والتفت هنجري بول إلى الحاضرين متهينًا لردِّ الفعل.

كان نائب المدير يتوقَّع أن يرى علبة حلوى لا بأس بها نهائيًا، وصالحة تمامًا للأكل، لكنَّه كان مخطئًا.

وهنجري بول كان يتوقَّع أن يرى حلوى طريَّة فاسدة، لكنَّه أيضًا كان مخطئًا.

والحاضرون كانوا يتوقَّعون نهاية للموقف وحلًّا للمشكلة، وهو بالطبع ما حصلوا عليه.

اقتلع نائب المدير الغطاء فأخذ يتزحزح ببطء عن الحافة.

ومن الداخل، بدا واضحًا للجميع أنَّ العلبة مترعة حتَّى حافَّتْها، لا بالشوكولاتة سواء في قَمَّة الكمال أو قاع التدهور أو في أيِّ مرحلة بينهما، بل بأدوات الخياطة الخاصَّة بهيلين.

أطلقت رامية الجُلَّة ضحكة ناهقة انصبَّ من جرَّائها رذاذ اللعاب على سترة هنجري بول.

وتعالت قهقهات أخرى، ولكنَّ أغلب من في الحشد انفَضُّوا في عجل منصرفين عن هنجري بول الذي ضيَّع وقتهم جميعًا. وتخلَّت عنه السيِّدة ذات السترة المشغولة يدويًّا في تراجع فوري عَمَّا قالته للتو، وهي مهارة تبرع فيها كلُّ غازلة.

وطوال لحظة بدت كأنَّها الأبد، وقف هنجري بول ساكنًا، ينتابه شعور

غريب بأنّه منفصل عن جسده.

قال نائب المدير بنبل «حسن، يبدو أنّها غلطة حدثت بحسن نيّة». في الظروف الطبيعيّة، ربّما كان ليشعر بالزهو لكشفه خدعة تافهة. لكنّ الامتقاع الذي بدا على وجه هنجري بول، والجمود الذي اعتراه، وتحرك شفّتيه في بطاء دونها صوت، كلّ ذلك دلّله على أنّه أمام رجل في لحظة كوميديا سوداء.

قال نائب المدير في مرح «ما من ضغينة. بل سعيد أنّه لم يقع أيّ أذى. وبالمناسبة، لم لا تأخذ إلى البيت إحدى بيضات عيد الفصح؟ بادرة حسن نيّة من المحلّ. خذ بيضة أزرار الشوكولاتة هذه. أرجو أن نراك هنا مرّة أخرى». وإثر ذلك اختفى نائب المدير عبر الباب البلاستيكي الغريب.

هنالك وقف هنجري بول وحيداً أشدّ ما تكون الوحدة تحت أنبوب الإضاءة المرتعش، ممسكاً بيضة أزرار عيد الفصح وعلبة أدوات الخياطة، بينما استأنف العامل الصغير طعن الغلاف البلاستيكي بقلمه.

لا يتذكّر هنجري بول الكثير ممّا قاله بعد ذلك، وكيف غادر المتجر، وكيف تراءى له حلم طريقه في مسيره الطويل إلى البيت.

وفيما وصل إلى البيت، تاركاً بيضة الفصح والعلبة ومفاتيحه بجوار البريد على طاولة الطرقة، وانسلّ إلى الغرفة الخلفيّة حيث كانت هيلين - بعدما انتهت من عمل جذور شعرها - قد وضعت بنطال بذلته على ظهر مقعد. «كيف الحال يا حبيبي؟ كيف مضت الأمور في المستشفى؟»

أجاب في خنوع «لم يتيسّر لي الذهاب إلى المستشفى في النهاية. سأمرّ عليهم في العطلة الأسبوعيّة».

«أوه، أوكيه. لا تنس أن تصطحب الحلوى. آسفة أنّي خرجت دون أن أخبرك بمكانها، لكنني كنت قد سقت حتّى منتصف المسافة إلى الحلاق قبل

أن أدرك أنني وضعتها في صندوق السيارة».

«لا تشغلي نفسك. ربّما هذا أفضل».

قالت هيلين «كنت على وشك أن أثني بنطال البذلة التي ستحضر بها الزفاف، لكنني لم أجد علبة الخياطة».

«هي على طاولة الطرقة».

«عظيم. لعلّي عبرت بها ولم أرها. بارك الله في نظرك».

هوى هنجري بول جالسًا في الغرفة وبقي فيها أغلب المساء، متخشبًا من الفشل، مطلقًا من الشباك على السيارة إثر السيارة تدهس فردة قفاز على الطريق.

## الفصل العاشر

### ملء العطلة الأسبوعية

في صباح السبت من ذلك الأسبوع استيقظ جسد جريس وفقاً لموعده في أيام العمل. فقد اعتاد الاستيقاظ مبكراً حتى لو أنه بحاجة إلى الراحة وحتى لو أرادته جريس أن يترك الخدمة ويرجع لينام الدقائق التسع الفاصلة بين رنات المنبه. كانت قد خرجت للشراب مع زملاء العمل في الليلة السابقة، وبرغم أنها لم تطل السهر بالخارج، فقد فاتها العشاء ونامت جائعة، ناسية أن تتصل بأنندرو في فندقه بأمر استرداد مثلما وعدته من قبل. وفي الصباح لم تجد على هاتفها مكالمات فائتة.

نهضت ببطء ومضت في أرجاء البيت تفتح جميع الستائر والشبابيك، تدخل النور، وتطرد الهواء الراكد، وتعيد المكان بعامّة إلى الحياة بعد أن خلا من العيش تقريباً طوال ساعات أسبوع طوال.

بعدما نزلت إلى الطابق السفلي بالبيجامة، حاملة جوع اليوم السابق إلى المطبخ، ملقية نظرة طويلة صريحة إلى الأرفف وقد استنفدت من فرط الإهمال. ولما كانت غير قادرة أو مهية لخدش عزلتها الدافئة، فقد قرّرت عدم الخروج إلى المحالّ، وبدلاً من ذلك جلست إلى مائدة المطبخ تتناول إفطاراً مرتجلاً من الشاي (بعد نفاذ القهوة) وحبوب ويتابكس (بعد نفاذ الحبوب بالفواكه) والخبز المقرمش (بعد نفاذ كعكات البيجل)، وهي تقرأ الأخبار على الهاتف.

كان صباحًا مشمسًا ناصعًا، والطقس الحسن يأتي مشفوعًا بضغط ناجم عن ضرورة استغلاله. كانت جريس لتؤثر عليه حقًا يومًا غائبًا. يومًا للتليفزيون. يومًا للطفو من لا شيء إلى لا شيء. كان الاتصال بأندرو لم يزل يخيم عليها، وكذلك ثقل إحساسها بالذنب بسبب عدم حماسها للاتصال. مع اقتراب الزفاف، بدأت تشعر بضغط لأن تكون في حالة حب، ولأن تبدو وهي تكلمه في حالة حب. ولقد كانت تحبه بالطبع، لكن كل ما كانت تريده هو أن ترجع بالحب إلى أن يكون شيئًا عاديًا، يوميًا، طبيعيًا، بدلًا من حب ديزني الذي شعرت أن العروس ملزمة بإظهاره أمام العالم. والحقيقة أنها كانت تريد فقط أن يرجع إلى البيت ليقاسمها خطة إفطارها البديلة في صمت ويتركها جالسة هناك تشاهد فيلمًا تافهًا بينما هو مشغول في شيء ما في الخلفية. وذلك ما كانت تحبه فيه بحق، قدرته على إهمالها وتركها وشأنها إلى أن تكون مستعدة لاحتوائه، وعندها، وعندها فقط، يكون بوسعها أن تثرثر وتضحك وتتكاسل بوصفها نصفًا من ثنائي.

للمرة الأولى منذ أسابيع، كان مربع اليوم في التقويم خاليًا من أي خطط أو ترتيبات. لم يسنح لها الوقت لكي تخطط لأي شيء، وكانت في السر تتطلع إلى عطلة أسبوعية هادئة، فلمًا بلغتها الآن، بدا أنها تتشاءب في وجهها، وإذا بالسلسلة العفوية التي تمتتها تتحول إلى القلق القديم السافر. كان البيت بحاجة إلى ترتيب، لكنها تعبت كثيرًا في العمل طوال الأسبوع. شعرت أن جسمها بحاجة إلى الجري أو العوم، لكن الكسل يسيطر عليها فتكافح لكي تتحرك على السرعة الأولى. راقَت لها فكرة الركون إلى فيلم تافه أو كتاب، لكنها تفتقر إلى التركيز وجميع الخيارات تشعرها بالضجر. ولم تشعر بأدنى رغبة في ارتياد المعارض، أو السينما، أو أسواق المزارعين أو أي نشاط اجتماعي في الهواء الطلق مما شهدته المدينة في تلك العطلة الأسبوعية.



في الماضي كانت لتجلس وتقرأ في سلام على سجادة صالة بارلي فيو بينما يصبح أبوها وهنجري بول على أحدهما الآخر من الطابق العلوي والسفلي، وكل يسأل عن مكان هذا الغرض المنزلي أو ذاك، أو يخبّر موضع بأعلى صوت لديه. وبعد أن تكتفي من سماع الصراخ، تصيح أمها بالموضع الصحيح وهي في الحديقة مشغولة بالعمل الذي تحبّه. فما أشدّ حنين جريس إلى أن تكون الشخص الهادئ الوحيد في بيت صاخب.

بعثت رسالة سريعة إلى أندرو تعتذر عن عدم الاتصال وقالت إنّه سوف تخرج وستتصل به في وقت لاحق. مع قبلتين. وتوقيع بالحرف الأول «ج». ثم جلست على الأريكة وأخذت تنتزع الجلد الميت عن مفصل إصبع قدمها الصغير الذي كان يفتنها قبّحه. علا طنين هاتفها ووصلت رسالة قصيرة من أندرو:

آسف. لا أستطيع أن أتكلّم. أنا في جولة بمتحف للجبن. ضمن الترفيه المصاحب. وهذا ما يكون من أمري في غيابك. قبلتان. أ

ضحكت ضحكة ارتياح خافتة. لقد قرأ أندرو، ونفذ إلى رسالتها وفهم احتياجها إلى مقدّم أتعاب عاطفي بسيط. ولما حققت أولى ابتسامات اليوم، نقرت قطعة الجلد الميتة التي انتزعها فطارت إلى المدفأة واتصلت بأُمّها التي قالت إنّها بالطبع سوف تتصل لاحقاً بعد رجوعها من زيارة المستشفى. وما كادت خطّة توضع، حتّى بدا أنّ ساعات اليوم الطوال قد تقلّصت، فتناولت جريس قائمة مهمات الزفاف وعثرت على بداية في مسيرة المليون مهمّة ومهمّة ممّا يغرق فيها عقلها.

\*\*\*

أنهت هيلين المكالمة ونادت من جديد هنجري بول وهي في الطابق السفلي

قائلة إنَّ عليه أن يسرع. لم يكن هنجري بول يقدر على التنسيق بين الردِّ عليها وارتداء ثيابه في الوقت نفسه، فأوقف إغلاق أزرار بنطاله الجينز، بعدما أعاد بالفعل بدء المهمَّة حينما تبَيَّن له من المطابقة بين الأزرار والعرى أنَّ زراً باقي بلا عروة. كانت هيلين قد بدأت تلاحظ أنَّه يفتر تجاه فكرة زيارة المستشفى منذ وصوله إلى البيت في المساء السابق دون أن ينجز مهمَّة الروزس. لم ترغب في ترك فاصل كبير قبل الزيارة التالية فلا يلهمه ذلك إلَّا بأعذار. ومن ناحيته هو، وكما يحدث معه في أكثر الحالات، لم يدم إحباط واقعة علبة الروزس بعد نوم ليلة بل إنَّه صار قادراً على رؤية الجانب الطريف في الغلطة، وإن لم يكن إلى حدِّ إحساسه بأنَّه مستعد لأن يحكي النادرة لأُمَّه فتضاف إلى مكتبة الفلكلور العائلي التي تَلَقَّى فيها تجاربه الماضية شيئاً من التضخيم.

خرج الاثنان معاً في سيَّارة هيلين الفيات بونتو الصغيرة. وقد درج هنجري بول على عادة غريبة بأن يركب في المقعد الخلفي، وراء هيلين، وإن خلت العربَّة إلَّا منهما، حتى لو بدا بذلك مثل دكتاتور من العالم الثالث وهيلين سائقته الخاصة. لم يكن يحبُّ السرعة، والجلوسُ في المقعد الأماميَّ كان يذكرُّه بأنَّ جسميهما يندفعان في الهواء بأقصى سرعة. كما كان يحبُّ أن يفتح نافذة العربَّة مهما يكن الطقس. كان في طفولته يحار دائماً في السبب الذي يجعل عدَّائي المسافات الطويلة في ما يبدو لا تنقطع أنفاسهم مطلقاً، ويتساءل كم من الهواء يحتاجه المرء ليكمل الماراثون على أيِّ حال - مؤكِّد أنَّه أجولة فوق أجولة. ولَمَّا سأل أباه في ذلك، اقترح عليه أن يرى كم من الهواء يستطيع أن يستوعبه خلال رحلات السيَّارة الطويلة، وهي طريقة خلاقة لإسكات صبيٍّ صغير لأطول وقت ممكن. كان يحلو لهيلين أن تثثر وهي تسوق، ولكنَّها مع هنجري بول دأبت على تركه للطريق يستمتع بالهواء دونها مقاطعات من جانبها.

لما وصلا إلى المستشفى أبلغا الممرضة المناوبة وسلّمها هنجري بول علبة  
الروزس، موضّحاً أنّها للممرّضات لا للمرضى. شكرته الممرضة على طيبته  
ووضعت العلبة في خزانة ملفّات خاوية، موضّحة أن بنات العنبر يحاولن  
تجنّب الحلوى ليضبطن قوامهنّ خلال الصيام الكبير.

كان العنبر الذي مضى إليه ممتلئاً بأشخاص لم يبد عليهم المرض كثيراً،  
باستثناء أنّهم جميعاً كنّ نساء كبيرات مرتديات البيجامات. قالت لها المريضة  
الأولى التي اقتربوا منها «ابتعدا عني» مستعملة لغة دارجة، وقالت إنّها في  
غنى عن أن تلمسها «عاهرة متديّنة»، فقد تصوّرت خطأ أنّ هيلين قسيس  
جاء لمناولة الراغبات في المناولة.

السيدة الثانية كانت نائمة وقد غرس في ذراعها أنبوب، وهي شاحبة  
البشرة، شعرها الأبيض الناحل أشبه بحشو بطانيّة من الريش. رفعت  
هيلين الكلمات المتقاطعة المفتوحة على حجر المرأة، وأغلقت القلم ووضعت  
ذلك كلّهُ على خزانة بجوارها تحمل العديد من البطاقات ورسوم أطفال.  
واستملحت أن يكون لدى هذه السيدة المريضة الهشّة من يعتنون بها.

كانت السيّدة الثالثة تراسل عبر هاتفها وترتدي نظّارة حمراء تتخذ كلّ  
من عدستها شكل شبه منحرف، أمّا بيجامتها فمن حرير ورديّ ذي رسوم  
لبلاشين ومعابد بوذيّة.

قالت المرأة «أهلاً بكما، هل جئتما لاصطحابي للأشعة؟ كنت أتصوّر أنّ  
هذا لن يحدث حتّى المساء؟»

قالت هيلين «لا في الحقيقة، نحن متطوّعان، نأتي لزيارة من يحلو له أن  
يثرثر. هل تحبّين أن نجلس قليلاً؟»

«طبعاً. استريحاً» وقالت موجهة كلامها إلى هنجري بول «لا يوجد غير

كرسيّ واحد، فعليك أن تجلس على السرير إن شئت يا حبيبي» فجلس بجوار قدميها العاريتين بأصابعهما الشبيهة بجذور شجرة.

«ألستم جميعًا طيّين حقًا إذ تزورون المرضى المحبوسين هنا؟ عظيم أن يوجد أمثالكم في العالم. أبنائي كبروا، ربّما في مثل سنّه» وأشارت إلى هنجري بول «لكنّهم كلّهم ذهبوا بعيدًا: لندن، سيدني، وأحدهم لم يزل يسافر، لا يعرف بعد ما الذي يريد أن يفعله. تصلني رسائل عبر المحمول، وسكايب، هجرة أبنائي أدخلتني القرن الحادي والعشرين، لكن ليس ذلك كأن يكونوا هنا على مقربة منك» وسألت هيلين «وأنت عندك أبناء؟»

«عندي فعلاً. ومن حسن حظّي أنّهما لا يزالان قريبين. هذه العيّنة الشابة الطيبة ابني» لوّح هنجري بول فور تقديمه «وعندي ابنة ستتزوَّج في عيد الفصح. وعلى فكرة اسمي هيلين».

«سعيدة بمقابلتك. أنا باربرا، أو بار، لكن ليس بابس أو باربي من فضلك. زواج في عيد الفصح؟ لم أكن أعرف أنّهم يسمحون بذلك. في الكنيسة أعني، ولكن من الذي يتزوَّج في الكنيسة في هذه الأيام؟ لعلّها تقيمه في فندق لطيف أو شيء من هذا القبيل. المكان على أيّ حال ليس مهمًّا، ما دام أحدهما يحبُّ الآخر».

قالت هيلين «الحقيقة أنّ الزفاف سيكون في كنيسة، برغم أنّ جريس ليست متديّنة، فلا أعرف لماذا يتكبّدان هذه المشقّة. سيكون الزفاف في اثنين الفصح، ولا بأس بهذا كما يقولون. قد يقدّمون لنا بيض الفصح مع الطعام. ولكن دعك منّا: كم مضى عليك من الوقت هنا يا باربرا؟». كذلك كانت هيلين تتبع القاعدة الذهبية بأن تسأل المريضة عن نفسها.

قالت باربرا «أوه، دعيني أتذكّر، منذ يوم الأربعاء، وعليّ أن أبقى ليوم

آخر بعد إجراء الأشعة، أي اليوم في ما أرجو. لا يعني هذا كثيرًا، لكن ظهري يتقرّح في السرير، والسيدات هنا يحبن مشاهدة التلفزيون بصوت عالٍ، وهذا في الحقيقة ليس ذوقي. أحاول أن أنهض وأمشي، إلى المحلّ أو إلى حديقة الحواس<sup>(1)</sup>، لكن اليوم يمضي بطيئًا. كنت طول عمري أشتهي وقت فراغ أقرأ فيه الكتب وأسترخي وحسب، فلمّا جاء الوقت إذا بي لا أطمئنُ إلى السكون. ولكنّه لا يتكلّم كثيرًا، ابنك هذا، أليس كذلك؟»

قالت هيلين «ولكنك مستمع جيّد، صح؟» وأومات برأسها إلى الجنب كمن تقول لهنجري بول «هيا، انطق».

قال «نظّارتك جميلة، أهي أصليّة؟»

قالت «أوه، هذه النظّارة، اشتريتها من كليّة البصريّات، ينفّذون هناك أيّ شكل تريده وتكلفتها شذرة من السعر المعتاد. صمّمتها بنفسي. أردت أن أبدو معماريّة، لكنّي أظنّ أنّي أكبر سنًا وبدانة من أن أنجح، على الواحدة أن تكون شديدة النحول ترتدي قميص بولو أسود من أجل شيء كهذا».

قالت هيلين «لا بدّ أنّ لديك خططًا لطيفة لما ستفعلينه بعد خروجك من هنا، ربّما تمنحين نفسك ليلة في فندق لطيف أو تذهبين إلى متجر أو شيء مثل ذلك». وكانت هيلين تستعرض بذلك خبرتها إذ تحاول أن تجعل المريضة تضع خططًا، وتنظر إلى الأمام.

قالت باربرا «لم أعد أحبّ الفنادق كثيرًا منذ وفاة زوجي، وذلك حدث منذ خمس سنين، يا إلهي!، السنوات طارت. لكنّ الفنادق للشنّائيات في الحقيقة. لا معنى لنومك وحدك في سرير كبير أنيق. لكنني ربّما أتسوّق قليلًا.

---

(1) [sensory garden] حديقة الحواس حديقة فيها مجموعة نباتات تخاطب كلّ منها حاسة

وجودي هنا خلال الأيام القليلة الماضية جعلني أدرك أن جميع بيجماتي وأغراضي في حالة رثّة.

قالت هيلين «هذه لطيفة. شكلها صيني».

قال هنجري بول الذي يعاني في العادة ممّا يشبه نضوب الكتاب كلّما تعلق الأمر بالثرثرة العابرة «يعجبني البلشون».

«توم هو الذي أعطاني إيّاها. زوجي. كنّا في اليابان في ذلك الوقت وقد ضجر من رؤيتي أرتدي بيجماته، فاشتري لي هذه. شكلها يعجبني، لكنّها خفيفة للغاية وتظلّ تنزلق، ولا أريد أن أتسبّب في أزمة قلبيةّ للمحملين الشيوخ في الطرقات».

سألته هيلين «ما أعمار أبنائك؟»

«ليندا أكبرهم، عمرها خمسة وثلاثون وهي في أستراليا. طبيبة بيطريّة ومتزوجة برجل يدير عملاً خاصّاً، يضبط الصوت في الحفلات ومثل ذلك. ذهبت إلى هناك وزرتها. بيتهما ضخّم لكنني لا أظنّ أنّ في أستراليا مشكلة مساحات. جويس عمرها اثنان وثلاثون وهي في لندن، تعمل في بنك، لكنّه بنك لم تسمعي به. جويس عاملة مجدّة طول عمرها. أمّا بن فيجب العالم، بلغ الثلاثين للتوّ. لم يكن قد سافر إلى أيّ مكان غريب، ولكن حدثت له فجوة دراسيّة لمدة سنة، فسافر، ولما رجع أصحابه لم يرجع هو. أظنّ أنّه التقى بفتاة، ولو أنّه لا يخبرني بشيء. أنت محظوظة بوجود ابنك على مقربة منك. أكره ذهابهم جميعاً هكذا ولكنك تعرفين الشباب، يريدون جميعاً السفر، ولا يمكنك إيقافهم. فيم يعمل ابنك؟»

قال هنجري بول متحدّثاً عن نفسه «أنا ساعي بريد. ساعي بريد عارض. أعوّض تغيب المرضى، وما شابه هذا».

«آه، هذا لطيف. الكثير من الهواء المنعش، والقليل في ما أرجو من الكلاب».

«في حال وجود كلب خطير في الحديقة نكتب على المظروف كلب ضخم ونعيده إلى المركز. المشكلة الحقيقية في كلاب الشارع التي يحلو لها مطاردة الدراجة».

سألته باربرا «وماذا تفعل معها؟»

قال هنجري بول «أسرع بالدراجة» فضحكت، ولو أنه لم يقصد المزاح. «وابنتي جريس تعمل في شركة أمريكية كبيرة، ولكننا نعرف بنسبة لا شيء في المئة ما طبيعة عملها. شرحت لنا أطناناً من المرات، هو عمل يتعلق بأجهزة الكمبيوتر، لكنها لا تعمل على الأجهزة نفسها، الموضوع فيه خدمات وإدارة مشاريع. المهم أننا كلما دعوناها تأتي متأخرة أو تقتحمها اتصالات هاتفية. تعودنا على ذلك، لكنني أعتقد أنها تعمل بجد أكثر من اللازم. هذه الشركات تنتظر من الموظف أن يعطي كل شيء لعمله».

سألتها باربرا «وزوجك ألا يزال سليماً معافى؟» قالت هيلين وقد استشعرت شيئاً من الحساسية في السؤال «نعم، الحمد لله. متقاعد حالياً. اسمه بيتر».

«عظيم أن تتقاعداً معاً. أنا وتوم كانت عندنا أطنان من الخطط، ولكن الحياة لا تعرف الوعود. ما تعلمته هو أن لكل من في حياتك رقماً خفياً على بهته، يمثل الرقم عدد المرات التي سوف ترينه فيها مرة أخرى. قد يكون الرقم صفراً أو واحداً، أو يكون ألفاً، لكنه يبقى رقماً. وقتنا مع الناس ليس له حدود. ولا أقول هذا بمرارة. هو درس لنا كي نقدر الناس إذ نستطيع ذلك. كي لا نهمل الناس. لا تتصوراً أن بوسعكم تعويض الوقت لاحقاً.

أوحشني وحشة رهيبة، لكننا كنا دائماً نخصّص وقتاً لأحدنا الآخر. سافرنا. ذهبنا إلى أماكن. قضينا الكثير والكثير من الوقت نطالع وجه أحدنا الآخر، وبرغم أنّه لا يمرُّ عليّ يوم لا أفتقده فيه، فإنّني أعرف أنّني استغللت وقتي معه أمثل استغلالاً».

قالت هيلين «أتفق معك تماماً يا باربرا. هل يوجد ما يمكننا فعله لك قبل أن نذهب؟ الوقت أوشك أن ينفد وسوف نضطرُّ إلى أن نذهب ونتركك».

«لا شيء على الإطلاق، شكرًا يا هيلين. منتهى الطيبة منكما أن جئتما. أرجو أن أكون قد رجعت إلى المنزل عندما تأتيان مرّة أخرى، لكنني سعيدة أن التقيت بك» وقالت لهنجري بول وهي تغمز «وسعيدة أن التقيت بك أنت أيضًا أيُّها الشاب. ابذل ما في وسعك لإبعاد الفتيات كي تعتني بأملّك».

قال «النساء عادة يحترمن احتياجي إلى البعد دون أن أذكرهن بذلك».

لاحظت هيلين أنّ سيّدة الكلمات المتقاطعة في السرير الثاني قد استيقظت وأنّ طفلين صغيرين يصعدان إلى الكرسيّ الموضوع بجوارها، ويعطيانهما تقارير صاخبة سريعة عن مستجدّات حياتيهما، بينما يضبط أبواهما الوسائد ويخليان الطاولة الجانبية ممّا عليها من زحام.

وفيا يغادران الغرفة، صاحت السيّدة الأولى على هيلين قائلة «عاهرة متديّنة».

حينما رجعا إلى البيت، كانت جريس هناك بالفعل، مستلقية على الأريكة مسندة رأسها إلى حجر بيتير، فهي بنت أبيها.

قالت جريس إذ يدخل هنجري بول ويقبّلها على خدّها «مرحبًا، كيف جرت الأمور؟ أرجو أن يكون اليوم قد مرَّ بلا وفيات؟»



قال «لا، لا يسمحون لنا بالاقتراب إلا من السلييات. لم يكن الأمر شديد  
السوء».

قالت هيلين «كان ممتازًا. أعتقد أنَّ الكبار يحبُّونك. أنت مستمع جيّد،  
وأنتما الاثنان ماذا تفعلان بكسلكما هنا هكذا؟»

«أساعد أبي في خطبة الزفاف. أقول له كلَّ شيء عن خصالي الرائعة،  
وعيوب أندرو العميقة العميقة. ولو أنَّني أخشى من خطورة بعض المواضع،  
وأنتما أدري بخفة دم بابا».

قال بيتر متحصِّنًا بدفاعه الوحيد «سأكون جليلاً كعادتي».

للمرَّة الأولى منذ أحقاب، قضى الأربعة المساء معاً، في جلوس وثرثرة  
وطبخ. تناولوا عشاء فيه العديد من الأصناف، قبل أن يجلسوا لمشاهدة «يوم  
الندم»، وهي الحلقة الأخيرة في مسلسل المفتش مورس المفضَّلة لدى كلِّ من  
جريس وهيلين والتي شاهدتها معاً مرَّات ومرَّات على مدار السنين.

في نهاية الليلة، وبرغم أنَّ الوقت لم يكن تأخَّر كثيرًا وبيتها لم يكن بعيدًا  
لللغاية، قرَّرت جريس المبيت مع الأسرة والنوم في غرفتها القديمة. وهناك،  
مرتدية بيجامة اقترضتها من أمها، اتصلت بأندرو، فرحت بسماعها صوته  
وهي تهمس وتضحك من سرير طفولتها، أوَّل سرير فرديٍّ تنام فيه منذ  
سنين.

## الفصل الحادي عشر

### شيلي

صحيحٌ في حقِّ ليونارد، بقدر ما هو صحيح في حقِّنا جميعًا، أنَّ بوسعنا أن نخطِّط ونحسب كيف نشاء، ولكن الحبَّ لا يدخل حياتنا وفق ما نختار له من شروط.

قضى ليونارد الأسبوع كلَّه في التأهب. كان قد اشترى ثيابا للمرَّة الثانية في أسبوع واحد، وبرغم التذبذب الذي يصاحب استهلال منتصف العمر وما يستتبعه من حالة البين بين - حيث يبدو المرء أكبر من أن يتبسط في ما يرتديه من ثياب، وأصغر من أن يرتدي ثيابًا رسميّة في النهار - فقد تمكَّن من تحديث خزانة ثيابه، وإن اشترى في النهاية نسخًا مختلفة من السترة والجينز نفسيهما. وفي حين أنَّ هيئته لم تكن لتبرز بوصفها هيئة شخص مغامر أو مثير، فإنَّه على أقلِّ تقدير سيستفيد من الثقة التي تنبع من معرفة أنَّ قوى الطبيعة بصفة عامة تقف في جانب من يجربون شيئًا جديدًا. على مدار الإجازة الأسبوعيَّة استعرض نطاقًا من افتتاحيات الحديث واستبق الأحداث إلى الردود المحتملة من شيلي وطبيعة التعليقات العرضيَّة الطريفة التي قد يرد بها فتلقى قبولًا حسنًا، مع حرص على ألا يبدو متحاذقًا سخيًّا أو رجلًا أبلته الدنيا. كان معجبًا بإيجابيّتها وطاقتها وأراد أن يجرب ويباريها في ذلك.

حينما وصل إلى مبنى عمله في صباح الاثنين، توجَّه إلى الحمام لينظر إلى نفسه مختبرًا للمرَّة الأخيرة تعبير الوجه الصحيح قبل أن ينزل إلى الحلبة. أراد

أن ينثر الماء على وجهه، لكنّه أخطأ وانتهى إلى اغتراف الماء ورميه على صدره كأنّه طفل صغير. ولمّا لم يجد خيارات أخرى متاحة له، فقد جثا على ركبتيه محاولاً تخفيف صدره تحت مجفّف الأيدي ثم قرّر أن يعرّض وجهه للهواء الساخن وهو يهزّ رأسه برفق من جانب إلى جانب، ناسياً أين هو. ولمّا توقّف المجفّف إذا بشاب واقف بجواره، ملتج، مرتدّ النصف العلوي من بيجامة مشجّرة، منتظراً لكي يجفّف يديه، وقد أصبح ما بين ساقيه في مستوى عيني ليونارد.

ضغط ليونارد زرّ المصعد بيد لم تزل مبلولة. ومع انفتاح الباب، رأى شيلى في الركن الخلفيّ، ترتدي خوذة قيادة الدراجة محاطة بأربعة أشخاص في ساعة ذروة استعمال المصعد. لوّح لها بيده مبلولة بدت كأنّها غارقة في العرق، وخطأ داخلاً المصعد. فردّت تلويحته بابتسامة كأنّها تقول «أليس هذا شيئاً غريباً؟». ظلّ الباب يحاول أن ينغلق، ويمنعه ازدحام المصعد، فانصبّت العيون جميعها عليه كي يرجع. حاول في البداية أن يرغم المصعد بالضغط على زرّ إغلاق الباب، فلم يستجب المصعد. وكلّمها رفض الباب الانغلاق، كرّر الركاب هزّاً أكتافهم. وفي تلك اللحظة، دون كلّ لحظات الزمن، تحتمّ أن يرنّ هاتف ليونارد ليفضح كونه الشخص الأخير في العالم الذي لم يزل يستعمل رنة «الضفدع المجنون»<sup>(1)</sup> التي اعتزم تغييرها منذ أحقاب لكنّه لم يجد وقتاً لذلك. حاول في البداية أن يتجاهلها، لكن بدا أنّها مستمرة إلى الأبد. وبدلاً من اللجوء إلى البريد الصوتي، بقي المتصل يحاول مرّة تلو الأخرى. وانتهى المأزق بصوت مكتوم من رجل بدا أنّ كتف ليونارد يسدّ فمه، قال «ألن تردّ على هذا الاتصال؟»

قال ليونارد وهو يخرج من المصعد «أوه، فعلاً، أهذا أنا؟ عن إذنكم لحظة

(1) يمكن الاستماع إليها من خلال البحث في الانترنت على Crazy Frog

يا رفاق» وكأنَّ من في المصعد سوف يفتقدونه. حاولت شيلي أن تلوّح له لكنَّ ذراعيها كانتا محشورتين. ولما خرج، انغلق الباب بيسر، ليحسم حسماً نهائياً سبب المشكلة كلّها.

ردّ على الهاتف قاتلاً رنة الضفدع المجنون السخيفة المتسارعة.

قال هنجري بول «ليونارد، مرحباً، هذا أنا. خمن ماذا حدث».

قال ليونارد بنقمة لم ينجح في كتبها إلاّ لما «ماذا حدث؟»

«اجتزت المسابقة. عبارتي الختامية وصلت إلى القائمة القصيرة في مسابقة الغرفة التجارية. وعليّ أن أذهب إلى حفل توزيع جوائز وكلّ شيء. أليس هذا أمراً مثيراً؟ كنت على وشك أن أبدأ نوبتي حينما جاء ساعي البريد إليّ وطلب منّي التوقيع على خطاب مسجّل باسمي. لم أفر بشيء طيلة عمري. رجعت إلى البيت مباشرة لأخبرهم وفكّرت أن أتصل بك قبل أن أراجع لمواصلة طريقي».

خبا ضيق ليونارد حينما رأى هنجري بول وقد فكّر أن يجعله ضمن أوّل من يعرفون بالخبر. لو أنّ لما بينهما من محبة مقياساً، فهو حماس كلّ منهما في إبلاغ الآخر بالأخبار السعيدة وثقته في حسن نوايا الآخر تجاهه. قال ليونارد «هذا خبر عظيم يا صديق العمر. أنا فرحان لك. هل يمكن أن نحضر توزيع الجوائز؟»

«لا أرى ما يمنع. يمكن أن نرتدي بذلتي الزفاف. أعرف أنّك مشغول في العمل، لذلك لن أطيل. حظاً سعيداً اليوم مع فانتك».

«أوكيه. نتكلّم لاحقاً. بالمناسبة، ما العبارة التي شاركت بها؟»

«آه، سيكون عليك أن تحضر حفل توزيع الجوائز لتعرف. سأترك الإعلان الكبير حتّى ذلك الحين».

صعد ليونارد السلم إلى طابقه، ليجد نفسه في النهاية مقطوع الأنفاس. ففي حين كان الآخرون يقضون أمسياتهم في الجيم أو التدريب المنزلي، كان هو يقضيها في ألعاب الرقعة فظهر أثر هذا في نقص لياقته العامّة. عندما رجع إلى مكتبه وجد ورقة ملصقة على شاشته، مكتوبة بأجل خطّ يدوي مائل «أحتاج إلى أيّ نصيحة حرائق؟»

تجاهل سخطه العام من وضع أيّ شيء لاصق على الشاشات التي تعمل باللمس، وانتزع القصاصة اللاصقة في أمل، ووضعها في القسم الخلفي من محفظته الذي يحتفظ فيه بإيصالاته. حاول أن يصل ببصره إلى طاولتها، لكن حجبها عنه قسم مؤقت يستعمل كلوحة اجتماعيّة وكمعرض للتحذير من طباعة أيّ مادّة لا لزوم لها.

نقر بأصابعه على طاولته. أكانت هذه هي؟ أكانت هي اللحظة؟ أكانت إشارة، أم دعوة، أم أنّ كلّ ما في الأمر هو أنّها تلقت رسالة بشأن طلبه المزعوم المتعلّق بأمن الحرائق فهي تتحقّق منه شأن أيّ مراقبة حرائق حيّة الضمير؟ غاصت أحشاؤه كأنّها مصعد يهوي في بئر، واندفع الأدرينالين من غدده كأنّه الضفدع المجنون، وظلّ يقول لنفسه، افعل شيئاً، افعل شيئاً، افعل شيئاً. لا يمكن أن يسير إلى طاولتها مرّة أخرى، أم ترى يمكن؟ قد تظنّ زميلاتها فيه الظنون لو ظلّ يعاود الظهور بتلك الطريقة. ماذا لو أطلق إنذار الحريق، أهى فكرة عظيمة أم بشعة؟ وهل من غرامة تفرض على من يطلقه عابثاً، كمن يشدّ مكابح قطار؟ أم أنّ ذلك لن يثير فيها إلّا الغضب عليه؟ ماذا لو تسكّع عند لوحة الإشعارات، موحياً أنّه شخص ذو جدول اجتماعي ممتلئ ويودّ أن يأخذ فكرة عمّا يمكن طبخه للشهر التالي؟

هنالك كان صراعه الدائم. ففي الحالات النادرة التي بدأ فيها - على مدار السنين - الارتباط بفتاة، لم يكن يعرف كيف يشب متجاوزاً الهوة الفاصلة

بين الرجل اللطيف والرجل الرومانسي المبادر. وطالما ارتاع من احتمال أن يفسد الأمر كله فيبدو شبيهاً بشهوانيٍّ ليس تودُّه إلا قناعاً يخفي وحشاً شبقاً مترصداً. كانت نقطة ضعفه هي أنّه لم يكن بطبعه قناصاً، فدأب على إهدار جميع أنصاف الفرص وإفلاتها من يديه. وبالنسبة إلى رجل طالما عابه التردّد حيال أبسط الأمور - حتّى ليخرج من سينيلكس لعجزه عن الاختيار بين ثلاثة أفلام يريد مشاهدتها جميعاً - كان اتخاذ القرار بشأن خطوته الرومنتيكيّة التالية صراعاً هومريّاً. تمخّضت كلّ خططه واستعداداته عن لا شيء. وشأن رأس حربة تنضب مهارته في يوم نهائيّ الكأس، أو لاعب تنس يرتكب خطأ مزدوجاً وهو على أعتاب أول جراندي سلام، تجمّد ليونارد أمام الضغط الذي استشعره لكي يفعل شيئاً.

ولكن ثمة حقيقة مهضومة في ما يتعلق بكتّاب الموسوعات، فلعلّهم لم ينقذوا قطّ ماموساً من حفرة قطران أو يقودوا قطاراً حديثاً يكسر أرقام السرعة القياسية، لكن من المستحيل ألاّ يقعوا تحت تأثير الجسارة التي يرسمونها في عملهم كلّ يوم. فتح ليونارد الكمبيوتر، لكنّه بدلاً من إدخال كلمة المرور الصحيحة (وهي H1L30nard6!) أدخل ثلاث كلمات مرور عشوائية خاطئة فمنع نفسه من الدخول. وعلى الفور رفع السّاعة واتصل بموظف مكتب الخدمات، جريج، الجالس في الجهة المقابلة من المكتب، على بعد نبتي يوكة من غرفة شيلي الرابعة.

«مرحباً يا جريج، أنا ليونارد».

«ليوني الحبوب. لين الضحك. لين الذي متى أراك يا غائباً عني. أي خدمة؟»

«منعت نفسي من الدخول. هل بوسعك أن تدخلني؟ يمكن أن أمرّ عليك لو أنّ ذلك أسهل؟»

«لا داعي يا رجل، أستطيع أن أفعلها من هنا».

لكن ليونارد سارع وأغلق الخطّ، وترك طاولته وأصبح في طريقه إلى جريج قبل أن تتسنى للأخير إضافة كلمة. وعند وصوله، حيّا في مودّة شيلي التي كانت على الهاتف، ومن واسع الرحمة أنّها كانت وحدها في الحجرة المخصّصة لأربعة.

«مرحبا يا جريج، رأيت الأفضل أن آتي إليك. عليّ ضغوط لا أكثر. عليّ وعلى أصابعي البدينة. أحتاج فقط إلى إعادة ضبط كلمة المرور. شكراً. أعرف أنّك مشغول».

كان جريج في معرض دهن رغيف باجيت بالزبد، وقد انتهى للتوّ من فتح علبة تونة يعتزم إفراغها فيه. لم تكن الساعة قد بلغت أصلاً التاسعة صباحاً.

قال جريج الذي لا يقوى على إكمال جملة واحدة طبيعيّة «حاضر ناضر، هي دقيقة، ضع حمولك واسترح يا زميل».

أشار ليونارد إلى طاولة خاوية في حجرة شيلي وعلى وجهه تعبير «ممكّن؟». فأشارت شيلي بعلامة «تمام» بإصبعها. أنهت مكالمتها قائلة «لا مشكلة. طبعاً. سيتصل بك المشرف ظهر اليوم».

سأل ليونارد «زبون سعيد آخر؟»

«عندما يصل إلّي الناس يكونون قد غضبوا بالفعل واستاءوا. فأنا أحتلّ مرحلة ليس بأيدينا شيء، لذلك لا أملك إلّا أن أمنحهم جلسة نفسيّة قوامها الإنصات. لكن دعك من هذا، بلغني أنّك آمنت بجدوى تعليمات السلامة في الحرائق، مرحباً بك».

«أوه، تقصدين استفساري منذ بضعة أيام. ولا حاجة». لم يكن ليونارد قد

فكّر من قبل أن يستعمل تعبيرًا كذلك. قال في خجل «الأمر أن درجة حرارة شاحن هاتفي ترتفع إذا تركته مفتوحًا ولا أريد أن أتسبّب في إزعاجك أو إزعاج أحد من المشرفين طبعًا».

«ألم يكن جوجول يعمل يومها؟»

ارتجل قائلاً «جربت البحث فعلاً لكنني أردت أن أتأكد من أن شيئاً لم يغيب عني من قواعد الشركة بهذا الخصوص. وإلخ، إلخ».

«يمكنني القول، وهذا رأيي المهني كمراقبة حرائق، لا تترك الشاحن في القابس بالليل، فهذا يضرّ بالبيئة».

«قطعاً، أنا أستعمل سلّة القمامة الخضراء طيلة الوقت. أحشوها دائماً بالورق» وأضاف مشيراً إلى تحذيرات لوحة الإشعارات «مع أنني أحاول أيضاً أن أقلّل الطباعة».

ضحكت شيلي ضحكة خافتة وقرّرت التوقّف عن مضايقته فقالت «أريد أن أطلب منك خدمة، في الحقيقة».

قال في نفسه، أيّ شيء، أيّ شيء.

سألها «فعلاً؟ أرجو ألا يكون أمراً فيه إزعاج لك؟»

«لا، إطلاقاً. هل يمكن أن توقّع هذه لي؟ هي من الكتب المفضّلة لما قبل النوم في بيتنا». وأخرجت بعض أجزاء موسوعة أطفال من سلسلة «معلومات عند أطراف أصابعي»، منسوبة كلّها إلى مارك باكستر، دبلومة التربية، وكتبها ليونارد من الباطن. أمسكت ثلاثة كتب عن الجسد الإنسانيّ، والطيور، وعواصم البلاد، كلّها مثنية أطراف الصفحات متغصّنة الكعوب من فرط القراءة وإعادة القراءة.



«بالطبع. لم يسبق أن طلب مني أحد توقيع كتاب. هذا أمر لطيف». أخذ يتصفّح الكتب للمرّة الأولى منذ صدورها. عندها حقّ، الكتب فعلاً جيّدة، مليئة بأوصاف وجيزة متقنة وحافلة بالحماسة.

«ما رأيك في صفقة؟ إذا وقّعت لك هذه الكتب، هل يمكن أن تفكّرني في مقابلتي لتناول الغداء في الحديقة اليوم، إذا لم تكن لديك خطط أخرى، وفي هذه الحالة لا بأس. أقصد، ما من إساءة، وطبعاً سأوقّع لك الكتب، لكن إذا لم تكوني مرتبطة بشيء وتحبّين ذلك فقد يكون الغداء لطيفاً، وإذا كان لا يناسبك اليوم فربّما في يوم آخر أو حتّى الأسبوع القادم، أو بعد عيد الفصح، أقصد أنّني سأعامل مع كلّ الأوضاع ببساطة. هذه دعوتي، لو ذهبنا إلى الحديقة يمكن أن نتناول سندوتش سريعاً، إلّا لو كنت تحضرين غداءك معك، سلاطة مثلاً أو شيء كهذا، كما تعلمين. ربّما، فكّرني في الأمر وأبلغيني بما يناسبك» وتمهّل ليونارد ليلتقط أنفاسه ويتأكّد من أنّه لن يظلّ يهذي هكذا إلى الأبد.

قالت شيلي «سيكون هذا لطيفاً. بالمصادفة لست مرتبطة اليوم بشيء، لكنّني يجب أن أنصرف بحلول الثانية إذا كان هذا ملائماً».

قال ليونارد «عظيم، بالطبع، في الوقت الذي يناسبك. عظيم، عظيم، عظيم» ولم يستطع أن يخفي ابتسامته بينما ينبعث في جسمه الارتياح. وفجأة سأل ليونارد متصنّعاً «أوه، والكتب. لمن ينبغي أن أهديها؟»، يريد أن يعرف منها هي الاسم الذي عرفه بالفعل.

قالت شيلي «إلى باتريك لو سمحت».

«إمم، أوكيه. باتريك إذن».

وفكّر، من باتريك هذا بحقّ الجحيم؟

«إنه ابني. عمره سبع سنوات. نقرأ كتبك طيلة الوقت. أو بالأحرى، هو يقرأها ثم يقرأها لي. لم يصدّق حينما أخبرته أنّ الرجل الذي كتبها يعمل معي في المكتب. بالمناسبة، قلت له إنّك مارك باكستر، دبلومة التربية، فلعلّ من الأفضل أن توقّعها باسمه».

قال ليونارد «صحيح» وهو لا يعرف ما الذي يجري.

«كنت أمزح، وقّعها باسمك طبعًا. يا إلهي! أليس شيئًا رهيبًا لو كنت جادة في طلبي منك أن تدّعي كونك ذلك المزور. بصراحة. واسمي شيلي بالمناسبة. وسعيدة بمقابلتك».

ومدّت يدها في إيماءة رسمية مازحة كأنّها تدعوه أن يقبلّها. وتردّد ليونارد غير متأكّد إن كانت تتوقّع منه بالفعل أن يقبلّها، وهو ما كان ليفعله، عن طيب خاطر، لكنّها ضحكت من جديد وسحبت يدها.

«أنا ليونارد. لا مارك. لا دبلومة تربية. فأظنّ أنّي سأوقّع بهذا فقط. دعينا نرى، ربّما الأفضل أن أوجّه رسالة قصيرة. دعيني أفكّر».

وقّع الكتب لباتريك وأعادها إليها.

«خذ كلمة مرورك الجديد، يا لينستر»، كذلك قال جريج وقد جاء ليعطي ليونارد ورقة لاصقة كتب عليها (M0nkeyc0ck!) <sup>(1)</sup>.

«أوكيه، شكرًا يا جريج. شكرًا يا شيلي. أراك في الواحدة. سامرٌ

---

(1) يبدو أن جريج لا يختار كلمات المرور ببراءة، فكلمة المرور الأولى لليونارد (H1L30nard6!) توشك أن تكون Hi Leonard أي (أهلا ليونارد) مع إضافة رقم 6 إلى ليونارد والرقم على الأرجح بديل لـ sex أي (جنس) أما الثانية (M0nkeyc0ck!) فتجمع بين كلمتي monkey (قرد) وcock (قضيّب)

لاصطحبك من هنا، تمام؟»

«بالطبع. الواحدة عند الحجيرة. شكرًا على التوقيع. سيفرح باتريك كثيرًا».

رجع ليونارد إلى طاولته وهوى جالسًا. لم يسبق له أن أحرز تقدّمًا كذلك في حياته الغرامية في مدى زمني قصير. استنزفه ذلك استنزافًا، فأثّى له أن يجد الطاقة للجولة الثانية على الغداء؟

وباتريك هذا؟ يعني، كان في باتريك تفسير لأنصاف الأيام والإسراع عند تمام الثانية ظهرًا. فتاة ولها ابن. لم نتفق على هذا! ماذا لو نجح الأمر؟ يمكن أن يتحوّل إلى أب في غضون أسابيع. أليست الوتيرة هكذا مسرعة للغاية؟ أكان الأب الحقيقي حاضرًا ولا يزال في المشهد؟ أكانت شيلي مهمّة به حقًا، أم أنّها تبحث عمّن يتقبّل باتريك ولا مزيد؟ يا لها من قفزة هائلة من كتابة الموسوعات إلى تربية طفل، دونما مراحل وسطى على الأقل. أوكيه، اهدأ يا عم ليونارد. ركّز على خطوتك الحالية. ابقَ في اللحظة.

مرّ ليونارد فاصطحب شيلي من طاولتها في تمام الواحدة، وعرض أن يحمل عنها أكياسها، فهي شأن كلّ من يذهبون إلى العمل بالدراجات تحمل الكثير للغاية من الأغراض، فضلًا عن مزيد من الركام أسفل طاولتها. حاول أن يفكر في مكان رائع يأخذان منه السندوتشات التي يمكن أن يأكلاها لاحقًا في الحديقة، مصطنعًا بالفعل أنّه شخص آخر، مختلف اختلافًا طفيفًا، كدأب الناس في الأيام الأولى. وقع اختياره على حانة حديثة تقدّم السندوتشات اسمها بايت مي!<sup>(1)</sup>، وأمامها صفٌّ طويل من الناس فيه العديد من الشباب الملتحين، لابسٍ أنصاف البيجامات العلوية، طالبي الوجبات النباتيّة.

(1) اقضمي - Bite Me!

قال ليونارد وقد نسي نفسه قليلاً «ما من نقص في النباتين، هذا واضح. لا عجب أن تلائمهم قياسات الجينز هذه. هل هذا الشخص يرتدي جينز نسائياً؟ يا إلهي!».

اكتفت شيلي بالابتسام.

وصلا إلى أول الصفِّ حيث فتاة اسمها كيوتي، ذات وشم على رقبتها، منتظرة لتسجيل طلبيهما.

قال ليونارد «دعيني أرى، سوف أطلب وليمة اللحم» وهي ببساطة عبارة عن حظيرة في رغيف، وإن يكن معها الحمُّص الحتمي. «وأنت ماذا تريدان يا شيلي؟ مثلي».

قالت واكرة ليونارد «شكراً. سأطلب الوجبة النباتية. ويجب أن أعترف أيضاً أن الجينز الذي ارتديه نسائي، عسى أن يكون هذا مقبولاً؟»  
اعتذر ليونارد عن جلافته في حقَّ النباتين.

«لم أقصد بكلامي أيَّ شيء. هل يضايقك أن أكل اللحم؟»

قالت «لا بأس. لست حسَّاسة تجاه هذه الأمور. لماذا لا نذهب لنعثر على أريكة ويطرح أحدهنا على الآخر أطناناً من الأسئلة الشخصية المتطفلة».  
قال «أرجو ألا تكون شديدة التطفل. سأبدأ بأنني أتمنَّى لو كانت لديَّ أسرار فأفضي بها».

ثرثرا في الطريق فأبلى ليونارد بلاء حسناً. أفضى خرقه الأوليَّ إلى بعض المزاح، وراق له أن يلعب دور الرجل المباشر في مقابل مزاحها الهزلي الذي بدأ يفهمه. عثرا على أريكة صغيرة قرب بركة البطِّ، وإن لم يعثرا فيها على بطِّ، لكنَّهما شاهدا بضع دجاجات مائية وطائري تمَّ نائمين.

قالت «أتريد قضمة؟»

«لا شكرًا. ولا أظنّ من المنطقي أن أدعوك إلى قضمة من طعامي». «فعلًا».

«مع أن كلّ الحيوانات في هذا السندوتش نباتيّة، أو كانت نباتيّة، أي أنّنا في منطقة وسطى في ما أفترض؟».

«جميل أن عرفت أنّه يخلو من آكلات اللحم. ما من أسود أو نمور» ونظرت شيلي إلى طيور البركة. «هل نلقي إليها بعض الخبز أو اللفافة أو أي شيء؟».

«خير لها ألا نفعل. هذا الطعام ليس مغذيًا ولن يفيدها».

«طبعًا. لا بدّ أن أتذكّر أنّك السيد موسوعة. لعلّك تستطيع أن تخبرني عن مواطنها الأصليّة وحجم بيضها وكلّ شيء. هيّا. قل شيئًا لم أسمعه من قبل» وكانت تشعر فعلًا بالإثارة.

«دعيني أفكّر. ماذا عن أنّها في الحقيقة تفضّل حبّات البازلاء المجمّدة بعد تدويرها؟»

ضحكت أو صاحت «أوه، عندي فعلًا من هذه. في كيسي. الحقيقة هي مزيج من الخضراوات المجمّدة. اشتريتها في طريقي إلى العمل لأطهوها في البيت. ماذا لو ألقينا البعض؟» ومدّت يدها في الكيس تقلّب محتوياته قليلًا، مستخرجة منه بعض الأشياء لتعثر على الخضراوات: حليب الماعز، برجر دورن النباتي، زبادي الصويا، عدس أخضر.

«إذا أحببت. لكن ماذا عن عشائك؟»

«لا تشغل بالك. باتريك يكره الخضراوات. سيفرح بالسجق مع

وقاما إلى البركة وشرعا ينثران الطعام. لم يكن الجزر قد ذاب تمامًا فغاص، أمّا البازلّاء والذرة فطففت والتقطتها الطيور. وظهر ميل شيلي إلى الإنصاف في ضبطها لرمياتها حتّى يصل الطعام إلى الطيور الأقل شراسة. وبعدما فرغ الكيس، للممته في قبضتها وسألت ليونارد مباشرة وهي تناوله كعكة: «والآن هل هذا غذاء فقط أم تعارف أم ماذا؟»

«لا أعرف ماذا يمكن أن تطلقي عليه. لكنني يقينًا أحبُّ أن أتعرف إليك. أقصد إن لم يكن لديك مانع. فأنا لا أكتب موسوعة عنك أو أيّ شيء. ولن تجديني أنقب بحثًا عن المعلومات. أنا سعيد أيضًا بإطعام الخضراوات للطيور، أو الخروج وحسب».

أخذنا يسيران ويثرثران، مزيلين حدة سؤالها. أخبرها بمبلغه من العمر، وبنشأته على مقربة، وبكونه ابنًا وحيدًا، وأخيرًا أخبرها بما بدا تفصيلاً ملائمة لإيضاح ما وصلت إليه حياته في تلك اللحظة، أي أنّ أمّه توفيت قبل أسابيع قليلة.

«أوه، أنا آسفة جدًّا يا ليونارد».

تلك هي المرّة الأولى التي نطقت فيها اسمه.

«لا بدّ أنّك لم تزل في حداد. هذا أمر محزن حقًا. لا بدّ أنّك تفتقدها كثيرًا». تلك كانت المرّة الأولى التي يجري فيها ليونارد حوارًا في ذلك الأمر كلّه. وإجراؤه ذلك الحديث في موعده الأوّل مع فتاة أعجبتة كثيرًا إمّا نذير شرّ أو بشرى خير.

«طبعًا أفتقدها. جدًّا». وبدا له غريبًا أنّه لم يستطع تناول الأمر ببساطة.

تولّت شيلي زمام الحديث «شوف. أنا في السابعة والعشرين، في الطريق إلى الثامنة والعشرين. لا أحبّ وظيفتي، أو زبائني، لكنني أحبّ الذين أعمل معهم. التحقت بكلية الفنون ولم أكملها. عندي ابن، باتريك، عمره سبع سنين. لك الحق أن تندesh من هذا. يمكن القول إنه ليس (ضخماً). ضخامته مقبولة، وشعره محمّر، عيناه خضراوان، ويرتدي نظارة حرب النجوم. وهو مثلما يقول عن نفسه: كبير الخيال كبير القلب. وهذا أصدق شيء سمعته. والده ليس في الصورة - لنتهي من هذا الأمر. أرجو أن أرجع يوماً إلى كلية الفنون، لكن في الوقت الراهن لم أزل أرسّم للمتعة، ولو أن موهبتي تجمّدت عند حدّ ثابت. أحبّ الموسيقى الصاخبة لكنني أحبّ أن تكون مصحوبة بكلمات جيّدة. لا يشترط أن تكون كلمات ذكيّة، يكفي أن يكون فيها روح».

بدت الساعة الممتدة حتّى الثانية التي تتحوّل عندها - على حدّ تعبيرها - إلى يقطينة، وكأنّها أقصر ساعة في حياة ليونارد. جعللا يثرثران ويثرثران حتّى ١١ - إن لم يكن مخطئاً - أنّ شيئاً ما قد بدأ بينهما. بدا حديثهما - وإن افترقا إلى النعومة - يرتدّ من النغمات البطيئة ليعثر بسهولة على إيقاعه. لم يشبكا الذراعين، أو اليدين، لكن بدا أنّهما يسيران متقاربين للغاية فيتماسّ مرفقاهما مرّات عدة دونها ارتباك. حمل هو كيسها، وبدت هي الأكثر ثقة بينهما. ومع مضيّ الوقت، ونفاده، لم يتخلّ ليونارد فقط عن خططه وحيله، لكنّه نسيها أصلاً. سار معها راجعين إلى درّاجتها والوقت يقترب من الثانية.

قالت «والآن».

«والآن، آن، آن» هكذا مضى ليونارد يغنيّ وقد راق مزاجه، غير مدرك قريباً أنّه يباري حسّ شيلي الكوميديّ، وقد بات إضحاكها الآن أحبّ الأشياء إليه.

«والآن أيها السيّد موسوعة، لا بدّ أن أذهب».

قال دونما تحسّب «نعم، بالطبع. كيف كان الأمر في نظرك؟»

ضحكت وخرجت من أنفها فقاعة صغيرة غطّتها على الفور بيدها ذات القفاز.

«آه. هذا كلاسيكيّ» وتنهّدت تنهيدة تنهي بها الضحك. «كان لطيفاً للغاية، شكرًا لك».

دوره.

«جميل. هل يمكن إذن أن نلتقي مرّة ثانية. على الغداء أو شيء ما؟»

«آه من الرجال. مشغولون دائماً بوليمة اللحم التالية. ليست لديّ ارتباطات في أيام الخميس، فيمكن أن نتقابل مساء لو أنّ هذا ما قصدته».

«عظيم. عظيم. فقط لم أكن أعرف ترتيباتك بخصوص ابنك وما إلى ذلك. هذا عظيم. نعم، ليست لديّ ارتباطات الخميس» ولا في أيّ ليلة في الحقيقة. «ما رأيك أن أقابلك في البلدة عند برج الساعة قرابة، ماذا، الثامنة؟»

«آه برج الساعة. أيّها الرومانتيكي القديم. أوكيه. أراك حينها. سأدع لك اختيار ما نفعله. وأرى إن كان بوسعك أن تعصف برأسي بشيء ما».

«تمام. أوكيه. سأفعل» وغمغم عقله، إممم. «أراك هناك إذن».

هل كان ينبغي أن يحاول تقييلها، ولو قبله خاطفة على الخدّ، أم ماذا؟ أم ماذا يفعل؟ ماذا يفعل؟ ماذا يفعل؟

انحنى عليها في خرق وهي ترتدي الخوذة وعانقها عناقاً عذريّاً من الجنب تقريباً، عانق كتفها.



«واو يا كازانوفا. خفّ حركات الجودو هذه. إليك الطريقة» وقبّلتها على  
خدّه قبله تعليميّة. وتلك كانت طريقة لطيفة للإقرار بما خنّته كلاهما، وهو  
أنّها أعلم منه بما هما فيه.

رنّت له جرس درّاجتها رنّتين وهي تنطلق.

وقف ليونارد في مكانه يتنفس بعمق، ملوّحاً لها إثر تلويحها له إلى أن  
ابتلعها الزحام. وقال بصوت مسموع «يا عمّ يا عمّ». يا عمّ يا عمّ.

\*\*\*

حينما رجعت شيلي إلى البيت قرأت ما كتبه ليونارد في الموسوعة التي  
وقّعها:

عزيزي باتريك

كلّ ما في هذا الكتاب حقيقيّ. العالم مدهش فعلاً إلى هذا الحدّ. احكِ  
لوالدتك كلّ شيء عنه.

نحياتي

ليونارد

(الرجل الذي كتب فعلاً كلمات هذه الكتب)

مكتبة

t.me/soramnqraa

## الفصل الثاني عشر

### جريس تحب أندي

لم تسر الأمور على النحو الذي كانت جريس قد ارتجته. كان موعد وصول طائرة ليونارد هو قرابة الثامنة مساء وكانت هي قد خطّطت للحصول على نصف يوم إجازة والاسترخاء بحمام هادئ، وبعد ذلك قد تضع عطرًا جديدًا أو ترتدي قرطاً ثم تطبخ عشاء خفيفًا لطيفًا. كانت قد اشترت من قبل كتاب طبخ يابانيّ في الكريسماش لم تجربّه بعد، وراودتها فكرة طبخ شيء على شرف رحلتها المعتزّمة إلى كيوتو في شهر العسل ووسط موسم الإزهار. كانا قد حجزا لقضاء أسبوع هناك، فضلًا عن إجازة لأسبوعين إضافيين سيخططان لهما كيفما يتفق. كان الوقت السابق على الزفاف مزدحمًا للغاية وأكثر ما تآقت إليه هو أن تقضي وقتًا مقصورًا لها مع أندرو، بعدما تعبنا كثيرًا في العمل طوال شهور، ولأنّ تخصيص إجازة مدتها ثلاثة أسابيع للزفاف لم يُبقِ من وقت يذكر خلال بقية العام. وباستثناء أيام الكريسماش القليلة وعطلتين أسبوعيتين طويلتين - استنفدتها جميعًا أعراس الأصدقاء - لم يقضيا معًا بالفعل إلّا أيام السبت والأحد. وفي ظلّ جدول رحلات أندرو - أي الزيارات القصيرة إلى مراكز أوربا الماليّة إمّا لإلقاء عروض الباوربوينت أو حضورها - لم تكن العطلات الأسبوعيّة في الغالب إلّا وقتًا لالتقاط الأنفاس والتعافي. كان يقضي أغلب صباحات أيام السبت نائمًا، مرتبك الجسم بسبب التنقّل من منطقة زمنيّة شرقيّة، ثم منطقة زمنيّة غربيّة، تاركًا لجريس أن تنعم بتناول وجبات إفطار فرديّة أو بالخروج للجري.

ولم يكن التوافق الزمني بينهما يبدأ إلا بحلول وقت الغداء في أيام السبت فيشرعان في عطلتها الأسبوعية بدءًا بذلك.

وفيما كانت تخطّط لعودة أندرو من آخر رحلاته في ما قبل الزفاف - وتلك الرحلة بمثابة العلامة الرسمية لاستهلال المنعطف الأخير قبل حياتهما الزوجية - بدأت الأمور تختلّ في العمل، كدأبها كلّما خطّطت للانصراف مبكّرة من هناك. وقع سوء فهم أدّى إلى خلل الأرقام في أحد الطلبات، فجُنّ جنون موظفي الخدمات اللوجستية في الولايات المتحدة، وتحتمّ على جريس أن تنتظر إلى أن يسمح لها فارق التوقيت بردهم إلى صوابهم، وإيضاح أن الأرقام تراكمية، ويجب التعامل معها على هذا الأساس، وإن لم يبد هذا صحيحًا. استغرقت المكالمات متعدّدة الأطراف وقتًا أطول من المتوقّع في ظلّ اتفاق الجميع على أنّهم بحاجة إلى بعض التفكير. ولما كان أصحاب القرار غائبين عن المكالمات، فقد تحتمّ على جريس أن تنقذ الوقت الضائع من جميع الأطراف بقولها إنّها سوف تعدّ الأرقام مؤقتًا في صيغتين إلى حين اتخاذ قرار في الإطار الأعمّ. انتهت المكالمات بقولها «شكرًا لكم يا جماعة، ارجعوا الآن إلى تناول الإفطار»، وقد أدركت أنّ المكالمات أجهزت على خططها للاستحمام الذي ظلّت تمنّي نفسها به منذ أن أصرّت على أن يكون في بيتهما حوض للاستحمام وليس حمّامًا ذا صنوبر علويّ وحسب. وأخيرًا تركت العمل في منتصف الظهيرة، وقد تكبّدت نصف يوم ثمينًا من إجازتها، في حين بدت كمن ينعم بالانصراف مبكّرًا وغيرها لم يزل منكبًا على العمل.

شعرت بالإحباط من انهيار خططها، وليس من أجل أندرو وحسب. كانت الفكرة هي أن تسرع الوتيرة وتبثّ بعض الطاقة في استعدادات الزفاف المحبطة على نحو غريب. بعد أسابيع قليلة مزدحمة، كانت تتمنّى أن يشعرها مساء لطيف بأنّها مغرمة حاملة ملهوفة على الأمر الوشيك كلّ. فإذا

بها، بدلاً من ذلك، منهكة، وإذا صدرها ضائق بالتنظيم، ولا ترغب في شيء قدر رغبتها في حلول يوم الزفاف لتحوّل إلى عروس بعد طول العمل منظّمة أعراس.

كانت وظيفة جريس، بل حياتها المهنيّة كاملة، تقوم على تنظيم الأمور وتصويب أوضاع الناس، وكم كان ذلك سهلاً نسبياً. فقد كانت في العمل تنفصل انفصالاً تاماً. ومهما حسُن تخطيط مشاريعها ظلّت تتوقّع دائماً ظهور عثرات الطريق، وتقول إن الأزمات لو اختفت فلن يصير لديها ما تفعله. كان مهماً لها أن تبرع في عملها، تبرع إلى حدّ أن تعلو على الاحتياج إلى الشاء. ثم لما تعلّق الأمر بترتيبات الزفاف، وجدت نفسها تأتي بردود أفعال عنيفة وتحتاج غضباً على أبسط الأمور. أحبطتها خيبة طابعي الدعوات وطهاة الكعك وبعض الأفراد من مورّدي لوازم الزفاف، ولامت نفسها على تصديق وعودهم الجادّة وخدماتهم اللطيفة. ثم جاءت الزيادة الصارخة في أسعار المتعهّدين والفنادق والفرق الموسيقيّة ومسؤولي الصوت، لتستنزف جميعها عصارة آمنيات الشنائي السعيد بيوم مميّز. وكان أكثر ما تفتقده حقاً هو تلك القوة الشرائيّة التي تجدها طوع بنائها في الشركة، والتهديد بالقوة التجاريّة التي تقف وراء نجاحاتها في العمل. ولو لم تعوزها الصراحة لقاتل إنّها أحبطت أيضاً وتأذّت من ترك أندرو أغلب الترتيبات عليها، بل جميعها تقريباً. صحيح أنّها أخبرته برغبتها في القيام بها، وصحيح أيضاً أنّها كانت لديها تصورات تامّة عن الكيفيّة التي تريد تنفيذها بها، وصحيح - ولا شك - أنّها لم ترده أن يخترع آراء ووجهات نظر ليست لديه حقاً لإرضائها وحسب، لكنّها كانت لتفرح به، وتقدر له، لو قاتل من أجل الحصول على دور في تنظيم الزفاف، دليلاً على أنّ التفاصيل بالنسبة إليه لا تقلّ تفرّداً عنها بالنسبة إليها. ولكن بدا وكأنّه قادم لحضور زفافها هي لا زفافها.

كانت جريس قد وعدت نفسها ألا تستسلم للتفكير في هذه الأمور وهي مرهقة، فذلك لم يكن يفضي إلى شيء إلا أن يجعلها سلبية، وتبحث سلبيتها عن متنفس وعن هدف، ولو لم تتحلّ بالحذر، لقابلت أندرو على باب الطائرة فأجهزت بمزيج من السلبية والعدوانية على آخر ما في المساء من حياة.

في طريق رجوعها من العمل، مرّت جريس ببضعة محالّ لتري إن كان بوسعها أن تشتري بسرعة قميصًا وجينزًا جديدين، أو أيّ شيء تحسّن به مزاجها. ولكنّ الزفاف كان قد غرس فيها انضباطًا اسبرطيًا، وجعل النقود عزيزة، فتوقّفت عن الإنفاق العفوي على شيء لا غاية منه إلا إدخال السرور على نفسها. رأت في أحد المتاجر الصغيرة المحببة لديها سترة جميلة القصص يماثل سعرها سعر كعكة الزفاف وحقيقية سعرها يقارب تكلفة تصفيف شعرها وتجميلها استعدادًا للزفاف. وبدلًا من ذلك كلّ، اشترت مجلة وبعض الفشار لتأكله في القطار وهي راجعة إلى البيت.

قرّرت جريس أن تذهب لاستقبال أندرو في المطار، تمامًا كما في أيام الكلية حين كان بيتر وهيلين يذهبان إلى المطار لاستقبالها بعد عودتها من العمل بعيدًا عن الديار طيلة الصيف، حاملين لافتة بسيطة منزلية الصنع مكتوبًا عليها اسمها بألوان فاقعة. وعند وصولها إلى البوابات وسط أصحابها كانت تشعر بحرج بالغ، وتحبّ، مع ذلك، أبويها كثيرًا لفعلهما ذلك.

في البيت، وقفت أسفل صنوبر الاستحمام لدقائق، وتحقّقت من هاتفها لتري إن كان أندرو قد بعث أيّ رسائل بشأن أيّ تأخير، فلم تجد غير واحدة قصيرة: على وشك الإقلاع، أراك قريبًا، قلة.

التقيا قبل ثلاث سنوات، في فصل لتعلّم كرة الريشة. كان مبتدئًا لكنّه التحق بفصل المتوسطين، على أساس أنّه «كم تبلغ درجة صعوبتها يعني؟» وهي سبق أن لعبت كرة الريشة في مراهقتها ويفترض أن تلتحق بفصل

المتقدمين لكنَّ مهاراتها صدمت بعد سنين من عدم الممارسة فقرَّرت تيسيرًا على نفسها الالتحاق بفصل المتوسّطين. سحقته خلال مباراة تدريبية مزح خلالها كثيرًا، ثمَّ سحقته خلال مباراة تدريبية بدا واضحًا فيها أنَّه حاول بجديَّة، فما كان لنخيره أن يباري تكتيكها، ولمَّا حدث في لحظة أن شرط وهو يحاول جاهدًا أن يشدَّ جسمه وصولًا إلى الكرة، أرجعها ذلك إلى المزاح وإلى الغرض الأسمى من اللعبة. ولم يكن من مفرٍّ من أن يدعوها إلى الخروج، ثم توقَّف الاثنان عن حضور دروس كرة الريشة، مستبدلين بذلك التردُّد على الحانات لتناول الشراب ومطارحة الغرام.

كانت لأندرو أسرة جيِّدة، ومدرسة جيِّدة، ومنطقة سكنية جيِّدة، ووظيفة جيِّدة، وأثارت تلك الأمور الإعجاب في نفس جريس - أو ربَّما «بعث الطمأنينة» إن تحرَّينا الدقة - برغم إرادتها. لم يكن ماديًّا بالضبط، لكنَّه كان بلا شكَّ يلعب على أن يعدَّ ناجحًا بقدرٍ يعلو به فوق الماديَّة. كانت جريس تنزع إلى إغاضته، لا عن براءة طيلة الوقت، فقد نشأ وسط أختين معتادًا على أن يكون موضع اعتناء لا سخرية. في بداية علاقتها، أصيبت جريس بالحمى الغدديَّة، فكان بوسع أندرو أن يتذرَّع بذلك السبب الوجيه حتَّى لا يلتصق بها، فإذا به بدلًا من ذلك يشتري لها بيجامة جديدة ويجلس ليقراها كتب المفتش مورس - أيَّام كان مورس يسوق سيَّارته اللانسيا - ويتجاهل رسائل أصدقائه عن السهرات التي تضيع عليه. ولمَّا حان الوقت الذي شفيت فيه جريس، كانت العلاقة بينهما قد نضجت وباتت حميميَّة وحقيقيَّة، لا لشيء إلَّا لطول جلوسهما معًا وحديث أحدهما إلى الآخر.

في بعض الأحيان كانت تتساءل لو أنَّ أندرو تقليديُّ أكثر قليلًا ممَّا يروق لها. لم يكن صاحب ذوق حقيقيٍّ في الموسيقى، وقراءاته تقتصر على السير الذاتية للرياضيين، ويستمتع بالحانات ومباريات الرجبي، وآراؤه في السياسة

لا ترقى إلى أكثر من إشاره من يرفعون جواربهم بطريقة في رفع جواربه. وفي أعماقها، كانت جريس لم تزل طالبة شيوعية تكتنز في نفسها جانباً ثورياً. كما كانت تعتزُّ بأنَّ لها ذوقاً: ألبومات لوري أندرسن التجريبية التي كانت أشدَّ ذكاء من أيِّ موسيقى يلعبها الصبية، وبورتريهات لوشين فرويد التي تبدو أقرب إلى شخوص مكتوبة، وأفلام ساتياجيت راي<sup>(1)</sup> الطويلة البطيئة التي تفطر قلبها ثم تملؤه، وخيارات السفر التي تجتنب الوجهات البديهة. وخطر لها أكثر من مرّة أنَّ أندرو أقرب كثيراً إلى رجل عاديٍّ من أن يكون احتمالاً بعيد المدى، فأبعدته عنها بضع مرّات في تلك الشهور الأولى، دافعة إياه تقريباً إلى الاعتراف بأنَّ ذوقيهما المتباينين نذير واضح. لكنَّ جريس، برغم هذه التحفّظات، أحبّت في أندرو أنَّه لم يكن بحاجة إلى اهتمام أو عناية. لم يكن معقداً أو مأزوماً، أو متعلّقاً بشيء أو معتمداً على شيء. حتّى جريس لم يكن يعتمد عليها. كانت تعلم أنَّه قادر أن يجد السعادة في حياته مهما آلت إليه الأمور بينهما، وذلك كان يشعرها بأنّها حرة. جذبها أيضاً أنَّها لم تكن تتحمّل أعباء إضافية في العلاقة، وأنَّ بوسعها أن تكون جزءاً منها وتظلّ تعتنى بنفسها.

في نظر أندرو، كانت جريس ببساطة تختلف عن أيِّ امرأة عرفها من قبل، أو أيِّ شخص. كان دائم السعي إلى الفتيات الكاملات اللاتي يتكلّمن ويبدون على يقين بأنَّ نيل فرص الحياة لا يعدو مسألة وقت. ثم التقى في جريس بشخص يرى إلى ما وراء كلّ ما في الحياة، لها من البصيرة ما يشنها عن إصدار الأحكام، ومن الذكاء ما يقوّمه الشكُّ، لا تضع يدها في شيء إلّا

(1) Laurie Anderson (1947 - ) موسيقية وسينائية وفنانة طليعية أمريكية، Lucian

Freud (1922-2011) رسام بريطاني، Satyajit Ray (1921-1992) سينائي هندي

عمل بالكتابة وكتابة السيناريو والإخراج.

وتكمله، دون أن يستنزفها شيء منه. أحبّ فيها أنّها تقرأ الكتب لا لتنتهي إلى رأي فيها بل لتعثر فيها على نفسها، وأنّ في عيشها للحياة إحساسًا بالعجلة، بأنّها في مهمّة، وأقوى الأسباب التي أدامت بينهما الحب أنّه كلّما كانت الأمور المهمة حقًّا هي القائمة على المحك، أي الأمور العميقة التي تديم العلاقة حقًّا وتدعمها، فإنّ قيمهما كانت تظهر متضافرة لا انفكاك لها. كان كلاهما يحبّ أباه، وكلاهما عاش طفولة سعيدة وإن لم تكن سعادة مباشرة بالضرورة. وكلاهما أراد تكوين أسرة. وكلاهما كان يثمن استقراره على أنّه لا بأس على الإطلاق في أن يكونا متحابّين وحميمين، بشرط أن يستبقي كلّ منهما لنفسه بعض الخصوصية، وحيّزًا مقدّسًا لنفسه كفرد في علاقة. ولم تدرك جريس كم هي بحاجة إلى ذلك حتّى عثرت عليه مع أندرو، وذلك كان حاله معها أيضًا.

كان لكلّ منهما تاريخ وسلسلة من العلاقات الأحاديّة، وإن لم يسبق لأحدهما أن عاش مقيمًا مع شركائه السابقين. وفي حين أنّ جريس سبق أن مرّت بغراميات المراهقة الشبيهة بالتمثيل الصامت، فإنّها لم تقم علاقة حقيقية إلّا في الكلية. وكثيرًا ما قالت إنّ ديفيد هو «أظرف» حبيب لها، كان يضحكها، ويضحك صديقاتها، ويسعى دائميًا، وبصورة عجيبة، إلى عمل شيء. كان يقيم بغرف في المعسكرات بكلّ ما يعنيه ذلك. لم تأخذه حقًّا على حمل الجدّ، فما الأمر إلّا أنّها كانا يمرحان معًا، على الطريقة التي يفترض أن يتبعها الشباب لكنّهم نادرًا ما يفعلون. وعلى مدار الفترة التي تواعدا فيها، لم تصفه تقريبًا بالحبيب. إلى أن انفصلا حينما سافر ليقضي سنة في الخارج. ولم يحدث إلّا حينما بدأت تعيش وحدها في ذلك الصيف الطويل أن أدركت كم تفتقده وإلى أيّ مدى باتت تجتهد لكي تحاكيه في سمته السلس، وإن شقّ عليها أن تعترف لنفسها بجديّة مشاعرهما. فلم يسمح لها طبعها التنافسيّ بأن



تعترف بأنّها كانت الطرف الجادّ في تلك العلاقة. وآخر ما سمعته عنه أنّه في الهند.

جان ميشيل كان حبيبها الثاني في الكلية، وفي ظاهر الأمر، مضت تخرج معه حفاظًا على سلامتها العقلية خلال الامتحانات النهائية، ثم انتهت وهي تخرج معه كلّ يوم فيسألها طيلة الوقت عمّا تفكر فيه وذلك ما كان يتساوى لديها بأن تغطس رأسها في الماء. لم تستطع أن تحمل نفسها على التخلص منه، لأسباب ليس أقلّها أنّها قدّرت أنّه سوف يزداد تشبُّبًا بها قرب النهاية، فما كان منها إلّا أن قرّرت معاملته ببرود فيتخلّص هو منها. فلم يدفعه ذلك إلّا إلى طلب مزيد من «الثروة» محاولًا أن يكون مستشارها النفسي في ذلك الوقت العصيب. وفي النهاية تقزّزت من نفسها، ومن قدرتها على أن تكون خلّاقة في البشاعة لدرجة أن تخونه خلال سكرهما في حفلة حضرها جميع أصدقائهما المشتركين. وعرض المسكين أن يساعدها وأن «يحلّ المسألة معًا». وأعقبت ذلك رسائل طويلة يقول فيها إنّهُ لم يكرهها وإنّه يرجو لها السعادة. وكان ذلك ليعدّ لطفًا منه لو كان يعنيه، لكن جريس - التي لم يكن ينقصها الشحّ أحيانًا حينما يتعلّق الأمر بالاعتراف لأحد بفضل - رأت في ذلك محض محاولة منه لخلق نهاية هوليوديّة. وآخر ما سمعته عنه أنّه في لندن ويبيّلي بلاء حسنًا.

جيف فطر قلبها حقًا. وبراعة. بضربة قاضية نظيفة، لا حاجة بعدها إلى مراجعة درجات الحكّام. ظلّا يخرجان معًا لما يزيد على عام من أعوام منتصف العشرينيات تلك التي يمكن أن يحدث فيها أيّ شيء، فالاثنان يكسبان جيّدًا وليس لديهما ما ينفقان نقودهما عليه إلّا نفسيهما. صارا يقضيان ليالي ملحمة خارج البيت في العطلات الأسبوعية، ملؤوا الشرب والسكر والجري إلى ما يعنّ لهما من بعده. وفي تلك المرحلة من حياتهما امتدّت دائرتهم الاجتماعية

امتدادًا إمبراطوريًا. وبرغم وظيفته في تلك الفترة، وهي وظيفة حقيقية يؤدّي فيها عملاً ما في مجال الاتصالات، فقد انخرط فعليًا في عالم موسيقى تحت الأرض وبدأ كمن يعرف كل من فيه. تلك هي المرّة الأولى التي عرفت فيها جريس شخصًا من فصيل مختلف اجتماعيًا تمام الاختلاف. فهو خبير الحشيش البارع في لفّ السجائر المحشوّّة، متهدّل الجفنين، الذي يخاطب الناس بـ «يا مان» فلا يبدو سخيًا في ذلك، والمبدع الذي يلعب الجيتار في ستة فرق تتعاون على إصدار موسيقاها. سافرا معًا، فقضيا إجازات في روما ولندن، وفي العطلة الأسبوعيّة الطويلة كانا يستأجران بيتًا على البحر مع حفنة من الرفاق فيتناقشون في السياسة وهم أشباه غائبين عن الوعي. وفي النهاية جاءت الخيانة جنسيّة محضة. كان يخونها بلا تحفّظ مع العديد من فتيات المشهد الموسيقي، قائلًا إنّ ذلك لا يعدو «بعض الأكّلان الجنسيّ». وجاءت النهاية فوريّة وحاسمة. كانت جريس لتفضّلها نهاية أخرى تنقلب هي فيها عليه وتدمّره في لحظة. لكنّها بدلًا من ذلك جعلت خروجها جبانًا، مستسلمًا، مذهولًا أمام سفور كلّ شيء. وهكذا تركت المشهد والزحام والطاقة وتلك الفترة كلّها من حياتها وراء ظهرها في ذلك المساء الذي ركبت فيه التاكسي كسيرة القلب راجعة إلى البيت. وكم طاردت كلماته أفكارها في شتّى أركان رأسها وهو يوضّح لها، ببساطة شبه أبويّة، أنّ الحبّ الذي استشعرته، وحسبت أنّه سوف ينمو حتّى يشمل الدنيا وما فيها، لم يكن غير عرض سخيّ على مسرح العرائس لا يصدق غيرها أنّه حقيقي. بكت في كلّ غرفة من بارلي فيو طوال أكثر من شهرين تعهّدتا خلالها هيلين بحنانٍ حساء الدجاج الأموميّ وتركها يبيت تنام في حجره ممسّدًا حاجبيها المتوتّرين المتحدّرين. وصار هنجري بول - هنجري بول العذب الجميل - يرافقها كلّ مساء في تمشيات ملحميّة، صامته يماثل إيقاعها إيقاع الأفكار.

بمرور الوقت تعافت جريس وانتكست وتعافت وهكذا، إلى أن استأنفت الحياة إيقاعها الطبيعي، وإن يكن على مستوى المتدئين. تحتم أن تتعلم كل شيء من جديد. لم تر جيف أو تكلّمه بعدها قط، وإن رسمت سيناريوهات لكل محادثة محتملة بينهما في المستقبل، من الترفع السماح إلى العدوان المماثل تمام المماثلة. ولم ينته ذلك كله إلى شيء. علمت بوفاته بعد سنتين من الواقعة، عبر فتاة كانت معه في فرقة. كان منتظراً في محطة حافلات حينما صعد سائق سكران إلى ممر المشاة بعدما غلبه النوم على المقود. ترك من ورائه حبيبة وولدين.

قد يكون صحيحاً بالفعل أن من يشاء أن يفتح قلباً بحق، فعليه أن يكسره أولاً. فالجرح الغائر من جرّاء فشلها مع جيف علّمها أهمّ ما تقوم عليه العلاقات. لقد وقعت جريس في خطأ منح حباً غير مشروط، متفانياً، عاشقاً، توهمت خطأ أنه الحب الحقيقي. لكنّها الآن عرفت وفهمت وأتقنت. فحتّى حينما تقلّصت وضوّلت إلى أقصى حدّ، بقي بوسعها أن تشعر بخفقان قلبها المحطّم خافتاً وثابتاً. فقد ظلّ يخفق حتّى في أشدّ أركان صدرها إظلاماً خلال أشدّ لحظات وحدتها وحشة. ولما علمت أنّ قلبها حيّ دائماً، دائماً، وأنّ الحياة لا تدبّ فيه فقط حينما تقع في الحبّ، اكتسبت المناعة اللازمة. بدا قلبها ذلك وكأنّه كنيسٌ نجا من قصف بالقنابل فصارت له بعدها مكانة قدسيّة.

بمرور الوقت قابلت جريس رجالاً آخرين ونعمت بشيء من العبث، لكنّها أحجمت عن الدخول في أيّ شيء قد يصحّ وصفه بالعلاقة. وليس ذلك لأنّها أوديت أو فقدت ثققتها في الرجال، فهي وإن مرّت بوقت عصيب، لم تعتنق قطّ فكرة التنصّل من ماضيها، وكلّ ما في الأمر أنّها تعلّمت أنّها شخص شديد الخصوصية له قلب شديد الخصوصية وعظيم الاحتمال، وأنّ بوسعها خوض أحلك الأوقات بمفردها والخروج سالمة منها. وباتت

أقلَّ اهتمامًا بمن لم تمتحنهم الأيام من الرجال مثلما امتحنتها. أولئك الرجال المصطعون الراغبون في قضاء الليل يكلمونها ويهرفون في أذنيها، بدوا صبية صغارًا في عينيها. وكذلك ارتبطت بمارك.

لم يكن مارك من الرجال المفضّلين لدى جريس. فهو حادّ الأعصاب، غريب الأطوار، لا يوافقها أسلوبه أو حسّه الفكاهي بالمرّة. وهو من أهل الكمبيوتر: انطوائي، محصور الاهتمامات والأصدقاء في نطاق ضيق. ولكنّه كان مثلها خارجًا من انفصال غير حياته، أحبّ فتاة من غير وسطه وخذلته، تخلّصت منه فور أن أدركت ذلك. قاتلة أخرى باردة الدم، قادرة على الخروج من علاقة سعيدة كأن لم تقم أصلًا. ولم تكن لمارك أسرة داعمة أو مخزون من المشاعر كالذي توافر لجريس، فما كان منه إلى أن تداوى بنفسه، معتمدًا على الخمر وكشوف الحساب الاتهاميّة المطوّلة. وكان له من الحكمة ما أوقفه عن ذلك قبل أن تخرب حياته خرابًا لا صلاح لها بعده، لكن ليس قبل أن يتراكم لديه سجلّ ضخم من الحكايات وتجارب المشاركة على الموت. جرت بينه وبين جريس حوارات علاجية مذهلة طالما امتدّت حتّى ساعات الصباح الأولى حين يغلبهما النوم معًا وهما يتكلّمان، وفي كامل ما عليهما من ثياب. كانا يعلمان، بالطبع، أنّ علاقتهما لن تدوم، فإن هي إلّا علاقة تدريبيّة قائمة مع تشغيل ضوابط السرعة، ومحكومة باتفاق غير معلن على أنّه لا ضرر ولا ضرار. وانتهت وديًا بتلقّي مارك عرضًا لعمل بحثي في روتردام وحثّ جريس له على ألا يهدر الفرصة. افترقا، افتراقًا كلاسيكيًا، في المطار، بحضن وقبلات خفيفة على الوجنات بدت أشبه بقبلات وداع أخت لأخيها الذاهب إلى المدرسة الداخليّة منها بقبلات وداع بين حبيبين. ولم يزل مارك هو الوحيد بين أحبائها السابقين الذي تتواصل معه بين الحين والحين، وإن يكن تواصلًا متقطّعًا. ولم يزل أعزب.

كان في أندرو دائماً شيء من الحياء إزاء ماضيه. وكان قد قال إنّ ما حدث بينه وبين حبيبته السابقات يستوجب قدرًا من الخصوصية مراعاة لهّن، لكنّ معرفة جريس به طالت حتّى ظهرت الصورة العامّة، وإن في شذرات، أمكنها أن تعيد رصّها، وإن لم تثبت من النتيجة النهائيّة من خلال أندرو. عرفت أنّه لوقت طويل اتخذ حبيبة في المدرسة الثانويّة، فتاة اسمها ريبيكا بدت أشبه بنسخة مؤنثة من أندرو، حتّى إنّها لو كانا في الولايات المتحدة لانتخبا ملكي الطلبة<sup>(1)</sup>. اختلفا حينها التحقا بجامعتين مختلفتين واكتشفا عالمين جديدين تمامًا. أحبّ في الكلية فتيات قليلات وإن بدا أنّ أغلبهنّ لم يكنّ إلّا مثلًا للفراغ بين ذراعيه، أو نساء يمكن أن يبيت معهنّ. في العشرينيات من عمره بدأ يستمتع بفترات عزوبة طويلة وإن تكرّر اسمان مرّات قليلة، واستخلصت منه بعض التفاصيل.

الأولى راشيل، وتبدو الفتاة الوحيدة التي خرج معها وأعجبته فعلاً، أو لعلّه أحبّها. راشيل كانت حبيبة سابقة لصديق له من الجامعة. وبدا أنّها ظلّت تخرج هي وأندرو لأكثر من سنة. لم تعرف جريس قطّ القصّة الكاملة لاقتراحهما وإن خمنت أنّ في الأمر خيانة من طرفه هو، اعتمادًا على حديثه الدائم باعتزاز عن تلك الفترة، مع التغاضي عن تفاصيل نهايتها، فغاية ما قد يقوله أنّه ارتكب بضعة أخطاء في تلك العلاقة أرغمته على أن يراجع نفسه.

العلاقة الأخرى كانت مع لوسي، وتلك في ما بدا هي المرّة الوحيدة التي صاحب فيها امرأة من عمله. والظاهر أنّها بدأت في حفلة كريسماس واستمرّت علاقة سكر وشهوانيّة. توصّلت جريس إلى انطباع بأنّها لم يزورا معًا الكثير من المتاحف ولم يقابل أحدهما أبوي الآخر، لكنّها تدربًا كثيرًا على

(1) تقام في نهاية السنة الدراسيّة حفلة راقصة للطلبة الكبار في المدارس الثانويّة ويُنخب فيها من بين الطلبة من يمنحون فخرياً لقب الملك والمملكة.

البراعة في الشيء الوحيد الذي لا تمنع المرأة في أن يبرع فيه زوجها المستقبلي. واستنفدت العلاقة نفسها، وتركت هي الشركة لو وظيفة أفضل في مكان آخر. وكانت لوسي هي المرأة الوحيدة في ماضي أندرو التي لم تشأ جريس مطلقاً أن يظل على تواصل معها.

خرجت جريس متجهة إلى المطار، ولأنها تأخرت في الخروج قليلاً فقد سافت بسرعة كبيرة، رافعة صوت الموسيقى في السيارة - شريط بروباجندا لفرقة سباركس<sup>(1)</sup> - فاتحة الشباك المجاور فاندفع الهواء عاصفاً على رأسها المهتاج، ومع أنها كانت ساعة ذروة، فقد حالفها الحظ ولم يعاندها المرور الذي تكدّس في الاتجاه المعاكس.

انتظرت مجيء أندرو في صالة الوصول وقد رفعت ورقة من قياس «آيه فور» كتبت عليها بطلاء الشفاه روبرت داوني الابن جاعلة منها لافتة مطارات مزورة، أو هي نكتة خاصة بهما عن نجمها السينمائي الأول الذي لا يشبه أندرو من قريب أو بعيد. وصلت جريس مبكرة ووقفت تستند على حاجز وإيه عديم النفع تتأمل الناس. كان المطار هادئاً، يدفع فيه الرجال المرتدون قمصان بولو حمراء مقاعد متحركة خاوية وينال المسافرون الدائمون رشات من العطور أو معطرات ما بعد الحلاقة في السوق الحرّة. اعتلى رجل أحد العروش الرفيعة وقد انتهى تلميع حذائه في منطقة تلميع الأحذية، وخطر لها أن هذه رفاهية لا ينالها إلا اللصوص. وفي متجر الحقائق كان بائع نعان يبعث رسائل عبر هاتفه، وقد بدا أنه ربّما أكثر من في المطار ضجرًا، وتساءلت جريس كم من الناس يصلون إلى المطار وثيابهم بين أذرعهم باحثين عن متجر يشترّون منه حقيبة.

(1) فريق Sparks فريق موسيقي أمريكي و Propaganda هو رابع شريط لهم.

طالما شعرت جريس في المطارات أنّها مخدّرة، وفي تلك المرّة بالذات فرحت بذلك الوقت الميّت ورأته فرصة سانحة لأن يحمد زخم يومها المهتاج ويطمئن. كان في جيبها هاتف محمول يعرض سلسلة من المكالمات الفائتة ورسائل البريد الإلكترونيّ الواردة، وشتّى رموز الأهميّة الزائفة والعجلة الكذّابة ونفاد الصبر. ضبّطت نفسها تمُدُّ يدها إليه، ويدها في العادة لا تألف الحمول، لكنّها لاحظت حركتها وقررت ألاّ تفقأ فقاعة الهدوء التي بدأت تستنيم إليها. وأخيراً خطأ أندرو عابراً باب الواصلين في سترته المجعّدة، وقد بدا منهكاً ووسيماً ونابت اللحية. وضعت جريس أصابعها في فمها وأطلقت صفيراً عاليّاً انفجرت على إثره في الضحك، فإذا بابتسامة تملأ وجه أندرو ودهشة من رؤيته لها، وقبل قول أيّ شيء، قضيا لحظة في أوّل قبلة لهما منذ دهور.

قالت «سعيدة برؤيتك يا مخمور الأنفاس».

«وأنا أيضاً. ما شربت غير زجاجة نبيذ صغيرة واحدة في الطائرة لتساعدني على النوم، وعلى فكرة، كان ورائي رجل ظلّ يضع ركبتيه في ظهر مقعدي لموال الوقت، شكراً على مجيئك لاصطحابي، مفاجئة جميلة» وقال مشيراً إلى اللافتة في يدها «ولو أنّك أخطئت في تهجئة اسمي».

«من حظّك أنّك وصلت أولاً. لو لم يتأخّر روبرت داووني الابن في التبضع من السوق الحرة لضاعت فرصتك».

«كيف حالك. اشتقت إلى رؤيتك إلى حدّ الموت، يا إلهي، أخيراً انزاحت من الطريق كلّ تلك الرحلات، لا أريد أن أرى النقاط والبنود والأرقام حتّى حياتي الأخرى. ما أجل أن تكون وجهة رحلتي القادمة هي كيوتو، ومع زوجتي!»

«هذا لو حالفك الحظ، أنا لم أوقع على أيّ قسيمة بعد».

ذهبا يبحثان عن السيّارة، منهمكين في أحاديث الشائيات السخيفة، متشابكي الأيدي على الطريقة التي ودّت جريس لو كانا يفعلانها كثيرًا. خرجا من موقف السيارات واختلط عليهما الطريق قليلًا بسبب التغيرات الجديدة، وأخيرًا سرقا سبيلًا إلى المخرج بالسير في مسار الحافلات، فوبّختهما حافلة بنفيرها.

توقّفًا عند مطعم ساكورا للوجبات اليابانيّة السريعة، وطلبا تشا هان ومكرونة أودون وسمكًا وتنبورا الخضراوات وبعض الساشيمي، أي الكثير حتّى لمعدتين خاويتين. واشترى كذلك بعض النبيذ والمقرمشات، وخطّطا لأمسية على الأريكة.

وعلى الأريكة وهما يأكلان قال أندرو «ذهبنا إلى مطعم في أمستردام بعد اجتماع من الاجتماعات الطويلة، للاسترخاء والنظر في ما تمّ. كانوا يقومون ببعض الأشغال في الطريق القريب من القناة ورأينا فأرًا يجري في المطعم على مرأى من الجميع. حينما قلت ذلك للنادلة قالت ببساطة «أوه، هي دائمًا تجري هكذا» ثمّ لوّحت بيدها بما يعني كبرّ دماغك ومضت عنيّ. ولم أصدّق نفسي. البقيّة لم يبالوا. كنت الوحيد الذي اضطرب وظللت طيلة الليل أدسّ طرفي بنطالي في جوربي. أقصد، هذا حال المطعم، فما بالك بالمطبخ؟»

قالت جريس وهي تحاول دون جدوى أن تصطاد من العلبة طرف خيط المكرونة بالعصوين فتستبدل بها شوكة «أوه، جسمي اقشعرّ. لو كنت مكانك ما قدرت. عليك أن تكتب عنهم مراجعة بشعة على الإنترنت».

«لا جدوى. هؤلاء قوم لا يبالون بالفئران، فماذا سيعنيهم من المراجعات؟»

«ومتحف الجبن بالمناسبة كيف كان؟ هل جئتني منه بشيء؟»



«للأسف لا، اتضح أنه صعب جدًا أن يختار الواحد جنبًا لامرأة. كنت أفضل في الحقيقة أن أتجول لمشاهدة جانب من أمستردام، لكن الجماعة ما كانوا يريدون إلا الشرب. لا أشعر أبدًا أنني في إجازة خلال تلك الرحلات». «فعلاً، عندك حق. دائمًا يتكلم الرجال عن صعوبة ومشقة رحلات العمل».

«أنا أتحوّل في السفر إلى راهب، لكنني أعرف ما تقصدينه. البعض يتصرّفون وكأنهم في إجازات على الشط. وبخاصة الكبار. شيء رائع أن يكون بانتظاري شهر كامل بلا اجتماعات. شهر من المتعة فقط. كيف حال أبويك بالمناسبة؟»

«بخير، بخير، بخير. أحاول أن أشجّعهما على التخطيط لإجازة. إجازة حقيقية لا خروجة داخل المدينة أو جولات متاحف وما إلى ذلك، ولكن شيء ملحمي. أبي لم تزل معه مكافأة نهاية الخدمة، ويجب أن يستغلّها في فسحة بعيدة مع أمي. يذهبان إلى مكان قصيّ بينما لا تزال صحّتهما جيّدة وتساعدهما على الاستمتاع. لكنّهما يظّلان يقاومان. أعتقد أنّهما قلقان على تكيّف أخي مع الحياة وحده، لكنّه كبير».

قال أندرو وهو يلتقط من خضراوات التمبورا كتل الصوص دون الخضراوات «ماذا لو أقام معنا؟ أعني لبضع ليالٍ إلى أن يرجعا؟»

«لكن نحن أنفسنا سنسافر، وحتى لو لم نفعل، علينا أن نكفّ عن معاملته معاملة طفل. لا بدّ أن نخرجه من منطقته الآمنة، وهذا لمصلحته هو. من يدري ماذا يجبّي المستقبل؟ لا بدّ أن يتمكّن من تحمّل أمر نفسه في النهاية. هو متجمّد في هذه الحلقة اللطيفة في الحياة: وظيفته التي لا تشغله غير يومين في الشهر، لا فكرة لديه عن النقود أو المسؤولية، والأسوأ على الإطلاق، أنّه

يشلُّ حركة أبي وأمِّي. لقد أدّيا دورهما أبا وأماً ومن حقّها الآن أن يستمتعا بتقاعدتهما، دون أن يحملأ همّه».

قال أندرو «أليس في هذا شيء من القسوة؟ إنّه لا يلحق أيّ ضرر بأيّ شخص، وأبواك في ما يبدو متقبّلان للوضع».

قالت جريس «وماذا يحدث حينما يكبر أبواي ويكونان بحاجة إلى المساعدة؟ نحن في المرحلة التي في ظرف سنوات قليلة منها سوف يحين علينا الدور في الاعتناء بهما. فعلى من سيقع هذا العبء؟ القدّيسة جريس ومن غيرها؟ وأنت أيضاً في الواقع. أخي لن يساعد في شيء، بل إنّنا سوف ننتهي إلى تحمّل مسؤوليته أيضاً. علينا أن نخطّط مستقبلاً معاً، نقيم حياة جديدة، وكلّ هذه الأمور، لكنني أعرف تماماً ما سيكون عليه الحال. كلّ مشكلات الأسرة، فضلاً عن حقائبها، سنجدّها على باب بيتنا يوماً ما. لذلك ينبغي أن نفعل شيئاً الآن. وإلا فإنّ مستقبلاً سيكون شديد الشبه بماضيها. بالمناسبة، وجّهنا لنا دعوة عشاء عندهما يوم الأحد القادم وأنا قبلت دون أن أسألك لأنني أعرف أنّك مغرم بي ولا يمكن أن ترفض لي طلباً».

توقّفت جريس بعصوي الطعام أعلى المكرونة.

«أسفة أنّي أثقلت عليك. لكن في بعدك تظّل هذه الأمور تدور وتدور في رأسي. دعك مني. أشعر أنّي تحسّنت قليلاً لمحض تفوّهي بهذا بدلاً من التفكير فيه».

قال أندرو «لا بأس. هذا تدريب جيّد على أن أكون زوجك ويكون مفروضاً عليّ شرعاً أن أنصت إليك. وطبعاً أنا معك في عشاء الأحد. فأنا لم أرَ أسرتك منذ دهور. كنت أفكر أنّي لا بدّ أن أشتري لأبيك تذكرة فيحضر معنا أقرب مباراة نحضرها».

قالت جريس «فكرة جيّدة. فهو بحاجة إلى توسيع دائرته الاجتماعيّة».

عنده بضعة أصدقاء من العمل لم يزل يلتقي بهم، ويمارس بعض الأعمال التطوعية هنا وهناك، لكن ليس لديه متنفس منتظم. ينبغي أن ينضمَّ إلى شيء فيتسنَّى له أن يقابل ناسًا جددًا. يجب على المرء طول عمره أن يظلَّ يعيد اختراع نفسه، يقلِّب أصدقاءه، لكنَّه تقريبًا لا يفعل شيئًا عدا استرخائه أغلب اليوم».

«سأرى لو أن بوسعي أن أفعل شيئًا معه، لكن هذا حال أبي أيضًا. قليل من الجولف، وقليل من المساعدة في اتحاد الائتمان التعاوني، لكنَّه في الحقيقة بشع في عدم تواصله مع الناس. أمي أفضل كثيرًا. تتطوَّع في الكنيسة، تساعد اتحاد السكان، وما إلى ذلك. العجيب أنَّها قضت كلَّ تلك السنوات في البيت، ولكنها تبدو أكثر انشغالًا منه. أعتقد أنَّه اعتاد على وجود موظَّفين ينفذون له كلَّ شيء وذلك ما كان يجعله يظهر أكثر نظامًا ممَّا هو في الحقيقة».

ظلاً يثرثران ويأتیان على الطعام، كان ينبغي أن يشتريا زجاجة نبيذ ثانية، أو ربَّما ما فعلاه هو الأفضل، فالغد في النهاية ليس إجازة من المدرسة. أدخلنا كلَّ شيء إلى المطبخ، وهما يسيران على أطراف أصابع أقدامهما فوق البلاط البارد، مكتفين بتكديس الأطباق في الحوض لتُغسل في الغد، شأن تفرغ الحقائب، والردُّ على المكالمات الفائتة.

أجرت جريس النسخة المختصرة من روتينها الليلي في الحَمَّام ووثبت إلى السرير بجوار أندرو الذي كان بالفعل على مقربة خطيرة من النوم. اندست في دفء جسمه - وكانت درجة حرارة جسمه المرتفعة من مزاياه عند إبرام صفقة العيش معًا - وواصلت الثرثرة وخدُّها على صدره. وفي حين أنَّها لا يمكن أن تنكر أن شيئًا أو اثنين من قائمة أعمال الغد قد طافا برأسها، فإنَّها سارعت إلى صرفها وركنت إلى حالة السكينة الناعسة، مغلقة على نفسها من الداخل.

## الفصل الثالث عشر

### السيدة هاوثرن

استيقظ هنجري بول بإحساس أنّه مقيد إلى السرير، يئنّ جسمه بألم وتيبس ممتدّ في عموده الفقري من أسفل إلى أعلاه ومن أعلاه إلى أسفل ساريًا في وركيه وحتى ربلتيه. في حصّة الجودو بالمساء السابق، انتقلوا مبكرًا من تدريبات المبتدئين البسيطة إلى الغاية من مهمّة التدريب إلى التمرن على الحركات المتعدّدة لضرب الأفخاذ وطرح الأكتاف. وجمع الحظّ هنجري بول برجل ذي بنية كبنية حاوية قمامة، وأذنين قنبيطيتين، وشريط لاصق حول أصابعه مثل مايكل جاكسن. كان اسمه لازلو ولا يجيد من الإنجليزيّة شيئًا، ولا يعني هذا أنّ الثروة في توافه الأمور كان لها مجال في ثنايا عجنه لهنجري بول كأنّه طاه بين يديه عجين البيتزا. لم يتضح إذا ما كان المرشد قد تصوّر خطأ أنّ هنجري بول شخص آخر، أم أنّه أراد إثناءه بصفة نهائية عن المجيء مرّة أخرى، ولكنّ الجمع بين الاثنين كان خطأ جليًا ومشهودًا. فحتّى حينما وقف لازلو دونها اتخذ أيّ استعدادات دفاعيّة، لم يقو هنجري بول على رفع أيّ من قدميه عن البساط، وقد انتهى به الحال طريح الأرض وذراعه وساقاه مشدودة حوله كأنّها أطراف كلب صغير.

كان المساء قد بدأ بالفعل بداية سيئة عندما ازرقّت عين هنجري بول، لا من القتال، بل من كومة أبسطة مخزّنة على رفّ مرتفع وقعت على وجهه حينما حاول إنزالها. بعد ذلك تعرّض للتوبيخ لأنّه لم يقصّ أظافر قدميه

فخدش ريلة المرشد وهو يحاول توضيح الحركات التي يفترض أن يتدربوا عليها. ولما رأى المدرب أن هنجري بول ظلّ طيلة المساء ألعبوبة بين يدي لازلو، جاء إليه وأخبره أنّه يتحسّن لكنّه بحاجة إلى إصلاح ذهنيته، مشيراً إلى بقع شاي على زيّ اللعب بوصفها دليلاً يؤكّد كلامه.

رجع هنجري بول إلى البيت فمضى مباشرة إلى السرير لاثنتي عشرة ساعة، وقد غلبه التيسّس والإنهاك فلم يستحمّ ولم يغسل أسنانه، وبقي متجمّد الجسم في الصباح التالي حينما طرقت هيلين باب غرفته لتذكّره بالذهاب إلى المستشفى لبعض الأعمال التطوعيّة في ذلك الصباح. حاول أن يصيح قائلاً إنّهُ ربّما الأنسب له أن يذهب إلى مستشفى الطوارئ باعتباره حالة لا زائراً، لكنّ لسانه نفسه كان قد انكسر. وأخيراً أمكنه أن يزحزح نفسه حتّى خرج من السرير ومضى ثقيل الخطى إلى الحمام، كأنّه راعي بقر متخشّب يسير بالتصوير البطيء.

سدى ذهبت توسّلاته لأُمّه على الإفطار، فهيلين التي لم تعترف يوماً بعالم الفنون القتاليّة كله ما كانت لتقبل أيّ أعذار لها علاقة بالجودو.

قالت هيلين «اسمع، أنت الذي قلت بعظمة لسانك إنّ العمل الخيريّ يستوجب قدرًا من التضحية، فلا يمكنك أن تتراجع حين لا يناسبك. أهمّ ما في مساعدة المحتاجين أن تعلم أنّ خذلانك لهم أسوأ ما يمكنك أن تفعله. وأنت أضعت بالفعل زيارة، فلا أعذار، وهياّ نذهب».

قال بيتر «أمّك عندها حقّ، ولو بقيت في البيت فسيكون لزامًا عليك أن تعينني في تفريغ السندرة ونقل أطنان من الكراكيب إلى مقلب القمامة. وليس هذا بالعمل الملائم لجسد موجوع، وأنا أعلم بما أقول».

استسلم هنجري بول. ولم تكن القسوة بهدف المصلحة غريبة عليه بأيّ حال.

«أوكيه، لكن بالراحة عليّ. فلا حمل لعجائز ولا تحريك لأسرة. جسمي اليوم مضرب عن العمل».

قالت هيلين «الصراحة أنا لا أحبّذ دروس الجودو هذه. ستكون لديك عين مسودة لطيفة في حفل توزيع جوائز الغرفة التجارية يوم السبت، ستظهر في الصور مثل البلطجية».

سأل هنجري بول «أيّ صور؟ لم يسيروا إلى أيّ صور».

«مؤكّد أنّهم سوف يدعون الصحافة المحليّة إلى هناك أو بعض إصدارات الغرفة. لا تقلق. عليك أن تفخر بنفسك لوصولك إلى القائمة القصيرة. ومؤكّد أنّنا فخوران بك، أليس كذلك يا بيتّر؟»

قال بيتّر «أعتقد أنّ هذا أمر عظيم. كنت أتصوّر الأمر مسألة مزاح، لكنّك أبلّيت بلاء عظيمًا بوصولك إلى المراكز الثلاثة الأولى. ما العبارة التي شاركت بها؟»

قال هنجري بول في قلق «عليك أن تنتظر حفل توزيع الجوائز. ينتظر أن يكون إعلانًا مثيّرًا. بل لعلّي لا أفوز. أرجو ألا تكون الجلبة كبيرة».

قال بيتّر محاولاً منع هنجري بول من استباق الأحداث وتصوّرّها قبل وقوعها والقلق من الجلبة وهي أثقل الأمور على قلبه: «حسبك أن تستمتع. فهذه فعالية لا تذهب إلى مثلها كثيرًا. وكلّنا سنحضر وندعمك».

قالت هيلين لبيتّر «على أيّ حال، خير لنا أن نذهب الآن. أراك لاحقًا يا حبيبي»، وقبّلته على جبينه، والرؤوس الصلعاء بصفة عامّة أوفر حظًا في القبلات من الرؤوس المشعرة، وهذا وإن يكن نزرًا يسيرًا من العزاء لكنّه عزاء.

حينها وصلا إلى المستشفى قالت هيلين على سبيل الاقتراح «لماذا لا

تفصل هذه المرأة؟ فنحن من ناحية نريد أن يحظى الجميع بزيارات، ومن ناحية لا نريد أن نثقل بالزحام على المرضى».

تهدأت كتفا هنجري بول. كانت لعبة المحادثة لديه معطلة بعض الشيء ولم يكن مطمئناً إلى قدرته على ملء ساعة بمخزونه المعتاد من حديث الطقس والأسئلة المتعلقة بمستوى أكل المستشفيات.

فيما يدخلان العنبر، صاحت سيّدة السرير الأوّل في هيلين «أيتها العاهرة المتديّنة، خليك في حالك» وقد خلطت مرّة أخرى بينها وبين قسيس المناولة الزائر.

دفعت هيلين ابنها في أسفل ظهره برقة موجّهة إياه وقالت «لماذا لا تساعد هذه السيّدة».

وقبل أن تسنح له فرصة الردّ، كانت هيلين تضبط الوسائد لسيّدة السرير الأوسط النائمة محاطة بزهور يانعة وبطاقات مصنوعة يدويّاً. ثمّ مضت هيلين إلى باربرا التي لم يكن قد سمح لها بعد بالرجوع إلى البيت.

قالت باربرا «أهلاً بك مرّة ثانية يا هيلين. ما أجمل أن أراك. للأسف أشعّتي غير واضحة بعد، لذلك لا بدّ أن أبقى هنا لإجراء تحاليل أخرى. عسى ألا يكون السبب سيّئاً، وهم عموماً لا يعطون أيّ تلميحات. وزهقت من الكلمات المتقاطعة، لذلك أنا سعيدة بأن أتكلّم مع أحد» وقالت مشيرة بإبهامها إلى المريضتين الأخريين «وهاتان ليس فيهما نفع كبير».

وبذلك وصلت هيلين وباربرا إلى ما أطلق عليه بتر «الثروة»، أي السرد السلس للقصص الشخصية، والنوادر والأحكام القيميّة، تحكيانها في أسلوب نغمتين متحاورتين، حيث تتقدّم كل امرأة في دورها إلى الميكروفون في سلاسة لا تعرفها غير النساء في منتصف العمر وفناني الراب السوقيين.

وبقي هنجري بول واقفاً عند السرير الأول ولم يزل مرتدياً معطفه أمام اختيارات محدودة. حاول أن يتواصل بالنظرات مع المرأة الشتامة في السرير الأول لكنها ظلت تحملق في ما أمامها.

قال «هل لديك مانع من جلوسي يا حبيبتى؟» وندم فوراً على قوله «يا حبيبتى» الذي يحاكي به أمه فيبدو غريباً تماماً حينما يأتي من رجل. لم يلق ردّاً.

جذب الكرسي إلى الجنب وجلس شاعراً بأنه خاوٍ إلى حدّ الصدا. ارتاح للسكون والهدوء. كانت أمّه وباربرا توفّران خلفيّة صوتيّة تساعد على الشroud، وفي ما عدا ذلك كانت العنابر هادئة. فما من ممرضات يتجوّلن، أو تليفزيونات تهدر، أو مريضات تشتم أو تصيح أو تطرح أسئلة مربكة. جلس صامتاً، يشارك المرأة لحظتها. رأى على بيانها العلاجي أنّ اسمها السيّد هاورثرن. السيّد أوليفيا هاورثرن. وكان هنجري بول بارعا في هذا: الجلوس وحسب، دونها تململ، دونها تفكير في شيء معيّن، منصتاً إلى الغرفة وحسب. لم ييال قطُّ بالزمن. والزمن من جانبه لم يكن يجري منه أو ينسرب. فكان يشعر دائماً أنّه حاضر في الوقت المناسب. موجود، قريب. عبرت بالغرفة نسمة لطيفة حاملة أثراً طفيفاً من رائحة وجبة الطعام التالية، فيها شيء من رائحة المرق، لكنها غير محسومة. جلس دون ثرثرة، دون أيّ شيء ممّا يحافظ على دوام علاقة، ولكن دون أيّ نغمات ناشزة أيضاً.

بعد قرابة عشرين دقيقة، مدّت السيدة هاورثرن يدها، دون أن تغير من تحديقها في ما أمامها، وأمسكت يده. وضغطتها أوهى ضغطة ممكنة. تقبّل يدها برقّة، دون أن يحاول النظر في عينيها أو التحقق من دوافعها. بدت بشرتها ليّنة رقيقة. وظلّ أحدهما يمسك يدي الآخر هكذا على مدار الدقائق الأربعين المتبقية: في صمت وارتياح. ولما حان الوقت وأقبلت هيلين، كانت



السيدة هاوثرن غارقة في النوم، ولم تزل تمسك يد هنجري بول في سكون مطمئن.

قالت هيلين وهما سائران إلى موقف السيارات «أنتم الاثنان توافقتما جيداً من واقع ما رأيتم. كيف نجحت معها ولم أتل منها غير الشئ؟»

قال هنجري بول الذي لا يميل إلى الإفراط في التفكير في هذه الأمور «أنا لم أفعل أي شيء على الإطلاق».

اتصل هنجري بول، حينما وصلا إلى البيت، بليونارد في العمل، واتفقا على لعب مونوبولي في الليل، لكن هنجري بول كان لم يزل متيسر الجسم مرهقاً وودّ لو اقترح لعبة أبسط مثل كونكت فور أو باتلشيب.

ردّ ليونارد بصوت مرح «أهلاً يا صديق العمر. ماذا يدور في رأسك؟ أراهن أنك متلهّف على توزيع الجوائز».

«يا إلهي، أنت في حالة طيبة، وأنا لسوء الحظ في حالة تعافٍ إلى حدّ ما. أردت في الحقيقة أن أطلب منك معروفًا. ليلة أمس كانت عندي حصّة جودو ثقيلة، ولست في أفضل حالاتي، فكنت أتساءل إن كان بوسعنا أن نلعب الليلة شيئاً أسهل من مونوبولي، كنت أفكر في كونكت فور مثلاً؟ لا أحب تغيير الخطط في اللحظة الأخيرة لكن الحكاية وما فيها أن الجودو يظلّ مربكاً إلى أن تبرع في حيله».

«أوه، أفهمك. إمامم، هذا غريب، فاهم...»

قاطعه هنجري بول قائلاً «لو أنّ في الأمر مشكلة فلا مانع لديّ من الرجوع إلى مونوبولي. لا أريد أن أخذلك».

«أوه، ليس الأمر كذلك. الأمر فقط، يعني، كنت أنوي الاتصال بك لأكلّمك في هذا. فاهم، يفترض أن أقابل شيلي الليلة، ونسيت أنني ضربت

«آه، فهمت. تمام، الأمر هكذا مختلف. إذن ربّما ب...»

«أقصد، أنا آسف جدًّا في الحقيقة أن أخذلك، هي غلطتي، لكن شيلي لا تستطيع دائمًا أن ترتّب للخروج بالليل بسبب باتريك، وبس»

سأله هنجري بول «من باتريك؟»

«ابنها، عنده تقريبًا سب»

«ابنها! لم أكن أعرف هذا. يا إلهي، أنت تقفز إلى الغريق... هه، لكنني متأكد أن كل شيء واضح تمامًا. لذا أتصوّر أن علينا أن نرتّب لليلة أخرى ربّما؟»

«أيّ ليلة تناسبك. وشكرًا على تفهّمك. وكما تعلم، أنا لا أتعرّض كثيرًا لهذا الموقف وأريد أن أتجاوزه فعلًا فإذا لم يكن لديك مانع يمكن أن نلتقي غدًا بدلًا من الليلة؟»

قال هنجري بول كاذبًا كذبة بيضاء، وقد غضب قليلًا، «أوه، لحظة، غدًا محجوز، ربّما يكون اللقاء في حفل. توزيع الجوائز يوم السبت، لو لم يشغلك شيء يعني؟»

«لا يمكن أن أضيع هذا. سأكون في ظهرك. وفي المرّة القادمة أنت الذي سوف تختار اللعبة ولن أنازعك في هذا».

بعد أن وضع هنجري بول السماعة تحسّس ذقنه النابتة وهو يفكّر. وسرعان ما تبدّد إحباطه بسبب لعب المساء، وحلّت محله فحوى الحديث كله. يحسب لليونارد ولا شك أنّه بدأ في القيام بواجبه المستحقّ منذ فترة طويلة أي، خطوته «الصغيرة بالنسبة إلى رجل». فهناك أولًا كتابه الذي يؤلفه

عن الرومان، وها هي حبيبة تظهر. وللحبيبة ولد قد يصبح ابنًا لليونارد إذا أفلح الأمر. تخيل! برغم فزح هنجري بول لصديقه، لم يملك ألا يرى أن الأمور تتقدّم بمعزل عنه. وحلّ عليه ذلك حلولٌ ثقلٍ مباغت. بدأ في تجميع الصورة. جريس عمًا قريب تتزوج وتؤسس أسرة على الأرجح. تقاعد أبواه ولا يتوقّف كلامهما عن رحلة كبيرة، وهي تحديدًا، رحلة كبيرة لا مكان له هو فيها. والجودو تبين أنه أصعب ممّا كان يتوقع. ووظيفته في مكتب البريد - بحالها التي هي عليه - سوف تنتهي إلى أن تستولي عليها الطائرات الآليّة أو الروبوتات. فماذا يفترض أن يفعل؟ لا يعقل أن يقضي بقيّة حياته في إطعام الطيور وإمساك يدي السيّدة هاوثرن. ولا يمكن أن يظلّ منكبًا على ألعاب الرقعة كلّ ليلة منفردًا. فأغلب الألعاب مصمّمة لأربعة لاعبين ولعبها مع ليونارد وحده ليس سوى حلّ وسط.

تمدّد هنجري بول على الأريكة مستشعرًا حدوده. كان جسمه الضخم ملائمًا لما بين متكأي الذراعين. صفّ كلّ القطع معًا - ليونارد، وجريس، وأبويه، وظروفه الخاصّة - فرأى نمطًا مألوفًا. كونهت فور. انتهت اللعبة.

## الفصل الرابع عشر

### الوجبة السعيدة

حينما وضع ليونارد سماعة الهاتف شعر بمزيج غير مريح من الإحساس بالذنب والخيانة، وقد خذل هنجري بول، صديقه الأفضل والحقيقي والوحيد. الرجل الذي وقف بجانبه في كل شيء وأدّخر له مكانًا دائمًا في حياته (الهادئة ولا شك). لم تكن الصداقة القائمة بينهما محض صداقة ملائمة بين رجلين هادئين ووحيدين قليلي الخيارات، ولكنها كانت عهدًا، عهدًا على مقاومة دوامة الانشغال والجلافة التي اجتاحت بقيّة العالم، عهدًا على البساطة في مقاومة قوى التنافس والضجيج.

كانت المشكلة الوحيدة هي أن ليونارد اكتشف عيبًا يعترى طريقتها في الحياة. لم يكن في تلك الحياة بأس ما بقي فيها كل شيء على حاله. في ظلّ ثبات الحياة في البيت وفي العمل، الحياة ذات العمق والمعنى، كان ممكنًا ولا شك أن يدوم الحفاظ على ملاذ اللوداعة عبر الصداقة الخاصة القائمة بينهما. لكن لا تكاد الحياة تتغير، ولا يكاد الناس ينسربون من حياتك، وهو ما يحدث لا محالة، حتّى يتحرك الشمال والجنوب والشرق والغرب جميعًا من نقاطها الثابتة في البوصلة. وإذا بك وقد تجرّدت، ولم يبق لك إلا الاختيار بين دخول العالم، بكل ما يقتضيه ذلك من مخاطر، أو النكوص عنه. وقد مالت الغريزة بليونارد إلى النكوص وخلق فقاعة آمنة، لولا أن الفقاعة يأكل بعضها بعضًا، وتفقد العزلة والسلام ما بهما من تفرد حين لا يقفان على النقيض من أيّ

شيء. ففي حياة مزدحمة - أو لا تفتقر إلى الزحام - يضيفي التفكير الهادئ صدى على التجربة. أمّا سلب الحياة تجاربها عن عمد والاختباء من واقعها فليس فيه من التفرد شيء. إن هو إلا ضرب آخر من الخوف أفضى إلى وحدة خانقة للحياة ظَلَّت تتراكم وتتراكم حتّى باتت كتلة شديدة الضخامة تحول دون باب الخروج وتطفئ على الأحاديث وتضع الناس الآخرين وراء زجاج عازل للصوت. ولقد اكتشف ليونارد، على أيّ حال، أنّ النأي بنفسه عن الناس لم يعد عليه بالسلام. فكلّما نأى بنفسه عن الآخرين، ازداد حيرة في أمرهم، وازدادوا امتناعاً على فهمه. ولم يزد البعد إلاّ فقداناً لزاوية النظر. ولولا حرصه لصار ناقماً قاطع الأحكام، كالرجل الذي كان يراه في المتجر يكلم نفسه وبين يديه بيضة. والحقّ أنّه اكتشف أنّه يكون أقلّ انتقاداً للناس عندما يدخلهم حياته، ويتبيّن أنّهم ليسوا شديدي السوء، أو أنّ هذا يصدق على بعضهم على الأقلّ، ففعل ذلك كان هو السرّ: أي العثور على الناس المناسبين، والقدرة على تمييزهم، ومعرفة السبيل إلى تقديرهم عند العثور عليهم.

تسبّب له ذلك كلّ في مأزق مع أقرب أصدقائه. لم يكن متأكّداً من قيام هنجري بول بمثل تلك الوثبات. ماذا لو أنّ مخطّط هنجري بول هو التخبّط من يوم إلى يوم إلى الأبد، غافلاً عن تقلُّص كونه؟ تألّم ليونارد لظنّه أنّه ربّما ينضج مجاوزاً هنجري بول، وكأنّها صداقتها أصبحت تأميناً تكافلياً<sup>(1)</sup> لكنّه معكوس، فأخر الواقفين فيه هو الخاسر. والجائزة للفائز حياة نكوص وتقلُّص.

(1) التأمين التكافلي tontine: ضرب من التأمين يشارك بموجبه عدد من الأشخاص بحيث توزع حقوق أحدهم عند وفاته على سائر رفاقه، حتّى إذا توفوا جميعاً إلاّ واحداً انتقلت حقوقهم كلها إليه. المورد الكبير، منير البعلبكي ورمزي البعلبكي، الطبعة الأولى يناير 2005

لكنَّ ليونارد قرَّر ألاَّ يسمح لنضجه، كيفما هو، أن يأتي على حساب هنجري بول. فصداقتهما تعني له الكثير. قرَّر ألاَّ يسمح للعلاقة الغرامية الناشئة مع شيلي - وهي، في نهاية المطاف، لم تزل في مرحلة مبكرة للغاية - أن تعوق صداقتهما. ستكون هذه آخر مرة يؤجِّل فيها لقاء مع هنجري بول أو يلغيه بسبب سوء الترتيب. اعتبارًا من الآن سيبدل جهودًا إضافية لاحتوائه في خططه، وربَّما يحاول، بطرق خفيَّة لم يتوصل بعد إلى صورتها الكاملة، أن يرشد صديقه إلى فتح حياته الخاصَّة.

مسألة أخرى بدت واضحة لليونارد: لقد أدرك وجود فرجة مع شيلي توفرُّ له فرصة قد تكون ضئيلة لكنَّها جيِّدة لأن يكون جزءًا من حياتها، وتكون هي جزءًا من حياته. لم يكن على يقين تامٍّ من الوجهة التي يريد أن تمضي العلاقة إليها، فنحَّى جانبًا الأسئلة الصعبة التي تراوده حول إنجابها ولدًا عمره سبع سنوات، لكنَّه عرف أنَّه لا يريد أن يفسد الأمر بسبب التردُّد والشكِّ بالنفس. قرَّر في هذه المرَّة أن ينتهز الفرصة، ويتصدَّى للمخاطر.

ظَلَّ على مدار الأسبوع يخطِّط لموعدهما المسائيِّ الأول، فجاء التخطيط على حساب تقدُّم كتابه عن الرومان. وبدلًا من تجربة شيء غير معتاد، قرَّر أن يحجز في مطعم لطيف، مكان هادئ رفيع الذوق، وغير باهظ الثمن تحسُّبًا لرغبتها في اقتسام الفاتورة، فاستبعد أيَّ خيارات متطرِّفة. كان كثيرًا ما يمرُّ بمطعم إيطاليٍّ صغير لطيف في طريق رجوعه من العمل، وفيه القليل من الخيارات النباتيَّة لشيلي، فقرَّر أن يحجز مائدة هناك. وقرَّر بعد العشاء أن يقترح التمشية، فإن طابت الأمور، يمكن أن يذهبا إلى مكان ما لشرب كأس، ولتوطيد الصداقة، وربَّما لما هو أكثر.

وبرغم أنَّه لم يزل شديد التردُّد عند الشراء، فقد أنفق على عطر أصليٍّ جديد، وكان قد نثر منه بالفعل على وجنتيه حينما رأى عبارة عطر نسائيٍّ

بحروف ذهبية على قاع الزجاجة الداكنة ذكورية المنظر. لعلها لن تتعرّف عليه، أو لعلّ بوسعه القول إنّه عطر للجنسين. خطر له أنّ الرائحة خدعته، فلعلّها تخدعها هي الأخرى، وقد جاوز تفاؤله واقعيته.

لمسارعتة بالخروج من البيت، وصل إلى نقطة المقابلة قبل الموعد بنحو نصف ساعة. وكان في المكان بالفعل العديد من المهندمين المغالين في التأثُّق ينتظرون مواعيدهم الغرامية. كان الجوُّ باردًا، وفي ما بين توتُّر أعصابه وبنطاله الجينز الحديد - والمحبوك بعض الشيء - أدرك أنّه لن يسهل على مثانته الصمود حتّى الثامنة مساء. عبر الطريق إلى مكدونالدز الذي بدا له أقرب الخيارات المتاحة وأوضحها، ولمّا تقدّم يفتح باب الحّمّات وجدها مغلقة.

وقال صوت ذكوريّ عميق من خلفه ومن أعلاه إنّ «الحّمّات للزبائن فقط». استدار ليونارد ليرى من ورائه فرد آمن بحجم تماثيل جبل رشمور.

قال ليونارد «أوه، فهمت، وماذا إذا اشتريت شيئاً؟»

قال تمثال جبل رشمور في جمود «هذه هي الغاية عموماً من المطاعم. لكن عليك أن تشتري ذلك قبل استعمال الحّمّات».

تقدّم ليونارد من النضد حيث كانت بانتظاره محاسبة مرحة.

قال ليونارد «مرحباً، ما أرخص برجر لديكم؟»

قالت المحاسبة «الهمبرجر العاديّ يا سيّدي».

«أوكيه، سأخذ واحداً إذن، وسفن آب لتيسير بلعه».

«سبرايت مناسب؟»

«سبرايت، أو سفن آب، كلّهُ سواء، نعم، لا بأس».

«سيكون أرخص لو حصلت على عرض الوجبة، فهل تريد هذا يا سيدي؟ مع بطاطس سيكلّفك أقلّ».

كان الأمر يخرج عن السيطرة، لكن صعب عليه أن يجادل منطقها.

سألها ليونارد وقد بدأ يبدّل بين قدميه في الوقوف «أو كيه إذن، هل بوسعي أن أستعمل حمّامكم الآن؟»

«أكيد، شيفرة فتح الباب على إيصالك. لن يستغرق الطعام دقيقة».

«أو كيه، سأرجع حالاً».

رجع ليونارد من الحّمّام رجلاً جديداً. ناولته المحاسبة صينيّة وجبته. تبيّن أنّه طلب الوجبة السعيدة، أي وجبة الأطفال، ومعها لعبة من أحدث منتجات ديزني داخل الصندوق. والآن وقد دخل الحّمّام، لم يعد يرغب في الطعام، ولكنّ من العار التخلّص منه، فقرّر أن يقضم منه بضع قضبات ليبقى لديه متسع لطعام المطعم. وربّما كانت فكرة جيّدة ألاّ يذهب إلى مواعده الغراميّ جائعاً أكثر ممّا ينبغي، فلم يكن يريد أن تحسبه شيلي خنزيراً أو ما إلى ذلك.

جلس وفتح علبة الوجبة السعيدة. كان البرجر رفيعاً للغاية ومهترئاً، وقطع البطاطس صغيرة، فلم ير أنّه معرّض لخطر فقدان الشهية. وما كاد يشرع في تناول الطعام حتّى سمع طريقة على الشبّاك من ورائه. حال الظلام في الخارج دون أن يرى أكثر من صورته منعكسة على الزجاج فتجاهل الطرق وتناول قضمة أخرى. ثم سمع طريقة ثانية ورأى بعدها تلويحاً غامضاً من يدين غير مميّزتين إلّا لماماً. لامس بوجهه الزجاج، وهناك، ووجهها على وجهه، لا يفصل بينهما إلّا الزجاج المزدوج، كانت شيلي تبادله الابتسام.

كانت قد وصلت مثله مبكّرة وغادرت الحافلة لترى ليونارد يمدّ يده في



صندوق وجبة أطفال في مطعم مكدونالدز من بين كل مطاعم الدنيا. دخلت عابرة الأبواب الآليّة، متمهّلة لتفسح لمراهق مجالاً للخروج، وانضمت إليه في مائدته المجاورة للشبّاك.

قالت «أشهد لك أنّك تعرف كيف تفاجئ فتاة. هل سيكون هنا موعدنا؟» قال ليونارد مشدّداً بعض الشيء من نبرته «بالقطع لا». قالت «أوكيه» وزفرت في ارتياح، مضيفة «فما الأمر إذن؟ هل هذا يوم عشائك المزدوج، أم أنّك كنت تموت لهفة على رؤية اللعبة في علبة الوجبة السعيدة؟» «ما هي إلّا سمكة ورقية، من تصميم دي...».

«بل هي من سمك العثور على نيمو، أو الفيلم الجديد يعني من هذه السلسلة. باتريك عنده بعض منها. هذه الدمى محض قمامة. ولا أقصد الإساءة إن كنت، يعني، مولعاً بها أو أيّ شيء».

«أوه، لا، يا إلهي. أعرف أنّ المنظر غريب لكنني كنت بحاجة فقط إلى دخول الحّمّام، ثمّ قال لي رجل جبل رشمور الواقف هناك إنّ»

«رجل ماذا؟»

«جبل رشمور - لأنّه ضخم جدّاً ومتين البنيان فذكّرني بوجه توماس جيفرسن بالذات. استوقفني وقال إنّني لا بدّ أن أشتري شيئاً إن شئت أن أستعمل الحّمّام، فطلبت أرخص شيء، وأصغر شيء، ثم فكّرت أنّه من الإهدار أن أرميه، وكنت أعرف أنّك لن توافقني أبداً على مسألة ذبح بقرة لترمي بعد ذلك في القمامة، فقلت إنّني سوف أقضم قضمة، قضمة واحدة، وكما ترين، ما كدت ألمس الطعام إلّا وأنت هنا».

تنفّس بعمق ونظر إليها وهي تلتقط من البطاطس وعلى وجهها سيماء عدم فهم غريبة.

قالت «فهمت، هذه الوجبة غطاء لمثانتك. أظنُّ أنني يمكن أن أتقبَّل هذا. والآن، هل نبدأ موعداً؟»

«سيكون هذا لطيفاً، وبهذه المناسبة، مرحباً».

وانحنى ليونارد فقبلها قبلة خفيفة على خدّها.

«رائحتك جميلة. تقريباً تذكرني برائحة عندي في البيت» وقالت وهي تلملم ما بقي من الطعام في الصندوق «ها نتخلَّص من هذا» ودسَّت السمكة نيمو في جيبها لما لم تعرف ماذا تفعل فيها.

في المطعم الإيطالي، أجلسهما النادل في حجرة صغيرة، وكان في الطرف الأقصى من المكان عازف بيانو يعزف افتتاحيات رومنتيكية في رحاب صوت الأحاديث بين ثنائيات من مختلف الأعمار. بدا الزبائن لليونارد خليطاً من المتواعدين للمرّة الأولى، والمحتفلين بالذكرى السنويّة للزواج، والأزواج العائدين لزيارة مكانهم الأثير.

قالت شيلي «المكان لطيف حقاً» وسألته «كيف عثرت عليه؟»

قال ليونارد «أوه، يعني، كما تعرفين. مررت عليه مئات المرات وبدأ لي شكله لطيفاً وإن لم أدخله من قبل» ولكنَّ ما أراد قوله حقاً هو أنّه في كلّ مرّة سار فيها بجوار المطعم قال لنفسه لو قابلت فتاة ذات يوم فهذا هو المكان الذي سوف أصطحبها إليه.

حين خلعت معطفها، رأى عليها فستاناً جميلاً أخضر مخزماً بلا كمّين. بدا شعرها أدكن قليلاً ممّا سبق ورآه، وقد قصّته ورفعته وراء أذنيها، ووضعت القليل من المساحيق ولم يكن رآها كذلك من قبل. وفيما يراها وهي تستعرض قائمة الطعام، وشفتها تتحرّكان بما تقرأ قال «أنت جميلة فعلاً يا شيلي» ولم يكن يقصد إلّا أن يفكر في ذلك.

ابتسمت في شيء من الحياء.

«شكرًا. أنت أيضًا أنيق للغاية. تعجبني سترتك. أوه، هذا لطيف جدًا، ليس كذلك؟» فلعلها تقصد المطعم، أو الموعد، أو كل ذلك معًا. «والجميل أن لديهم الكثير جدًا من الخيارات النباتية».

«لكن كيف أصبحت نباتية؟ هل لأن ذلك في صالح الحيوانات أم مسألة صحيّة؟»

«أوه، ما من سبب معيّن. حدث لي تسمّم غذائيّ بسبب بعض اللحم المفروم معاد التسخين قبل بضع سنوات فصارت فكرة تناول اللحم بعد ذلك تثير في نفسي الغثيان، فتوقّفت عن ذلك لشهر أو اثنين ثم لم أرجع إليه مرّة ثانية. لست نباتية متعصّبة بالمناسبة، فلن أنعّص عليك لو طلبت شريحة لحم ضخمة بعظمها. باتريك يأكل اللحم، يعني، السجق، لو أنّك تعدّه لحماً، ولو تبقى لحم آكله أنا. كان عندك حقّ حينما قلت إنني أكره فكرة إلقاء اللحم هكذا - والموت هدرًا، وما إلى ذلك.

سألها ليونارد «وكيف تضمنين الحصول على ما يكفيك من البروتين؟»  
«آه، البروتين. أعرف أنّكم يا آكلي اللحوم لا تنامون الليل قلقًا على كمّ البروتين الذي يحصل عليه النباتيّون. مارجريت زميلتي في العمل تتبع حمية غذائية قائمة على السجائر والفسار والكولا الدايت، وبدأت الأسبوع الماضي تلقي عليّ خطبة البروتين كاملة. لكنني طمأنتها وأخبرتها أنّ الغوريلا ذات الظهور الفضيّة نباتية وأمورها طيبة. كان عليها أن تجري بحثًا في الصور لترى شكل الغوريلا فضيّة الظهر ثم بدا عليها الرضا. وعمومًا، إذا وقعت من طولي خلال موعدنا، فلك أن تسارع إلى مكدونالدز وتأتي ببعض البروتين لكي تسعفني».

كانت لها طريقة لطيفة في الجمع بين الكلام والضحك، إذ تمسك الضحك حتى نهاية الجملة ثم تطلقه.

قال ليونارد «أوكيه، أوكيه، عندك حق. أرجو أن أطبخ لك وجبة نباتية لطيفة يومًا ما» وأضاف وهو يفكر في رقائق البطاطس نصف المقلية وعلبة الآيس كريم في ثلاجته قائلاً «أكلي في البيت غالبًا نباتي».

طلبوا الطعام، فلها هي طماطم مجففة في الشمس وسلاطة وريسوتو الفطر، وطلب هو حساء جازباتشو وبعده نوع من اليخنة، فشهيته لم تتأثر بوجبة ما قبل المقبلات في مكدونالدز. طلبت شيلي كأسًا من نبيذ بروسيكو الإيطالي الأبيض وشربته أسرع قليلًا مما أرادت، فسرّه أن رأى أنّه لم يكن الوحيد المتوتر بعض الشيء. طلب بيرة وارتاح لأنّه أعفى نفسه من الدراما المصاحبة للنبيذ من تذوق القليل منه للتأكد من أنّه غير حامض ثم إطراقة خبير النبيذ والأطعمة في حالة نجاحه في الاختبار.

طلبت شيلي كأس بروسيكو آخر وثرثرا خلال تلك المقدمات حول أسرتهما - أخوان وأخت توأم غير مطابقة - وكيف دخل هو إلى عالم الموسوعات، والشخص الغريب الذي صادفته في الحافلة وهي في طريقها إلى المدينة وظنّها شخصيّة تليفزيونيّة، فقال ليونارد إنّ تلك على الأرجح مجاملة لها، فقالت إنّها غير متأكّدة. ولما وصلت المقبّلات قرّرت شيلي بدء فقرة الأسئلة السريعة.

«والآن يا ليونارد يا عزيزي. حان الوقت لأن أعرف المزيد عنك. أنا أعرف أين تعمل، وأن طاولتك مرتّبة كثيرًا، وأنك تحب اللحم والموسوعات. فلعلنا نملأ بعض الفجوات. ولمعلوماتك فقط، لن يكون الأمر مؤلمًا ولن يكون من طرف واحد. وإذن، الأهمّ فالمهم...»

تأهَّب ليونارد معتدلاً.

«واضح أنَّك قارئ، ما كتابك المفضَّل على الإطلاق؟»

«فلا أفكر قليلاً...» ثم قال في ثقة «حوليات القرن العشرين».

«لماذا هذا؟»

«الحوليات. أوه، هو في المقام الأساسي يحتوي جميع العناوين الكبرى في الصحف في القرن العشرين. كلُّ شهر له صفحة، فهو تقريباً ألف ومئتا صفحة. وهو فاتن. جميع الروايات المعاصرة للأحداث. كنت أحبه وأنا طفل، وكثيراً ما أقرأه في هذه الأيام، كلما آآ.. إمم، كلما جلست مسترخياً. وأنت؟ ما كتابك المفضَّل؟»

«لحظة، كنت أنتظر رواية أو شيئاً مثل ذلك. فاهم، شيء يخبرني بشيء عنك. فعليك أن تختار شيئاً كهذا، وليس دليل الهاتف أو ذلك الشيء الذي أجبت به».

ضحك ليونارد. رأى في أسلوبها هذا، برغم مسحته العملية، بادرة طيبة على أنَّها تريد لأمرهما أن ينجح.

«لو أنَّ هذه هي القاعدة، فلعلِّي أقول شيئاً من قبيل موبى ديك. نعم، موبى ديك. كلاسيكيَّة. كتاب وحشيٌّ، لكن نعم، هذا هو».

«أليس هذا في جوهره موسوعة عن الحيتان مع قصَّة ملتصقة بها؟»

«على مستوى ما أفترض أنَّك محقِّقة. ولكنني فعلاً لا أتهرَّب. أنا فعلاً أحب الكتب المعلوماتية. ولا أحسبك مندهشة. وماذا عنك، كتابك المفضَّل؟»

قالت «يؤسفني أنَّه ليس لديَّ في الحقيقة وقت كبير، أو حتَّى طاقة، للقراءة في هذه الأيام. لكن أعتقد أنَّ الكتاب الباقي معي على مدار السنين

هو رواية الطاحونة على نهر فلوس<sup>(1)</sup> - أو لعلّي فقط أشعر دائماً أنّ بداخلي قليلاً من ماجي توليفير».

«أعرف ما تقصدينه، أعني، طبعاً ليس بداخلي جزء من موبى ديك، الكائن، بالذات، فأنا أعتقد أنّي وإيّاها مختلفان تماماً. أنا لم أقرأ الطاحونة على نهر فلوس للأسف، مع أنّي أعتقد أنّ عندي نسخة منها في البيت. الحقيقة لم أكن أتوقّع منك أن تختاري عملاً كلاسيكياً».

«ولم لا - ألا أبدو ذكيّة؟»

«ليس ذلك، بالتأكيد لا. الأمر أنّك، لا أعرف، ممتلئة بالطاقة. كنت أتوقّع منك شيئاً آخر، لا أعرف ماذا يكون. سالنجر مثلاً، أو شيء هادر، ولا أعني أنّ هذا سيّئ مثلاً، إنّها...»

«أنا أيضاً لي جانبي العميق، لا أفرع من الهوامش».

«لم أشكّ في هذا قط».

قالت «والآن، ماذا بعد، المقطوعة الموسيقيّة المفضّلة؟»

«سهلة طبعاً».

«هياً إذن».

حاول ليونارد أن يفكّر في فرقة لطيفة، فوجد ذهنه خواء.

«هل ينفع أن أجيب بألبومات أنجح الأغنيات؟»

رفعت عينيها إلى أعلى مستجيرة بإله أسقف المطاعم الإيطاليّة.

---

(1) The Mill on the Floss رواية لجورج إليوت صدرت سنة 1860، وماجي توليفير

هي ابنة طحان فياضة المشاعر لكنها دأبت على كبت مشاعرها مراعاة لمصلحة الآخرين

قال «كنت أمزح، أمزح وحسب. بالنسبة إليّ مقطوعة باي جيسو من قدّاس لفاور<sup>(1)</sup>. مقطوعة سجاوية لموسيقى الكورال. ستحبّونها إذا كنت لم تسمعنيها بعد».

قالت «أوووه، موسيقى الكورال في غاية النقاء. أنا لست متديّنة، لكنني أحبّ الموسيقى القدسيّة».

«أنا مثلك في الفنّ. لا أحبّ القدّاس، لكن أحبّ التردّد على الكنائس لمشاهدة ما فيها من فنّ. ألطف كثيرا من المعارض. وأنت ما مقطوعتك الموسيقيّة المفضّلة؟»

«شيء أقل رونقا للأسف. أول ألبوم لـ بي جيه هارفي<sup>(2)</sup>. طالما أحببتها. شديدة الذكاء والغنائيّة، وإن تكن خشنة قليلا. ولا بأس بهذه التركيبة لمواجهة الحياة» كذلك قالت شيلي مؤكّدة كلامها برفع الحاجبين وهي تتناول رشفة من كأسها.

ومضيا على هذا المنوال، يستعرض كلّ الأحبّ إليه، في حوار خفيف طريف ومع ذلك كاشف لكلّ منهما أمام الآخر. جاءت إجاباته الخمس التالية على النحو التالي: كلّ شيء عن إيف<sup>(3)</sup>، بيرو، شريحة اللحم البقري، ليونارد برنشتاين<sup>(4)</sup>، وأخيرا الثعابين واثنا عشر. وإجاباتها: فتاة الوداع<sup>(5)</sup>،

---

(1) جابريل أوربان فاور Gabriel Urbain Fauré (1845-1924) موسيقي فرنسي والمقطوعة المشار إليها هي Pie Jesu [أي يسوع الرحيم] وهي جزء من عمل شهير له عنوانه Requiem.

(2) بولي جين هارفي Polly Jean Harvey (1969- ) مطربة وموسيقيّة إنجليزيّة.

(3) All About Eve فيلم أمريكي من إنتاج 1950

(4) ليونارد برنشتاين Leonard Bernstein (1918-1990) موسيقي أمريكي

(5) The Goodbye Girl فيلم أمريكي من إنتاج 1977

وبوتان، وحلوى المرزبان، شيلي دوفال<sup>(1)</sup>، والعثة وسبعة.

ومع التحلية، وتغلغل الكحول، شرعاً يخوضان في مياه أعمق.

سألها «كيف حدث أن تركت كلية الفنون؟»

«الإجابة المختصرة هي أنني حملت بباتريك. والإجابة المطولة أنني كنت أحبُّ كلية الفنون. كان الالتحاق بها صعباً بحق، ومعلّمي في المدرسة الثانوية كان كسولاً وغير مهتمّ، وقال لي إنّ مَلَفِّي ليس جيّداً بالقدر الكافي وإنّهم يريدون أن يروا قدراً أكبر من الأصالة. أوشت أن أستسلم في التور واللحظة، لكنّ أبي استخرج أطناناً من رسومي وجمعها معاً في مَلَفٍّ ودفعني دفعاً إلى أن أجرب. والأهمُّ أنّه لم يكن له دخل ببقية واجباتي، وفي النهاية تمكّنت من تقديم ملفّ قوي إلى حدّ ما لكن لم أكن متأكّدة من المعيار، فلم أكن أعرف أحداً التحق بها. وحينما دخلتها كان أكبر يوم فخر في حياتي. أتذكّر أنني جريت على ساعي البريد في الشارع وغصت فعلياً في حقيقته أبحث عن الرسالة. قال إنّ تسليم الرسائل في الشارع خرق للقواعد، لكنّه عرف أنّه لا جدوى من محاولة إيقافني. ابتهج أهلي كثيراً. اتصل أبي بالمدرسة ليخبر مدرّس الرسم، وأعتقد أنّه تكلم، إلى حدّ ما، كما تعلم، بلغة الظافرين.

«كانت سنتي الأولى عظيمة، وسط كلّ أولئك الناس الذين أستطيع للمرة الأولى أن أقيم علاقة معهم. حيوية، وإثارة، وصراخ، وإبداع، ومبدعون. امتلاء بالأفكار والطاقة. والحياة الاجتماعية أيضاً كانت جيّدة، كثير من الحفلات، واقتحام الحفلات، والجنون بصفة عامّة. على أيّ حال، بدأ القليل من شيء ما بيني وبين المعلّم في صف الفنون الجميلة. كان أكبر مني بستين فقط، اسمه ستانلي برينس. وهو فعلياً فنّان متحقّق الآن. كنت

(1) شيلي دوفال Shelley Duvall (1949) ممثلة أمريكية



أناديه البرنس ستانلي. وكنا في نهاية كل ليلة في حفلة أو شيء من ذلك نبحث عن أحدهما الآخر وكنا معًا مرّات قليلة، ويعني، لا أعرف إن كنت مارست البيولوجي في الدراسة، لكن في بعض الأحيان حينما يحب رجل وامرأة أحدهما الآخر حبًا كبيرًا والنخ إلخ. جاء ردُّ فعله على الحمل مغالى فيه وقرّر أن يترك وظيفته ويتركني وقال لي - من بعيد بالمناسبة - إنّه سوف يساعد بأيّ طريقة في وسعه. لك أن تتخيّل كيف كان ردُّ فعلي. وليس غريبًا أنّنا لم نتواصل منذ ذلك الحين إلّا في ما ندر. بعض أصدقائي هاجموني بسبب رحيل ستانلي، فأصبح الأمر كلّهُ شديد الصعوبة. وفي النهاية تركت الكليّة. أرادني أبي أن أبقى، ولكن قلبي كان قد انكسر ولم أشعر أنّ بوسعي أن أصبح المرأة الفائقة، فأعتمد في كلّ شيء على نفسي. انتهيت إلى أن استرحت بعض الوقت بعد مولد باتريك ولم أعد فعليًا إلى العمل إلّا قبل سنوات قليلة. وأغلبه عمل إداريّ وشئون مكتبيّة. وجود ابن في حياتي هو الذي أعادني إلى الرسم. فهو يحبُّ الرسم لذلك نرسم معًا - فالرسم موضوعنا. يحبُّ رسم الصور الواردة في كتبك فعلاً، وأنا أيضًا. بعضها أفضل من بعض. هناك الكثير من صور الغاضبين في كتبك، صحّ؟»

قال «ها، ها! بعضهم كذلك. أعمل بالفعل على شيء مختلف قليلًا في الوقت الحاليّ. هو مشروع جانبيّ شخصيّ بسيط، ولكن لا يجب أن أنحسه بالحديث عنه إلى أن أحرز مزيدًا من التقدّم».

«آه، أكمل، أعطني ولو فكرة ضئيلة».

«لا يوجد شيء محدّد يمكن قوله. الأمر أنّني كنت عالقًا في تلك الموسوعة المعيارية عن الرومان، عارفة، بالمركبات، والطرق المستقيمة وال...» قاطعته شيلي «والأنوف، وقنوات المياه، أعرف هذا النوع من الكتب، أكمل».

«بالضبط. فقرّرت أن أحاول كتابة شيء أكثر إنسانيّة. موسوعة أطفال

حقيقةً بمعنى أن تكون كلها عن الأطفال. يعني، أحاول أن أكتب عن طفل روماني وكيف هو شكل حياته. صحيحة تمامًا معلوماتيًا، لكن عبر نهج أقرب إلى الحكائي. ربّما أمنحه اسمًا، وأسرة، ولعبًا، وأصدقاء. أتكلّم عن مخاوفه وجوانب أخرى من حياته يقيم أطفال أيّامنا صلات معها. لا أعرف إن كان هذا سينجح لكن...».

«هذه فعلاً فكرة مميّزة. يمكن أن تعدّ منها سلسلة كاملة. والأطفال سيغرمون بذلك فعلاً. صدّقني، فكرة عظيمة. هل ستشر؟»

«لا أعرف. لم أكلّم أحداً عنها غيرك، للأمانة. أحاول أيضًا أن أنفّذ الرسوم بنفسني، وإن كنت أشعر بالخرج إذ أقول هذا أمامك وأنا لم أدرس دراسة حقيقة».

«أوه، كفى سخافة. قطعاً لا بدّ أن تحاول وتفعل شيئاً. تبدو الفكرة أصيلة حقاً ولا يخطر لي أيّ شخص آخر يمكن أن يبرع فيها. اتبع خطى موهبتك. لا تجعل نهايتك كنهايتي، فيكون كلّ شيء في الدرج».

قال ليونارد وقد بلغت به السعادة أن رغب في أن يحوّل تركيز الحوار عنه - ولم يكن يألف الاستماع إلى المجاملات - «سيكون عظيمًا لو رجعت إلى الرسم. أحبّ أن أرى بعض أعمالك، إذا أحببت أن تعرضيها عليّ».

قالت «يعني، سنرى».

فيما ينصت إليها انجرف تدريجيًا في تيار انفتاحها وحماسها. لقد كانت حياة كلّ منهما شديدة الاختلاف عن الآخر. كانت تعجبه فعلاً، فعلاً. ودونها قصد منه، زلّ لسانه بسؤال، سؤال عمّا تراه فيه.

«يعني، لا أريد أن أبدو شخصًا فاشلاً، لكنّك تعرفين ما أعنيه. أفترض أنّني أسألك عمّا إذا كنت ترين نفسك متورّطة، أو مهما تكن الكلمة. ولو أنّ

الأمر كذلك، فماذا عن التورط معي؟ أم أنني محض صديق أو أي شيء آخر أفلاطوني مخيب للآمال من هذا النوع؟»

قالت «أما وأنتك مباشر هكذا في تعليق الأمر عليّ، أظنُّ أنه غريب أنَّا كنَّا نعمل لشهور في مكان واحد ولم يحدث بيننا شيء. لقد تجاهلتك كثيرًا طوال الفترة الأولى. يمكن القول إنِّي عرفتُك لكن الأمر، كما تعرف، ومهما يكن السبب، أنني قرَّرت أن أتجاوزك، لا أعرف فعلًا ما السبب. لكن الأمر أنني قضيت وقتًا طويلًا وحدي مع باتريك، أقرأ ما يقرأه، نقرأ معًا، يعني، وكتبك ليست ككتب غيرك على الإطلاق. فعلًا ساحرة. تبهجه حقًا. كتبك تبدو وكأنَّها من زمن آخر، كأنَّها كُتبت وفي عقلك طفل. فيها قلب حقيقيٌّ. فلمَّا أدركت أنَّك أنت الذي تكتبها، وفي ضوء أنَّك نجم صغير في بيتنا، أو أنَّ النجم على الأقل هو ماكس باكستر، دبلومة التربية، لكنَّه أنت في الحقيقة، كيف كان يمكن ألاَّ أهتمَّ بك؟ ثمَّ حينما التقيتُك، بدا بالفعل، لا أعرف، بدا أنَّك رقيق، وفي النهاية، الأشياء المختلفة التي فعلتها في حياتي، وكلُّ النَّاس الذين التقيت بهم، وبعضهم رجال شديداً الثقة في أنفسهم، ولا أقصد أيَّ إساءة بالمناسبة، أنت تفهمني، أنت لا تستعرض، أنت حقيقيٌّ فعلاً، ولعليَّ أدركت كم هو صعب العثور على ذلك، العثور على الرقة في هذا العالم. وأنت هكذا فعلاً. أعرف أنَّها تبدو مجاملة أفلاطونية، ولكنِّي أعنيها بأصدق معني ممكن. هل أيُّ شيء ممَّا قلته له معنى لديك، أم أنني أهذي بطلاقة بلغة بروسيكو في هذه اللحظة؟»

كان يعرف تمامًا ما الذي تتكلَّم عنه.

قال «أنا حقًا سعيد لأنَّك ترينها هكذا».

«وأنت ما الذي جعلك تهتمُّ بي؟»

صمت للحظة ليضع إصبعه على ما يريد قوله.

ثم قال بمباشرة وصدق «أنت مبهرة».

كان وقت طويل قد مضى، لأيّ سبب مهما يكن، دون أن ينظر أحد في عيني شيلي ويصفها بالتفرد دونها حسابات أو احتمالات. وجاء صدق ليونارد، متخففاً تماماً من التصنع، فبلغ حدّ الكمال. قالت «لا تجعلني أبكي». تكلّما، وتكلّما - وهما يتناولان الآيس كريم الذي طلباه للتحلية والقهوة التي أعقبته. ولما حان الوقت، أشارت بيديها بحركة توقيع الشيك لطلب الحساب.

قال «لا مانع لديّ في أن أحاسب، ما لم يكن في هذا إساءة لك؟».

«لا بأس. أنت تولّيت بالفعل أمر الوجبة السعيدة، فلا يمكن أن أتركك تتولّى هذا أيضاً. لكن أقول لك شيئاً، يمكنك أن تطبخ لي الوجبة النباتيّة في وقت ما إذا أحببت».

«في أيّ وقت. في أيّ وقت على الإطلاق».

اقتسما الحساب، وأجزلا الإكراميّة، طلباً للحظّ السعيد، وبدافع أيضاً من الكرم».

ذراعاً في ذراع سارا، وهما يتكلّمان، ماضيين إلى حيث تقف سيارات الأجرة، ثم تكلّما أكثر وهما ينتظران في الهواء المنعش. وفيما تتأهّب شيلي لركوب السيّارة، ووسط كلّ الاعتذارات بسبب الاضطرار إلى الرجوع إلى البيت لأنّ أختها ترعى ابنها، وقفت أمامه مباشرة.

قالت وهي ترفع رأسها إليه «هذا، بالمناسبة، هو الجزء الذي تقبّلني فيه قبلة جنتلمان».

وبَرَّ ليونارد بوعده لنفسه بأن ينتهز الفرص.

قالت «إذن إلى اللقاء، لا تجعل البروتين يؤرِّقك، اتفقنا؟»

قال ليونارد «تصبحين على خير يا شيلي، وشكرًا بجدُّ على هذا الوقت الجميل».

لوَّحت له مبتسمة ومطلَّة من السيَّارة، ممسكة سمكة ديزني البلاستيكيَّة التي كانت قد نسيت أنَّها أخذتها. ولوَّح لها ليونارد مراقبًا سيَّارة الأجرة إذ تختفي مع امتداد الشارع وحول الميدان المجاور لمتحف التاريخ الطبيعيِّ. وحفاظًا على إطالة أمد مزاجه، قرَّر أن يرجع مشيًا إلى البيت، في تلك الليلة الصافية من الغيم، خفيفَ القلب، لا يعلو رأسه - عدا الكون - أيُّ شيء.

## الفصل الخامس عشر

### خطط السفر

يصعب الآن استيعاب الأمر، لكن حدث في يوم من أيام عصر ما قبل الهاتف المحمول والرسائل النصية، أن كان الناس يتواصلون مع بعضهم بعضًا بتثبيتهم رسائل بالمغنطيس على الثلاجات. وشاعت الطريقة كثيرًا حتى أصبح ذلك هو الغرض الثانوي من الثلاجات نفسها. كانت الأسر تترك تعليمات العشاء، والمراهقون يوضّحون الأماكن التي ذهبوا إليها، والزوجات التعيّسات يطلبن الطلاق، وكل أولئك يستعملون إيجاز همنجواي في رسائل تُثبّت عند مستوى العين بمغنطيسات على شكل أحرف ملوّنة. والحقُّ أنّ الذعر استشرى في مجال صناعة الثلاجات إثر شيوع الرسائل النصية. ثمّ لما أُتيحت الرسائل المجانية، رفع الاتحاد الوطني لأجهزة التبريد (الذي يستغل تماثل الحروف الأولى من اسمه «الاتحاد الوطن لأدوات ما دون الصفر» للحروف الأولى من اسم ناسا فيطلق على نفسه ناسا الأخرى) قضية أمام المحكمة العليا الأمريكية احتجاجًا على انتهاك حقّ أعضائه في امتلاك أسباب الرزق.

بتلك الطريقة البائدة علمت هيلين أنّ هنجري بول استيقظ مبكرًا في صباح ذلك السبت ليذهب بمفرده إلى المستشفى في زيارة للسيدة هاوثرن. من طبيعة هذه الوسيط أنّه لا يتسع كثيرًا لشرح الدوافع، لكن هيلين حدست أنّ القلق من توزيع جوائز الغرفة التجارية في ذلك اليوم هو الذي أيقظ

هنجري بول مبكراً، وأنه أراد أن يفعل شيئاً يخلي به رأسه. وما من وسيلة لمعالجة المرء مخاوفه، كما لاحظت هيلين نفسها من قبل، أفضل من مساعدة غيره على مخاوفه.

تناولت هيلين الرسالة من باب الثلاجة، ومضت تطويها أرباعاً، وفي الوقت نفسه تقلّب الأمر في رأسها. فقد حدث في حالات كثيرة أظهر فيها هنجري بول مثل تلك المبادرات أن سيطرت على نزوعها الطبيعي إلى التشجيع وقد علّمتها الخبرة والتجربة أن أمثال هذه الغزوات عادة ما تتمّ بحماسة خرقاء وتنتهي إلى نتائج مختلطة. يحسب لهنجري بول أنه قهر تردّده في الالتزام وارتبأكه الاجتماعيّ ليثبت على التطوُّع في المستشفى. بدا أن حالة من السلام تجمعهم بالسيدة هاوثرن، إذ يجلسان في هدوء متماسكي الأيدي كما في قصيدة مقبرة أرونديل لفيليب لاركن<sup>(1)</sup>. والمدهش أنه وجد أرضيّة مشتركة مع باربرا نفسها، بكلّ ما لديها من طاقة ثرثرة تصل إلى حدّ السفه، ومن شأنها في العادة أن تثير انزعاج هنجري بول. أرجعت هيلين ذلك إلى كونه في مثل عمر أبنائها الكبار الغائبين، وقد يكون ذلك كافياً في بعض الأحيان تأسيساً لنصف ساعة هانئة. ويحسب لباربرا أنّها سرعان ما أدركت أنّ هنجري بول يكون أسعد حالاً حينها يكون الحوار عفويّاً ويتناول نشاطاً متعا مثل لعبتي درافتس ولعبة سكرابل الهواء الطلق، وخالياً من التواصل بالعيون والأسئلة المباشرة.

كانت هيلين قد توقّعت أن تحتاج إلى حثّ هنجري بول على الانغماس في المستشفى، برغم أنّها لم تكن تخطّط إلى أكثر من إخراجه من البيت وجعله نافعا. كان ينبغي أن يكون ذهابه إلى المستشفى من تلقاء نفسه إشارة إلى أنّ المركبة انطلقت وباتت قادرة على الاستمرار في الحركة بدفعها الذاتي. ولكن

(1) الإشارة إلى قصيدة «An Arundel Tomb»

هيلين كانت قد غرست في نفسها قناعة بأنَّ هنجري بول سيظلُّ إلى الأبد عاجزاً عن الاستقلال الكامل، وركنت إلى تلك القناعة. قد يقترب اقتراباً قاتلاً في بعض الأحيان، فيبثُّ ذلك في نفسها الرجاء، حينما ترى له هواية جديدة أو تسمع غمغميات عن وظيفة كاملة أو إشارات عابرة إلى شقق متاحة للإخلاء لكنَّ مناقشته في طموحاته كانت تغنيه - شأن كثير من الناس - عن الحاجة إلى السعي إلى تحقيقها. أفكارٌ كانت تؤدِّي إلى جهد مخلص، وتؤدِّي إلى إحباط عارم، وتؤدِّي إلى نكوص ويقين من أنَّ التغيير قد لا يكون ضرورياً من الأصل. تلك كانت الدورة التي بدا أنَّها تتجدَّد وتكرَّر بدفع ذاتي. في الوقت نفسه، كانت هيلين وبيتر يكرهان. ولم يعد البيت رهين أقساط، وهو كبير للغاية على زوجين مثلهما. وليس أشبه بالشيخوخة من مساحة مئة يتوالى عليها باستماتة الغبار وتنظيف الغبار. وكان هيلين وبيتر أصدقاء ظلُّوا يؤجلون خططهم حتَّى وجدوا أنفسهم موتى أو أرامل، وآخرون ظلُّوا يعملون احتياجاً إلى المال أو عاجزاً عن مواجهة التقاعد وما يصاحبه من انحسار في الظلِّ وفقدان للمكانة. أمَّا هي وبيتر في المقابل فكم أرادا دائماً أن يعيدا تأسيس العلاقة التي قامت بينهما قبل أن يصبحا أبوين. وبعد سنين من مكافحة المال والقلق، صارا يحلمان باسترداد حياتهما عندما يتقاعدان، فتكون فرجة هنيئة لسنوات من يدري كم تطول قبل أن يحدث المحتوم.

ومع ذلك كان جزء في هيلين يريد التشبُّث في هنجري بول. فقد بقي مقيماً في البيت لفترة طويلة للغاية مخفِّفاً حدَّة أيِّ تؤثر كان يمكن لولا وجوده أن يطرأ على علاقتها هي وبيتر. اثنان يتخبَّط أحدهما في الآخر داخل منزل ضخم، ويعترض كلُّ منهما طريق الآخر، في وفرة من وقت الفراغ يتبيَّن أنَّها ليست علاجاً لضيق الصدر. بقيت هيلين تعمل يومين في الأسبوع، وذلك في ظاهر الأمر، لكي يتسنى لها الوصول إلى سنِّ استحقاق راتب التقاعد الكامل، لكن الحقيقة أنَّها لم تكن مستعدة بعد لاستكشاف ما إذا كان يمكن



لتصوراتها عن الحياة بلا نهاية أو حدود مع بيتر قادرة على الصمود. كان هنجري بول يبت الحياة في روتينها وقد بات حجاباً دون غشاوة الوحدة الخفيفة القادرة على المكوث في البيت الضخم الخاوي. كان لغوه وحضوره الدائم واتساع صدره للثروة والأنشطة العارضة التي تزيد متعتها باشتراك شخصين فيها عوناً لها على أن توفر لبيتر الوقت الذي طالما تاق إلى قضائه منفرداً دون أن تتابها مشاعر الإقصاء.

قال بيتر وهو يدخل المطبخ بعد استلقائه المعتاد في صباح السبت، وتلك عادة من أيام العمل استبقاها في تقاعده، «صباح الخير يا حبيبي. نمت جيداً ليلة أمس؟» وقبل رأسها وهي واقفة إلى الحوض تنظر إلى الحديقة من ورائه. قالت هيلين «نعم، شكرًا يا حبيبي. هل عندك بعض الاحتقان؟ كنت تشخر قليلاً ليلة أمس».

«نحن في الربيع. لعلّ حمّى القشّ في الطريق. هل من أخبار عن ابنتنا ووريشنا؟ لو أنّه نائم فسأبدأ عمل عصيدة لكلينا».

«أبدأ. ترك رسالة بأنّه ذهب إلى المستشفى للقيام ببعض الزيارات. من تلقاء نفسه تمامًا».

قال بيتر وهو يعاير العصيدة «عظيم، وجيدّ له. لعلّك وضعت قدميه على بداية ما هنا».

جلسا لتناول إفطار السبت، ولم يزل كلّ منهما يرتدي البيجامة، بينما يقرأ بيتر بقايا ما لم يكمله في جريدة الأمس. بعد قليل فتحت هيلين المذياع طلباً لشيء من الثروة في الخلفيّة، وكان بيتر في غنى عن ذلك.

نظرت هيلين إلى الحديقة الخلفيّة متحقّقة من أواني تغذية الطيور وقد ملأها هنجري بول قبل خروجه. رأت بعض العصافير عند إناء البذور،

تلتقط ما يروق لها، مبعثرة ما عداها، وغرابين ينقران في كرتي الدسم. قالت  
«هل فكّرت ثانية في رحلتنا؟ أقصد فور أن ينتهي الزفاف، سنكون مستعدّين.  
ربّما نفعل شيئاً مختلفاً بعض الشيء».

«أنا عن نفسي مستعدّ تماماً. لكنني ظننت أنّك تريدان أن تحسمي ما إذا  
كنّا سنصطحب جنابه معنا؟ لن تروق له رحلة طيران بعيدة».

«أعرف، لكنني كنت أفكّر في ما قالته جريس. ربّما خير له ولنا لو ذهبنا  
وحدنا».

«أوافق. آمين. إلى أين تحبّين أن نسافر؟ لا أفضل الذهاب في رحلات  
الاسترخاء البحريّة أو الكثير من الجلوس. ربّما خارج أوربا؟ الولايات  
المتحدة مثلاً، أو ربّما مكان غير غربيّ كثيراً؟ الأرجنتين؟ ما رأيك في الفلبين؟  
«ابعد عن آسيا. جريس ذاهبة إلى كيوتو وستظنّ أنّنا نلاحقها».

قال بيتر مباعدًا ما بين يديه بنحو ثلاث بوصات ضاحكًا «آسيا شديدة  
الاتساع، مع أنّ حجمها على الخريطة لا يتجاوز ما بين يديّ».

رفعت هيلين العصيدة لإيقاف بقبققتها وقالت «فلنفكر في الأمر.  
والأفضل ألا نقول شيئاً الآن. لا داعي لإغضاب أحد».

## الفصل السادس عشر

### الغرفة التجارية

رجع هنجري بول من المستشفى رائق المزاج. ألقى مفاتيحه على طاولة الطرقة، وسار الهوينى إلى المطبخ فقبل أمّه وأعطاهها باقة أقحوان صغيرة اشتراها من المتجر. أمّا والده فهوى بجريدة السبت أمامه على المائدة فكان لها دويٌّ خافت.

مضت زيارات المستشفى بخير. كانت السيدة هاوثرن نائمة حينما وصل، فجلس يثرثر مع باربرا، ورأى السرير الأوسط خاويًا وإن بدا عليه أنّه كان مشغولًا في الليل. حكى لها عن توزيع الجوائز وتذكّر أن يسألها عن أبنائها الكبار، وذلك كلّ في ثنّيا لعبهما باتلشيب التي اصطحبها معه خصيصًا، بعدما اكتشف أنّ سكرابل تجعلها تميل إلى الجدال. وعند خروجه، وبرغم ضيق الوقت، عرج على السيّد هاوثرن ليطمئنّ عليها فوجدها لم تنزل نائمة وإن رأى أنبوبًا محقونًا في ذراعها. جلس في مقعده المعهود بجوارها، وقضى لحظات في سكون إلّا من حشرة قليلة في صدرها مع التنفّس. ولما استيقظت ورأته بجوارها ظهر على وجهها ارتياح ومدّت يدها في وهن لتمسك يده، وكذلك جلسا لعشرين دقيقة أخرى أو نحو ذلك، إلى أن جرفها النوم من جديد. وضع هنجري بول يدها برقة فوق الغطاء وأزاح كأس مائها بعيدًا عن طرف الطاولة الجانبية قبل أن ينطلق راجعًا إلى البيت.

ترك المستشفى بإحساس جديد بالثقة والاستقلال، بقي معه في البيت

وهو يجهّز نفسه لتوزيع الجوائز، حتّى إنّه كان يصفّر ويغنيّ ويصدر أصواتًا عشوائيةً شبه غنائيةً في الحَمَام - لا دا دي، لا دا دا - ونغمات استعراضيةً بلا خلفيةً موسيقيةً معيّنة. وعينه المسوّدة كانت هي الأخرى قد بدأت تصفو وباتت في المرحلة الصفراء. ولكنّ رجلًا مثل هنجري بول، ذا شخصيّة حسّاسة ومركّبة، قد ينقلب مزاجه بسرعة ولأوهى سبب. وفي هذه الحالة، تعرّكّ مرحه باكتشافه أنّ القميص الجديد الذي اشتراه للزفاف - ومضى يجربّه على بذلة الزفاف الجديدة - له أساور مزدوجة. وفيما هو معلّق على باب الخزانة حيث تركته هيلين بعد كيّه، رأى الأساور فانهار على الفور أمام كلّ التعقيدات المتعلّقة بذلك. فالأساور المزدوجة معناها أضرار خارجية، ولم تكن لديه تلك الأضرار، ولا بدّ من استعارتها من أبيه، وما يصاحب ذلك من خوف على ضياعها. وهناك أيضًا الارتباك الذي لا بدّ من أخذه في الحسبان، أي ارتباك التعامل مع آليّة الأضرار الخارجيّة شبه المستحيلة على شخص مثل هنجري بول كلّ أصابعه إبهام. جلس على طرف سريره في سرواله الداخليّ وجوربه، مرتديًا القميص ذا الأساور الغبيّة المتدلّية، فكأنّه شبح ذاته السابقة الواثقة.

على مضض، كان لزامًا عليه أن يسير في نصف ثيابه ليطلب من أبيه أضرار الأساور، فهو غير مؤهّل للتنقيب في أدراج أبيه الخاصّة بنفسه. وبعدها كان لزامًا عليه أن يطلب من أمّه تثبيت الأضرار له، وهي مهمّة بدا أنّه من دواعي ابتهاجها العارم أن تساعد فيه، موضحة أنّه لا داعي للخجل فقد دأبت على مثل ذلك مع أبيه نفسه. ولا فائدة. تبدّدت ثقة هنجري بول السابقة كأنّها بالونة غير محكمة الربط تقافزت في أنحاء الغرفة فاقدة ما فيها من هواء. فلما خرجوا من البيت في طريقهم إلى حفل توزيع الجوائز، جلس في المقعد الخلفي والشبّاك مفتوح، هادئًا، خالي الوفاض من أيّ طاقة اجتماعيّة.

مُرُوا فاصطحبوا ليونارد في الطريق إلى مركز المدينة حيث يجري توزيع جوائز الغرفة التجارية في الثالثة عصرًا أي في ذروة ظهيرة حافلة بما وصف بـ «الأنشطة المجتمعية». أغلق ليونارد باب بيته وانضمَّ إليهم في السيارة، وهو نفسه كان في حالة ذهنية مهتاجة. ففي تصرُّف مازح وعفويٍّ، بعث إلى شيلي رسالة نصية يسألها إن كانت تحبُّ حضور توزيع الجوائز، وقد بات لديه من الثقة بوضعه الجديد كحبيب ما يجعله يعرفها بالناس ويستعرض بها قليلًا. فردَّت عليه ببهجة واعتذار ورفض، لأنَّ عليها أن تبقى مع باتريك. ولكي لا يبدو أنَّه سهل الاستسلام، اقترح عليها ليونارد أن تصطحبه معها، فلا بدَّ من وجود أنشطة للأطفال. فردَّت برسالة لمس فيها نفاذ الصبر قائلة إنَّها ترى أن الوقت لم يحن بعد ليلتقي باتريك وليونارد، فضلًا عن قطعها وعودًا أخرى له ليس من اليسير نقضها. ردَّ ليونارد برسالة قصيرة متفهمة واقترح أن يلتقيا على الغداء يوم الاثنين، مداريًا الكدمات التي اعترت إحساسه بأنَّه قد وضع في حدوده، أي على بضع درجات أدنى ممَّا كان يتصوَّر أنَّه ارتقى إليه.

في ظلَّ إشفاق كلٍّ من ليونارد وهنجري بول على نفسيهما، جلس الاثنان في المقعد الخلفيَّ شبه صامتين. ولما كان كلُّ منهما ينتظر من الآخر بعض الفتور بسبب إلغاء لقاء مونوبولي في منتصف الأسبوع، فقد أساء كلُّ منهما فهم مزاج الآخر، فضاغف كلُّ منهما بذلك نصيبه من التعاسة.

وصلوا إلى حفل توزيع الجوائز متأخرين بعض الشيء فإذا بالقاعة صاحبة بالفعل وممتلئة بالناس. سيطر على الفعالية الطامحة إلى عرض أعظم العقول التجارية في المنطقة إحساس عامٌّ بالعشوائية. انصبَّ تركيز الفعالية الأساسي على الترويج لمشاريع المنطقة الصغيرة والمتوسطة عبر وسيط عابر للعصور هو أكشاك العرض. أخذ مطعم بيتزا محليٌّ يعرض على الناس طريقة فرد العجين، وطلب موظَّف في شركة تبيع شبابيك فيلوكس من فتاتين صغيرتين

إبعاد أصابعهما عن المفصلة المتحركة في نموذج العرض. وفي الركن الأقصى من القاعة أقام القسم المخصّص لمكتبة البلدية معرضًا لأعمال الفائزين في مسابقة الرسم الذين سبق الإعلان عنهم في وقت مبكرٍ من اليوم. كانت الأعمال الفائزة لوحة لكلب صغير حزين مطلٌّ من شباك، وفنار في عاصفة، ورونالدو، وما بدا أشبه بموناليزا لكن بملامح الفتاة الصغيرة التي رسمتها. وفي الركن المقابل سيّدة ترسم وجوه الأطفال وتشكّل البالونات على هيئة حيوانات وبدا أنّها تقضي وقتًا عصيبًا في رسم سبايدرمان على وجه طفل يبكي ولعلّه بحاجة إلى قيلولة. وفي وسط ذلك كلّ رجل يعتمر قبعة بيريه، مطيُّ الوجه بالأبيض وعلى خدّه دمعة بهلوان، مضى يختار عشوائيًا من الحاضرين من يحاكي أفعالهم بالتمثيل الصامت، فينضمُّ إليه الآباء ضاحكين، والآباء بعامة هم الأرواح المرحّة في أيّ أسرة. اقترب فنّان التمثيل الصامت من وجه هنجري بول محمّلًا فيه، راجيًا أن يقلّد تعبير وجهه، فبادل هنجري بول الحملقة في عينيه، وقد لمس فيه مثل ما لديه من متعة الحياة الصامتة. وأخيرًا أشار الممثل الصامت إلى شارة على صدر هنجري بول كتب عليها «ضيف خاصّ»، فلمّا طأطأ هنجري بول إلى حيث يشير، أجرى عليه الممثل الخدعة الشهيرة بأن نقر بإصبعه على وجهه، قبل أن يجري مطلقًا ضحكات هستيرية صامتة.

تحوّلت هيلين وبيتر على الأكشاك، مراوحين بين فضول فاتر ومقاومة لثرثرة الباعة. انطلق منظّم من الغرفة التجاريّة إلى هنجري بول قائلاً «لقيتك! تعال هنا، أريدك أن تقابل الرئيس الجديد، لقد عُيِّن للتوّ. هو الواقف هناك مرتديًا قلادة الشرف. سيعلم الفائز خلال دقائق، فإذا رأيته يقف إلى المنصة، انتظر بجانب خشبة المسرح».

تعرّف هنجري بول برئيس الغرفة، وهو رجل اسمه مايك براين، وهو

أيضاً مالك محل مايكس بايكس لبيع الدراجات في الشارع الرئيسي، قرب المحطة. تكلم مايك في حماس عن المسابقة، مشيراً إلى أن عدد المشاركين ليس المهم ولكن جودة المشاركات، ففحوى كلامه عملياً أن المشاركات الثلاث الوحيدة التي تقدّمت هي فعلياً المشاركات الثلاث التي وصلت إلى القائمة القصيرة. وقف عن يساره المرشحان الآخران، وهما سيّدة أعمال اسمها كارول تدير صالون تجميل وهي أيضاً عضو في الغرفة التجارية. وتقدّمت بمشاركة لما بدا أنّهم لم يتلقّوا أي ردود فأرادت أن تعفي الغرفة من الحرج، ورأى المحكمون أنّ العبارة التي شاركت بها - وهي «رجاء لا تتردّد في التواصل» - «عملية، ومقبولة، وإن لم تكن أصيلة تماماً». أمّا هي فرأت أنّها تتسق مع سمعتها الدائمة بأنّها لها يدين أميتين. والمرشح الثاني سائق - وليس «سائس» مثلما سمع هنجري بول خطأ - اسمه ديرموت، وقد تقدّم للمسابقة بهدف واضح هو الحصول على النقود مباحياً بأنّه يدخل كلّ مسابقة يستطيع دخولها. وكان قبول عبارته - وهي «ولست غريباً أنت صاحب بيت» - موضع جدل، إذ رأى واحد من المحكّمين أنّها «وجيزة، مباشرة، وغبيّة».

تناولت المنظّمة الميكروفون ودعت الناس إلى الترحيب بـ «رئيسنا الجديد» متجاهلة الإيضاح الواجب بأنّها تشير تحديداً إلى رئيس الغرفة التجارية، لا إلى رئيس الدولة. انطلق مايك صاحب مايكس بايكس للدراجات في مبالغة ومغالة يصف طبيعة الفعاليّة الملهمّة، قائلاً إنّها سوف تبقى موضع حديث لسنين وسنين قادمة، مع حشره كلمتين عن المجتمع الذي يقوم على «الوحدة». وفيما يتكلّم، وقف بجواره الممثل الصامت مؤدّياً ما بدا أشبه بترجمة فوريّة إلى لغة الإشارة وإن لم يكن ما يفعله في الحقيقة أكثر من سخرية. بذل مايك - الرئاسي في غفلته - أقصى جهده في إضفاء توتر دراماتيكي على

تقديم المرشحين معلناً أسماءهم بالترتيب المعكوس.

في المركز الثالث، طبعاً، ديرموت سائق سيّارة الأجرة الذي أكسبته مشاركته سلّة من السلع الخاصة بالدراجات، منها عدّة تصلّيح وسروال قصير لركوب الدراجات مع مقعدة لينة للحيلولة دون تقرّحات الفخذين من جرّاء ركوبها. وفي المركز الثاني كارول، وفازت بجلسة سبا في صالونها الخاصّ، وذلك ما وصفه الرئيس مايك بـ «الجزء العادل».

ساعدت عمليّة الحذف هنجري بول على أن يستنتج بنفسه أنّه الفائز حتّى قبل إعلان اسمه. هيلين ويتر أيضاً «أجريا الحسابات» وعانقاه بفخر جليّ. وبقدرات الكاتب الإدراكيّة انضمّ إليهما ليونارد مصافحاً بكلتا اليدين، وعلى وجهه ابتسامة عريضة ردّ له مثلها صديق عمره.

ارتقى هنجري بول الدرجات إلى المنصّة وقد عرضت عليها عبارته الفائزة متصدّرة لوحة بعرض المسرح تكرّمت بالتبرّع بها بيرفكتو برينت - «عليك الكلمات، وعلينا العهد». والعبرة هي:

«عسى أن تنتبه إلى الوارد أعلاه».

وكذلك هو هنجري بول. فالعبرة تفترض أنّ مصلحة قارئ الرسالة الحقيقيّة تكمن في الفقرات السابقة فاكتفت بالتنبيه إلى أهمّيّتها، مع تركها الباب مفتوحاً لاحتمال أن يرى القارئ غير ذلك. والأهم أنّها لم تضيف جديداً إلى الرسالة، فأصابنا بذلك كبد الأمر كلّ، من حيث أنّ العبارات الختاميّة إن هي إلّا أداة لاجتناب أيّ استنتاجات مفاجئة من الرسالة. كان المحكّمون في الغرفة التجاريّة قد شعروا بارتياح عميق إثر ظهور هذه المشاركة الثابتة البارزة من ذلك النطاق المحدود. تعالى تصفيق مدوّ وبعض التهليل، مع تقدّم البعض لقراءة العبارة، وترديد البعض لها بصوت عالٍ ليعودوا أنفسهم على وقعها. وكان بعض رجال الأعمال المتحمّسين يجرون اتصالاتهم بالفعل



طالبين من مساعدتهم تحديث نماذج مراسلاتهم ليكونوا الأوائل في السوق استعماً للعبارة الفائزة. وساد القاعة جوُّ احتفال عارم، مختلط بارتباك، مع تجاهل الرئيس مايك إطلاع الحاضرين من غير أعضاء الغرفة على جائزة المسابقة، وقد التقط الممثل الصامت ذلك كله في أداء مركّب جميل يصعب على الكتابة أن تنصفه.

سلم الرئيس مايك هنجري بول شيكاً ضخماً بعشرة آلاف وتذكّاراً يجسّد بدءاً مبتورة تكتب بريشة. ثم دعا هنجري بول إلى إلقاء كلمة قصيرة بينما الممثل الصامت حاضر للترجمة.

اقرب هنجري بول من الميكروفون واستعرض وجوه الواقفين تحت المنصة. لم تكن الفرصة قد سنحت له من قبل فيرى مثل ذلك الجمع، وكلّ أولئك الناس السعداء المبتهجين، وغير المتابعين تقريباً لما يجري، والذين لا سبب لتهليلهم إلاّ البهجة المحضة بالتهليل. وقف هنجري بول هنالك صامتاً، محملاً في الجمع الذي أخذ يزداد هدوءاً في انتظار أن يقول شيئاً. فإذا بالرئيس مايك، الزعيم بالفطرة، يفترض أنّ في هذا تحطّياً لأعصاب الناس، فهمس «وجّه الشكر للجميع في كلمتين وتمنّ لهم وقتاً طيباً»، ولكنّ هنجري بول بقي كما هو، ساكناً، هادئاً. فما كان من الممثل الصامت إلاّ أن جلس على حافة أرض المسرح، يهرش رأسه وهو ينظر في ساعته. وفي النهاية تناول الرئيس مايك - المحترف الحقّ - الميكروفون فشكر الجميع، متغاضياً عن الخرق المائل قائلاً إنّ الفائز غلبته مشاعره.

وفيا هو مغادر المسرح، تلقّى هنجري بول مرّة أخرى تهنئة أسرته، وأعضاء الغرفة التجاريّة وغيرهم من المهنيين. وأشار ليونارد إشارة إعجاب خاصّة إلى اللمسة الرقيقة في صياغة العبارة الفائزة، فكان لذلك معنى كبير عند هنجري بول، فليونارد لم يكن صديقه المقرب فقط، بل هو أيضاً كاتب

محترف يعرف عن أي شيء يتكلّم.

طلب صحفيّ في صوت المجتمع من هنجري بول تصريحًا يدرجه في مادة إعلانه عن المسابقة فلم يقابله مرّة أخرى سوى الصمت. ومن ورائه وقف الممثل الصامت يؤدّي حركة من يغلق شفّتيه بسحاب، ثم حركة شنق نفسه، قبل تقطيعه رأسه بيديه. سأله الصحفي «هل تمزح أم ماذا؟» فبقي هنجري بول واقفًا كما هو، مستمتعًا باللحظة استمتاعه بحمّام ساخن. في الأسبوع التالي نشرت صوت المجتمع تحقيقًا حول الفعالية على صفحتين احتوى صورة كبيرة لهنجري بول مع تعليق «جملة بألف كلمة»، ومقتطفات مطوّلة منسوبة إلى هنجري بول يتكلّم فيها عن العمل العظيم الذي قامت به الغرفة التجارية، وقد كتبها جميعًا الرئيس مايك وبعثها إلى الصحفي في رسالة إلكترونيّة عقب الحفل.

بانتهاؤ توزيع الجوائز، خفت أيضًا بقيّة الأنشطة المجتمعيّة، إذ أخذت القاعة تفرّغ بما يسمح بتحويلها السريع إلى ديسكو بلا كحوليات يقام للمراهقين في غضون سويّعات قلائل.

في حين كان ليونارد يساعد بيتر في إدخال الشيك العملاق إلى حقيبة السيّارة، وهو ما اقتضى إزاحة الغطاء التحتي، جلس هنجري بول على الدرج مع الممثل الصامت وقد تخلّص من شخصيّته وأخذ يدخن سيجارة ويثرثر. بدا أنّ لدى الاثنين كلامًا كثيرًا انتهى بمصافحة وتلقّي هنجري بول بطاقة الرجل. وفيما قرّر ليونارد أن يرجع إلى البيت مشيًا لتصفية ذهنه، قاد بيتر السيّارة بهيلين وهنجري بول مبتهجين جميعًا بالفوز بكأس البطولة. أمّا الرجل نفسه، المستمتع بالهواء المنفّع عبر الشباك المفتوح، فجلس في المقعد الخلفي، مرتديًا بذلته الجديدة، بذهن منفتح تمامًا، شأن أساور قميصه المزدوجة.

## الفصل السابع عشر

### عشاء عائلي

بعد يوم غريب في حفل توزيع الجوائز، وصلت هيلين وبيتر وهنجري بول إلى البيت ممثلين بالبهجة والخمول. كان ينتظر أن تأتي جريس وأندرو في اليوم التالي لحضور عشاء الأحد، فتقرّر في الخطّة الأصليّة أن يُخصّص مساء السبت لتجهيز الطعام وترتيب البيت. لكنّهم بدلاً من ذلك أنفقوا مزاجهم الجماعيّ الرائق في العثور على مكان لتعليق الشيك العملاق، قبل أن يفتحوا علبة حلوى يأكلونها وهم يشاهدون برودواي داني روز<sup>(1)</sup>.

هكذا لم يشهد صباح الأحد استرخاء مطوّلاً في السرير، إذ كان كلّ شيء مرتّباً على أساس أن يبدأ اليوم بداية عسكريّة صارمة. توزّعت المهام واتّفق على المدد الزمنيّة بنيّة تقديم نظام مريح وطعام ساخن لجريس وأندرو عند وصولهما في الظهيرة.

وسرّ نجاح الأمر كلّهُ هو، بالطبع، ألاّ يعترض أحدهم طريق الآخر. تولّت هيلين مسئوليّة الوجبة الرئيسيّة فذهبت بالسيّارة إلى المحلّات فور فتحها لشراء عدد صغير من اللوازم ومنها الملح والمريميّة، أي الأشياء التي نادراً للغاية ما تشتريها فلا تلاحظ مطلقاً نفادها إلى أن تفاجأ به. تولّى بيتر أمر المقبّلات والتحلية، فالأولى منهما جبن الماعز وسلطة الجوز ويقوم بإعدادهما في وقت الحدث نفسه فور وصولهما، والتحلية فواكه معلّبة وآيس

(1) Broadway Danny Rose فيلم أمريكي من إنتاج 1986 وإخراج وودي آلن

كريم الفانليا في ارتدادة إلى أيام الطفولة من شأنها أن تسعد جريس فضلاً عن تجاوز مشكلة أن بيتر شاهد الفيلم في الليلة السابقة بدلاً من أن يعدّ كعكة بافلوفا. وهنجري بول تولّى مهمّة سلال القمامة - ومنها الصغيرة في الحمامات وغرف النوم - وتجهيز المائدة، والوظيفتان هما قوام مسؤوليّاته المنزليّة في أغلب حياته الراشدة، فضلاً عن إعادته ملء أواني إطعام الطيور يومياً، وإن لم يعدّ تلك مهمّة حقيقيّة.

كانت جريس وأندرو قد مرّاً بآيام قليلة مزدحمة. وبرغم عقدتهما العزم على إدخال بعض الرومنسيّة إلى جدولهما، فقد قضيا أغلب الوقت في السيّارة بين رواح وغدوّ، يأتیان بأشياء ويذهبان بأخرى، ويقومان بشتّى التفاصيل الصغيرة التي تضيّ على يوم الزفاف نكهة النجاح. تضمّنّت قائمة المهامّ العثور على شمعة سميكة غير معطرّة للزفاف، وعمل أشرطة الفراشات لطرفي الممر، وشراء قلم مميّز لتوقيع القسيمة، ورسم علامات ملونة لإرشاد الضيوف إلى الكنيسة غير الواقعة على الطريق، وشراء الثياب اللازمة لهما في شهر العسل بكيوتو، حيث تصل درجة الحرارة - مثلها - إلى أواسط الثلاثينيّات.

في صباح اليوم المحدّد للعشاء العائليّ، خرجت جريس بمعدة خاوية للجرى، وانتهت مرغمةً على الرجوع إلى البيت مشياً، منهكة إلى حدّ الاستنزاف. دخلت السرير مرّة أخرى معترمة النوم لنصف ساعة، لكن أندرو تركها تنام، فاستيقظت متأخرة على الاستعداد في الوقت المناسب، فكان عليها أن تسارع معتلّة المزاج متيّسة الجسم. وتشاجرا في السيّارة وهما في الطريق، فهو يلومها على التسبّب في تأخيرهما في كلّ زفت الطين مرّة، وهي تلومه لأنّه لم يوقظها في الموعد الزفت الذي حدّدته، وبخاصّة لأنّه أصرّ أنّه ما من داع لضبط الزفت المنبّه. وصلا متأخرين ثلاثين دقيقة، وقد

استطاعا بشقّ الأنفس أن يشتريا في الطريق نبيذًا ووردًا. لكن حينما فتح بيتر الباب تحوّلًا إلى صورة سعيدة للوحدة العلنيّة، وكانت بيتر وهيلين نسخة مطابقة من الصورة، وقد شهدا هما أيضًا للتوّ لحظة توتّر بسبب الوضع الراهن للمقبّلات.

قالت هيلين في ترحاب «جميل أن أراك يا حبيبي» وهي تأخذ الورد من جريس وتتبادلان القبّلات الحذرة على الوجنتين بحيث لا يتأثّر التجميل «أوه، شكله جميل جدًّا، لم يكن هناك داع فعلًا، لكن شكله رائع. مرحبًا يا أندرو يا حبيبي، شكرًا على حضوركما. لا بدّ أنّكما مشغولان».

قال أندرو «جميل أن أراك يا هيلين» متقبّلًا عناقها «آسف، مرّت فترة طويلة، كنت أسافر وتعرفين هذه الحال. كيف حالك؟»

قالت هيلين «عظيم، عظيم، ادخلا. تفضّلًا، سأتناول عنكما المعطفين. أحسنتما بارتداء ثياب ثقيلة، الجوُّ لا يزال قارسًا في الخارج، حتّى في الشمس» وأثقلت على قائمة سور السلم الداخليّ بالمعطفين.

في صالة البيت كان هنجري بول قد جلس للتوّ بعدما فرغ من جميع مهمّاته ليقرأ ناشونال جيوغرافيك التي استعارها من المكتبة.

قالت جريس مبتهجة برويّة هنجري بول «وها هو رجل الساعة، تعال، هات حضنًا. أنا فخورة بجائزتك. أحسنت. سنرى إذن عمل يديك في نهاية جميع مراسلات شركتنا أم ماذا؟»

قال «شيء من هذا القبيل. تبدين بخير. أرجو ألا تكوني مشغولة أكثر من اللازم بالزفاف وما إلى ذلك. مرحبًا يا أندرو، تفضّل تفضّل، كيف حالك؟»

قال أندرو «كلّه تمام، شكرًا. جميل أن أراك» معانقًا هنجري بول معانقة رجاليّة بملامسة كتف بالكتف المعاكسة انتهت قبل أن يعرف هنجري بول

كيف يردّها. قال أندرو «مبارك عليك الجائزة. بأيّ عبارة فزت؟ شكرًا لك على الانتباه إلى الوارد عاليه، أو شيء مثل ذلك؟ مبارك. سنبدأ الآن في استعمالها، وسوف تستهر».

قال هنجري بول «هذا ما لا أعرفه. سيحضر أبي حالًا. هو مسؤول المقبّلات، أعتقد أنّه بالداخل يتولّى عمل بعض السلاطة».

دخلت جريس إلى المطبخ وعرضت المساعدة باحثة عن السكّينة الوحيدة الحادّة في الدرج العلويّ.

قال بيتر «استريح أنت يا حبيبتى، أنا بخير. ومعى عين أمّك الحارسة تتابع أنّى بخير. يمكن أن تفتحي زجاجة نبيذ إن أحببت. افتحي الزجاجاة اللطيفة التي جئت بها معك وليست البشعة ذات الغطاء المعدني التي اشتراها أخوك، هذه من كولمبيا. من في الدنيا يشرب نبيذًا من هناك؟»

تلقّت جريس طلبات الشراب من الجميع، وعلى الجنب عرضت على أندرو أن تسوق هي إن أراد أن يشرب، لكنّه قبلها على جبينها وقال إنّّه بخير، وسوف يسوق، فعاد كلّ ما بينهما صافيًا صفاء الحليب.

نادت هيلين «كلّ واحد إلى مكانه»، ففسحة المشروبات الأولىّة تبدّدت بسبب وصول جريس متأخّرة، بما تسبّب أيضًا في فرض ضغط على التوقيت الذي حدّدته هيلين لتسوية الدجاج. جلس الجميع حول المائدة دونما ترتيب محدّد، فيما عدا جلسة هيلين أقرب ما تكون إلى الباب ليسهل عليها تقديم الطعام. قبل سنين كانت هيلين قد أرادت أن تفتح غرفة الطعام على المطبخ لتتيح مساحة مفتوحة في الطابق السفلي، لكنّ بيتر توّسل إليها ألاّ تفعل ذلك، فلم يكن يريد أن تكون خلفيّته وهو يتناول العشاء مؤلّفة من الغسّالة ومجفّف الغسيل. وانصاعت لرجائه، وللأسف الشديد أصبح المطبخ الآن معزولًا عن بقيّة الطابق السفلي، بما يعني أنّه لا مجال للثرثرة في ثنايا إعداد

العشاء، فضلاً عن المسيرة الطويلة عند إحضار الأطباق من المطبخ إلى غرفة الطعام. لم يبال بيتر بهذا، إذ كان يستطيع حمل أربعة من أطباق المقبلات في المرة الواحدة: طبق في كلِّ يد، فضلاً عن طبقين متوازنين على إبهاميه وخنصره، مثلما يفعلون في المطاعم. كان خبيراً في نقل حمولة رجل كسول وقادراً على إدارة مقابض الأبواب بعجزته، وإغلاقها بمرفقيه، وإضاءة المصابيح وإطفائها بذقنه. غير أنَّه في هذه المرة جعل هنجري بول يساعده، وقد تعرض بالفعل لانتقاد هيلين فلم يشأ أن يتعرَّض لمزيد من المحاسبة إذا انسكب شيء.

فيما مضوا يجهزون على المقبلات - شاعرين جميعاً بالجوع وقد كتبوا شهيَّاتهم طيلة الصباح - استأنفت جريس وهيلين حديث ترتيبات الزواج. قالت جريس «في المقام الأوَّل، يقول بائع الكعك إنَّ متجره مغلق في يوم الجمعة الطيِّبة ولكن عليَّ أن أبعث له رسالة نصيَّة فينزل ويفتح المحل خصَّيصاً، لأنَّنا إذا لم نأخذها الجمعة إلى الفندق، سيكون علينا أن نفعل ذلك يوم الاثنين، لأنَّ مسؤول الزفاف عندهم سيسافر في العطلة الأسبوعيَّة ولا أريد أن أسلِّمها لشخص غيره».

قال بيتر «يمكن أن أفعل ذلك بدلاً منك إذا أحببت».

«لا عليك، شكراً يا أبي. لم أكن لأبالي بالتأكيد لو أنَّ كلَّ شيء كما ينبغي أن يكون فأجري مراجعة أخيرة مع مسؤول الفندق قبل يوم الاثنين. بائع الورد يجب أن ينهي عمل الباقات في مساء الأحد، لكنَّه عيد الفصح وهو ليس متأكِّداً من الموعد بدقَّة لأنَّه يقول إنَّ لديه التزامات عائليَّة وما إلى ذلك، والصرامة أنَّه بطيء في الردِّ عليَّ. أرجو ألاَّ نضطرَّ إلى استعمال خدمة زهور المحطَّة في اليوم نفسه. لا أريد أن أسير في ممرِّ نفوح منه رائحة الديزل وكأنَّني عروس سائق شاحنة. هل لا تزالين قادرة على توليَّ أمر هدايا الحضور

يا ماما؟ ستولّينها أنت ووالدة أندرو».

قالت هيلين «طبعًا، سيكون لطيفًا أن أرى أبويك مرّة أخرى، يا أندرو. لم نلتق بهما منذ فترة غير قليلة. الأفضل أن نلتقي بهما مسبقًا، لكن لا عليك».

قال أندرو «هما مشتاقان إلى ذلك يا هيلين. أمّي تحجل بعض الشيء من التجمّعات الكبيرة لذلك يسرّها أن تتكلّم معك. ستكونان على مائدة واحدة، فيتاح المجال للتواصل هناك».

قال بيتر «وكيف حال أبيك، ألا يزال يلعب الجولف من غير مستحضر للوقاية من الشمس؟»

«نعم، يلعب بضع مرّات في الأسبوع مع أصدقاء قدامى من العمل. ويطلب منّي دائمًا أن ألعب لكنني لا أفعل مطلقًا. يجب فعلًا أن أذهب على أيّ حال، ولكنّ حسّه التنافسيّ عالٍ للغاية، فلا يكون الوقت لعبًا بمعنى اللعب. هل سبق أن لعبت الجولف يا بيتر؟»

قال بيتر «لعبت مرّة الجولف المصغّر مع أمّكم. لكنني خسرت» وابتسم وهو يلكر هيلين قائلًا «وكان عليّ أن أدفع الغرامة».

قالت هيلين «كفي يا بيتر. لا يعقل أن تحكى حياتنا كلّها على الملأ. دعك منه يا أندرو. هو لا يحبّ ممارسة الألعاب وليس بارعًا فيها».

قال هنجري بول «هذا صحيح، عندنا مخزون من الألعاب لم يلعب أيّ واحدة منها إلّا مرّة. يفضّل ألعاب أسئلة الرقعة، وهي تقريبًا ليست ألعاب رقعة أصلًا. مثل ترفيال برسوت<sup>(1)</sup> وما يشبهها. أليس خوض امتحان فعليّ خيرًا من ذلك؟» كان هنجري بول مخلص الإيمان بأنّه لا يجب لأحد أن ينجح في لعبة إلّا لمهارته في اللعبة ذاتها، وأنّ من الغشّ أن يعتمد لاعب على معرفة

(1) [Trivial Pursuit] لعبة قائمة على إجابة أسئلة في المعلومات العامة.



مكتسبة من خارج اللعبة.

كانوا جائعين جميعًا فانتهوا من المقبّلات بسرعة، حتّى بطيئة الأكل في الأسرة، أي جريس التي كانت تستمتع أيضًا بالنيبذ الذي جاءت به.

قامت هيلين لتحضر الدجاج، شاكراً ورافضة بتربيّة عرض جريس بأن تساعدّها، ومضيفة إلى كأس نبيذها، قالت «استريحى، أنت واقفة على قدميك طيلة الأسبوع. ليكن اليوم راحة. تعال يا بيتير وأرنا مهاراتك الجرسونيّة في الطبق الرئيسيّ».

قال بيتير «كلّ شيء أمامك عيانًا بيانًا يا أندرو. فور أن يلبسن الخاتم، يتحوّل الرجل بالنسبة إليهن إلى فرد خدمة، فضربته هيلين بمنشفة المائدة على يده عقابًا على ما قاله. وبعدها خرجا، ارتشفت جريس من النيبذ ونظرت إلى هنجري بول الذي لم يكن يميل كثيرًا إلى الشرب.

«احكِ لي عن الأمس. هل حصلت على تمثال أو شيء كهذا؟»

«نعم حصلت» وقال بصوت شبحيّ «ها هو هناك، يد مبتورة» مشيرًا إلى التمثال الموضوع على رفّ المدفأة. «حصلت أيضًا على جائزة نقدية».

سأله أندرو وجريس معًا «ها، كم المبلغ؟»

«مبلغ معقول بالفعل - عشرة آلاف».

قالت جريس في دهشة حقيقة «اللعة! هذا مبلغ حقيقيّ من المال. والو، الآن أقول ليتني شاركت».

«وحصلت أيضًا على واحد من هذه الشيكات الضخمة. موجود بالأعلى، أبي قال إنّه سوف يصنع له إطارًا. ليس شيكًا حقيقيًا، لا يمكنك صرفه، لكنني لم أعرف ذلك إلى أن جاء الرئيس إليّ وسلّمني الشيك الحقيقي وأنا أغادر».

قال أندرو منبهراً «أكان الرئيس حاضراً؟»

«يعني، ليس الرئيس. ولكنه رئيس الغرفة التجارية، مايك براين. صاحب مايكس بايكس للدراجات في الشارع الرئيسي».

قالت جريس «أهو ذلك المتجر ذو اللافتة الجاهلة؟»<sup>(1)</sup>

«هو بعينه. وهو رجل لطيف في الحقيقة، ويرتدي قلادة شرف وكل شيء، يتعاملون مع الأمر بمنتهى الجدّة».

قالت جريس «واضح أنهم يفعلون، عشرة آلاف ليست نكتة. اللعنة»

قال أندرو «فماذا ستفعل بالنقود؟»

«أوه، لا أعرف. لم أفكر في الأمر فعلياً».

قال أندرو كاشفاً عن قدر زائد قليلاً من الانتباه إلى مسألة النقود «فعلاً؟ ألم تشارك أصلاً من أجل ذلك السبب؟ أليس هناك ما تريد أن تدلّ نفسك به؟»

«في الحقيقة لا. لم أكن أحاول الفوز. الأمر أنني رأيت أن لديهم مشكلة وفكرت أن لديّ حلاً يمكن أن يساعدهم. ليست لديّ مواهب كثيرة يمكن أن أجعلها نافعة، كما تعلم، لكن في هذه الحالة فكّرت أنني قد أقدر على المبادرة، وتبيّن أن هذا صحيح. النقود في الحقيقة كانت فكرتهم هم. أرادوا أن يحدثوا جلبة، وأنتم أدرى برجال الأعمال، والشيء الوحيد الذي يثير الانتباه عندهم هو النقود».

قالت جريس «نعم، لكن عليك أن تفكرّ فعلاً في هذا. أقصد أن المبلغ كبير. يمكنك أن تفعل به شيئاً ذا شأن»، وكانت قد انتهت من كأسها الثاني،

(1) تصف جريس اللافتة بالجهل لأنها تحمل عبارة Mike's Bike's وصوابها Mike's Bikes

بعدما جعلتها صدمة المبلغ تتجرّع المزيد، بكلّ ما في كلمة «تتجرّع» من معنى .  
قال هنجري بول دون أن يفكر كثيرًا «الأمر أنّني لست معتادًا على النقود،  
فلا أريد أن أضيعها. أعتقد أنّني سوف أضعها في الاتحاد الائتماني<sup>(1)</sup> عسى أن  
تنفع في يوم أسود، من يدري».

«لكن، لكن عليك أن تفكر في هذا. أقصد، أنّ أمّي وأبي، بمنتهى  
الإنصاف، يريانك دائمًا، ولا يطلبان منك مطلقًا أن تضع يدك في جيبيك،  
أفلا ينبغي أن تفكر مثلًا في شخص آخر؟ تفعل مثلًا شيئًا لطيفًا لهما؟ أقصد،  
أنّهما لا يكلفانك إيجارًا وأبي هو الذي أعطاك النقود لشترتي بذلة الزفاف،  
وأنت لا تعطيها شيئًا من نقود مكتب البريد، والآن وقد أصبح لديك  
قرشان، تريد أن تترك النقود تتعفن في جمعية البناء أو ما لا أعرف ماذا...».  
قال أندرو مصحّحًا «الاتحاد الائتماني».

قالت جريس في حدة وقد أزعجها أنّه قاطعها «شكرًا لك، الاتحاد  
الائتماني. أقصد أنّه ألا ينبغي أن تأخذ الأمور بمزيد من الجدّة مرّة؟ نحن  
جميعًا نتحرّك، أنا أتزوّج، أبي يتقاعد، أمّي على وشك التقاعد خلال سنة،  
وأنت لا تزال تلعب في البيت لعبة التخمين أو ما لا أعرف ماذا وتعمل يوميًا  
في الأسبوع إلى متى أو ماذا؟ ألن يتغيّر هذا الوضع؟ ألن تتغيّر أنت؟ عندك  
فرصة لأن تربط رباط حذائك أو أيًا ما تكون العبارة». ملأت جريس كأسها  
وهزّت الزجاجاة من طرفها في حيرة كأنّها فرغت بسبب تسريب أو ما شابه.  
«عليك أن تفكر في الأمر، هذا كلّ ما أقوله. هل تعديني بهذا؟ أرجوك، عدني  
بهذا؟» وتوقّفت وقد ضبّطت نفسها موشكة على الغضب.

---

(1) the credit union مؤسسة ماليّة تعاونيّة شبيهة ببنك تجاري لكنّها خاضعة لسيطرة

قال هنجري بول «أوكيه، أعدك»، وهو لا يعرف بالضبط ما الذي أغضب جريس وفوجئ بها في صوتها من حدة. كان بطبيعته شخصية لا مبالية، لا يشعر بإهانة إلا نادراً، إن شعر بها، ويميل دائماً إلى ترجيح الظن الحسن وتقدير الظروف. لقد ظنَّ أنَّ جريس ستفرح له. فكلُّ ما أَرادَه هو أن يقترح عبارة بسيطة يمكن أن تساعد الغرفة التجارية على حلِّ مشكلة حارت في أمرها. وكان ليفعل ذلك لو لم يكن في الأمر نقود أو جائزة. لقد كانت حالة من الحالات النادرة التي يرى فيها الحلَّ، كما يحدث حينما تقع عينه على فجوة في سكرابل لم تقع عليها عيون بقيَّة اللاعبين في أدوارهم. والآن وقد صار لديه نقود، لا تعني له الكثير، فسيكون من دواعي سروره أن يعطي بعضها لأبويه أو كلاًها، لكنَّه لم يخطر له أنَّ لهما اهتماماً بها. فوالده يحتفظ بمكافأة التقاعد دون أن يمَسَّها منذ تقاعده. والظاهر أنَّ بيتر لا يعرف أصلاً فيم يمكن أن ينفقها، بعيداً عن السفر، وحتى في السفر لا يبدو أنَّ هيلين متلهِّفة على الالتزام بأيِّ شيء. ربَّما يكون بوسعه أن يتحمَّل نفقات إجازة؟ هل كان ذلك ما ترمي إليه جريس؟ أم لعلَّها ستمتِنُ لمساعدة ما في الزفاف؟ كلاهما لديه وظيفة جيدة، لكنَّ تكاليف الزفاف كبيرة وقد تكلَّما أكثر من مرَّة عن التقليل في هذا الشيء أو ذاك، ولا بدَّ أنَّ الحيرة التامة إزاء عدد المدعوِّين والمرافقين تتعلَّق بالنقود، أم ماذا؟ لعلَّ الأمر كذلك. وفي تلك الحالة، بوسعه أن يرى سرَّ غضب جريس. لا بدَّ أنَّها واقعة تحت ضغط تنظيم كلِّ شيء ولا بدَّ أنَّها في هذا الوقت قد تجاوزا ميزانيتهما. طبعاً. هو أخوها الوحيد، ولن يخذلها. سيعرض عليها بعض النقود للمساعدة. ربَّما يعطيها المال قرضاً، لأنَّ كبرياءها ستمنعها من قبولها إلا بذلك. لكنَّه لن يتكلَّم عن النقود، وإذا حاولت هي أن تردَّها، سيصرفها عن ذلك، ويقول لها إنَّه نسي الأمر، وإنَّها هي الأخرى يجب أن تنساه.

قالت هيلين وهي تدخل الغرفة مبتهجة ووجهها محمّرٌ من حرارة المطبخ «وها نحن الآن. آسفة على الاختفاء بهذه الطريقة، لكن أرجو أن توافقوني على أن الأمر استحقَّ الانتظار». وأعطت جريس وأندرو طبقيهما أولاً، بالدجاج المشوي، والبطاطس المطبوخة بدهن الإوز، والخضراوات المشوَّحة في الزبد والمريمية مع قليل من صلصة عيش الغراب على الجنب. تبعها بيتز بالأطباق الثلاثة الأخرى قبل أن يذهب مرّة ثانية للمجيء بطبق الزبد الذي كان هنجري بول قد نسي وضعه على المائدة.

قالت هيلين «هياً كلوا. هل سمعتم كلَّ شيء عن توزيع الجوائز بالأمس؟ نحن فخوران به جدًّا. كان رجال الأعمال جميعًا يتسابقون على مصافحتك، صحَّ؟» والتفتت إلى هنجري بول الذي لم يكن قد أفاق بعد. «سنظِّلُ نقرأ كلماتك لسنوات قادمة. ولن نتذكَّرَ بها موهبتك وحسب، بل اليوم اللطيف الذي قضيناه أيضًا».

كان فرحها حقيقيًّا، ينمُّ عن طرب قلبها من اجتماع أسرتها كلّها بعد يوم استثنائيٍّ، وفي انتظار يوم استثنائيٍّ آخر آتٍ في الطريق. لم تكن ترغب في أكثر من طبخ وجبة لطيفة لهم، لولديها الكبيرين اللذين تمضي أمورهما من حسن إلى أحسن.

## الفصل الثامن عشر

### مرحبًا يا مارك!

أنهى ليونارد التحرير الأخير لكتاب الشركة الخاص بالرومان. وانتهى الكتاب موجزًا وافيًا لمعلومات وسرديات جافة، معروضًا في أسلوب واضح لكن عديم الروح، من شأنه بلا شك أن يكون أساسًا لمئات المشاريع المدرسية القابلة للنسيان التي يصححها المعلمون في أوقات فراغهم، ويحصل التلاميذ فيها على درجات متماثلة تقريبًا. والآن تهيأ الوقت لليونارد كي يعمل على كتابه الخاص في الموضوع نفسه، والذي كانت مسودة متقدمة منه قابعة في درجه العلوي منذ ذلك اليوم السعيد الذي وافقت فيه شيلي على مقابلته للتمشية في الحديقة. كان الكتاب في شكله الراهن تصويرًا للحياة ولد روماني صغير، غير أن ليونارد أدرك وهو يراجع المسودة أن الولد لم يزل حبيس النمط المعتاد العام، وأنه يفتقر إلى الشخصية الفريدة. لم يكن بعد الولد الذي يرغب الأولاد في السفر عبر الزمن ليكونوا إياه أو ليكونوا معه، فليس لديه حس فكاهة ولا مزاج، وتنقصه الأفعال والتفاصيل. كان على ليونارد أن ينفخ فيه الروح، ولكي يفعل ذلك، فهو بحاجة إلى من يكتب من أجله، من يوفر له الحافز ويقوم مقام جمهور مثالي يلقي عليه القليل من لحظات الفكاهة والحساسية. وهكذا عزم على أن يكتب الكتاب لابن شيلي الصغير باتريك، فأطلق على الولد الروماني اسم باتريوس.

بدا الكتاب الآن قابلاً لنطاق من الاحتمالات البراقة. فكّر ليونارد كيف

يمكن أن يكون ردُّ فعل باتريك على كتاب موضوعه هو ذاته الرومانيّة، فدفعه ذلك إلى الرغبة في ملء الكتاب بمعلومات مهمّة ومثيرة ومعيشيّة، لا أن يقصره على توافه جافّة تذبل في قعر حقيبة مدرسيّة، وإنّا بمعلومات تحمل الحياة نفسها، كأثّها رسل من الماضي. رسم ليونارد الولد باتريوس وهو ذاهب إلى المدرسة مرتدياً ثوب التوجا، وحول عنقه قلادة البولا درءاً للشر، يلعب بالدمى في سنوات ما قبل وجود المسيح وسانتا كلوز، لو أنّ بوسع باتريك أن يتصوّر تلك الحقبة الجذباء. رسمه وهو يلعب النرد بعظام حقيقيّة، وجعل في الكتاب صفحتين عن أمّ باتريوس التي نالت حريّتها بعد انتصارات كثيرة في المجالدات. وفي الصفحة التالية أدرج قسمًا مطويًا قابلاً للفرد يعرض محتويات علبة الغداء الخاصّة بباتريوس، ففيه شريحة من رغيف إيمير، وبعض التمر، وجزرة بنفسجيّة. لكنّ ليونارد أراد أن يعطي باتريوس سماتٍ علاقتها بالرومان أو هي من كونها انعكاسًا لمن تكون أمّه شخصيّة فريدة مثل شيلي. كتب ليونارد أنّ باتريوس كان يجذُّ في المحاولة ويبدل أقصى ما يقوى عليه من العمل وإن زاد عمّا يروق له. كان باتريوس يرسم ويغني كلّ يوم. ويطرح الكثير من الأسئلة ويردُّ على أمّه بغلظة، فيتعرّض للتوبيخ، وإن كانت أمّه تكتّم رضاها حين تلاحظ أنّ الأرواح المستقلة لا تخطئ أيّ جيل. كان يأوي إلى فراشه متأخرًا كلّ مساء، ويذهب إلى الطبيب كلّما مرض، ويفرح حينما يقع أحد أسنانه، وأهمُّ ما يمكن معرفته عن باتريوس هو أنّه يشترك في حياته مع أسرته. رسمه ليونارد كبير الجسم، ذا شعر متماوج أحمر، وعينين خضراوين ويرتدي - برغم أنف الدقّة التاريخيّة - نظّارة حرب النجوم، ووصفه في مربع بأنّه ذو قلب كبير وخيال كبير.

علم ليونارد - وقد عمل في عدد كبير من الكتب - أنّ لديه من التفاصيل ما يكفي لإعداد مقترح للكتاب. مشكلته الوحيدة أنّه لم يكن قد كتب مقترحًا

لأَيِّ عمل له شخصيًا. كان في العادة يترك تلك المهمة للكاتب المشرف ولا يعرف بالأمر إلا عند التكليف بالكتاب. وبعد تأمل للحظات قليلة، عزم أن يغتنم الفرصة ويبحث مقترحه ومقتطفًا من الكتاب للشخص الوحيد الذي هدهد إليه تفكيره:

إلى: مارك باكستر [himark@markbaxterbed.com](mailto:himark@markbaxterbed.com)

«مرحبًا يا مارك

أرجو أن تكون بخير. بلغني أن الطلب مرتفع عليك هذه الأيام في المؤتمرات الهاتفية، فسأخني على الإزعاج، لكنني أعمل على مشروع تصورت أنك قد تكون مهتمًا به...»

بذل ليونارد أقصى ما في وسعه ليرُوج الكتاب لدى مارك باكستر، دبلومة التربية، مع كل الاحترام الواجب، راجيًا أن يحصل على عونه في الانتقال من غرف المغمورين الخلفية إلى مكانة الكتاب. وكان عليه أن يعالج ذلك الأمر بحساسية، فقد كان فعليًا يطلب من مارك أن يساعده لكي يتجاوز، لكنه فكّر أن مارك حاضر في المجال منذ زمن كاف وسوف يساوم على نصيب له وإشارة على الغلاف، حتّى لو لم يتجاوز دوره إعادة توجيه الرسالة الإلكترونية. لم يكن ليونارد في حالة مزاجية تسمح بمساومة شاقة. فأنهى الرسالة بالصيغة الرسمية التي اعتمدتها سياسة الشركة أخيرًا:

«عسى أن تنتبه إلى الوارد أعلاه».

ليونارد

ضغط على «إرسال» وشعر كما لو أنّه ألقي بالونًا مائيًا فوق سياج خاص. والآن وقد بعث المقترح صار عليه أن يزيد من سرعة العمل لينهي الكتاب تحسبًا لأن يهتمّ مارك باكستر، دبلومة التربية، ويطلب الاطلاع على مسودة



كاملة. لكنّه لاحظ أوّلاً أن الساعات الأربع الحاضرة في مجال رؤيته - أي ساعة معصمه، وهاتفه، وحاسبه، وهاتفه الأرضي - تعرض أربعة توقّيات مختلفة، بما يعني كونه إمّا مبكّرًا قليلًا، أو في الوقت المضبوط، أو متأخرًا بعض الشيء عن موعد غدائه مع شيلي. كان ليونارد قد ربّب معها أن يلتقيا عند موقف الدراجات، تفاديًا لأيّ استظراف مكتبيّ مرفوض من جريج موظف الدعم الفنيّ. لم يكن يطيق صبرًا لكي يخبرها بفكرته أن يؤلف الكتاب لباتريك وعنه، وأنّها ألهمته أن يبعث الكتاب إلى مارك باكستر، دبلومة التربية. وأنّها لم تضيف إلى حياته إلّا الخير منذ أن دخلت إليها.

لما وصل إلى موقف الدراجات كانت شيلي تنتظره بالفعل، وكالعادة مثقلة مثل حصان العمل بكلّ عدّة ركوب الدراجة.

قال «مرحبًا، كيف الحال؟ دعيني أحمل هذا عنك. كيف كان صباحك، وعطلتك الأسبوعيّة، بالمناسبة؟»

«أتصوّر أنّها جيّدة. خرجت فقط مع باتريك. كان يشعر ببعض الملل من بقائه في البيت، ومع ذلك لم يشأ أن يخرج. يحصل له هذا أحيانًا. الأولاد يضجرون بعد أسبوع في المدرسة، لكن لم أكن لأتركه في البيت يلعب ليجو طيلة اليوم، فوعده برحلة إلى السينما».

«وهل من عرض جيّد؟ هل ذهبتما لمشاهدة فيلم الوجبة السعيدة؟»

«لا في الحقيقة. لم يخطر لي هذا قطّ. شاهدنا أحدث جزء في سلسلة «شرطة في الظلام»<sup>(1)</sup>. يعني، القالب المعتاد مع أطنان من النكات الملقاة على رؤوس الأولاد والآباء. غلبني بعض النعاس في السينما وباتريك تقريبًا أراد الخروج فور انتهائه من مأكولاته. كان في إحدى تلك الحالات المزاجيّة

صعبة الإرضاء. وماذا عنك، كيف مضت أمور صديقك في حفل توزيع الجوائز؟»

«عظيم، فعلاً، جيّد جداً. الحقيقة أنّه فاز. حصل على تمثال ليد مبتورة وشيك عملاق بعشرة آلاف. وضعناه بصعوبة في حقيبة السيارة».

«ياه، يا لها من جائزة! هل يمكن صرف تلك الشيكات العملاقة؟»

«أبداً. ولكنهم يقدّمون شيكاً حقيقياً أيضاً. سوف يضع الشيك العملاق في إطار».

«وماذا سيفعل بالنقود؟»

«صعب أن يعرف هذا. لم يسبق له أن حاز أيّ نقود قطّ، وليس له اهتمام عظيم بها. أخته سوف تتزوّج في اثنين عيد الفصح، فكان يتكلّم عن احتمال أن يساعدها في ذلك. حجزت للحفل في وايتثورن كاسل، ولا يمكن أن يكون هذا رخيصاً. كان عليهم أن يقلّلوا عدد المدعوّين، وللأسف، اضطرت إلى أن أتخلّى عن مرافق دعوتي».

سارا قليلاً ولكنّ الحوار انتهى. مع هنجري بول لم يكن يهاب ركوب موجات الصمت مهما تكن، ولكنّ الأمور مختلفة مع شيلي، فقد كان الإبقاء على الحوار في بعض الأحيان أشبه بتشغيل سيارة على سفح تلّ.

سألته «بالمناسبة إلى أين نحن ذاهبان؟ هل عندك أيّ فكرة؟»

قال ليونارد «ما رأيك في متحف الجثث المتحجّرة؟»

«أوكيه، لم أرها من قبل. هل هي مخيفة؟»

«أوه لا، لا أظنّ ذلك. ما هي إلّا جثث قديمة متجلّدة في شظايا وقطع. مع ذلك يمكنك أن تري جميع ملاحظاتها تماماً، بل إنّ بعضها له شعر».

قالت في محاولة لإثارة ابتسامة دون أن تنجح في ذلك كثيرًا «أوكيه، يبدو الأمر مثيرًا، ولكنني لن أحسبها ضمن الاحتمالات الرومنتيكية إلى أن أراها».

توقّف الحوار من جديد. لاحظ أنّ شيلي هي ضابط الإيقاع بينهما، فحين تكون إيجابية متوهّجة، يكون كلّ شيء عظيمًا، وحينما تكون هادئة، يكافحان.

سأل وهما يقتربان من المعرض «كلّ شيء على ما يرام؟»

«إمممم. يعني، شوف، الحقيقة لا. هناك شيء أريد أن أسألك عنه، لكنّه نوعًا ما غريب».

شعر كأنها شبح يتهاذى ماشيًا بداخله. قال «أسألي فورًا».

«الأمر يتعلّق بباتريك. بباتريك وي يعني. أنا أستمتع فعلاً بوقتنا الذي نقضيه معًا، أنت وأنا يعني، وأحبُّ طريقتنا في الكلام ببطء عن أيّ شيء، ولكنني فقط فكّرت في ما قلته في رسالتك عن مقابلة باتريك. فاجأتني نوعًا ما. لم أعرف بالضبط ما قصدك. يعني، لا أعرف، أردت أن أسألك».

«آه، فهمت. للأمانة أنا لم أفكّر في الأمر. خطرت لي فقط سؤال عمّا لو أنّك قد تحبّين أن تنضمّي إلينا، ولو كان باتريك يشغلك، فكان يمكن أن يأتي هو الآخر. ولا شيء أكثر من هذا. الأمر حسبما بدا في ظاهره تمامًا، وإلخ إلخ».

كانا واقفين على باب المعرض. شعر ليونارد أنّه في امتحان ولكنه لم يفهم السؤال.

«باتريك هو دنيائي يالئونارد. كرّست حياتي لرعايته. ولا أريد أن أربكه».

«أوه، طبعًا، طبعًا».

«ما أقصده هو أنّني لا أستطيع أن أعرفه بأيّ رجل واعدته بضع مرّات».

بدا التوصيف لليونارد قاسي الوضوح.

«أوه، أفهمك طبعًا، أقصد أنني لم أشأ قط أن أقحم نفسي على ما بينك وبين باتريك. فقط كنت أحاول أن أتصرّف بلطف».

«أعرف، أعرف. أنا لا أنتقدك. الأمر أنني لا أستطيع أن أقول له من أنت، إنك الذي تكتب كتبه المفضّلة، ثم أجعله يقابلك، ثم لا تنجح الأمور بيننا، ويشعر هو أنّه مرفوض ومتروك، وأنا لا أريد أن يحدث هذا. لا أستطيع أن أصطحبه هكذا دون أن أشرح له من أنت. ليس اسمك فقط وإنك تؤلّف الكتب، ولكن من أنت بالنسبة إليّ، وبصفة خاصّة، من أنت بالنسبة إليه هو. هل تفهمني؟ هل تفهم أن هذا مهمّ بالنسبة إليّ؟ ولماذا هو شديد الأهميّة؟»

اندفعت بينهما مجموعة سياحيّة من الطلبة الإيطاليين، جميعهم يرتدون سترات منتفخة وجينزات ضيقة. مرّت دقائق قبل أن يتقدّم رتل المراهقين الصاخب. نظرت شيلي إلى ليونارد عبر فرجات ما بين الطلبة وعلى وجهها تعبير حزن رقيق. ولعلّ ليونارد كان يمكن أن يقول شيئًا بعدما عبروا جميعًا، أو يفعل شيئًا، أو يوصل بطريقة أخرى إلى شيلي أنّه يفهم، يفهم تمامًا، ما ترمي إليه. كانت تبعث إليه نداءات استغاثة ترتدّ إليها دون اطلاع عليها. علم ليونارد أنّ شيئًا مهمًّا يجري، ولكن الأمر أنّه لم يكن واثقًا من طبيعته، الخبرة الدقيقة المفترضة فيه تعوزه تمامًا.

«تمام، هل نتقدّم الآن إلى الداخل؟ لا بدّ أن الجثث سينفذ صبرها».

استشعر صدى لسخافته في كلّ شيء من حوله. رأى نفسه ولدًا كبيرًا في حوار بين راشدين. اكتشف ذلك.

ألقت شيلي عليه نظرة أخيرة عميقة مليئة بالأسى والأسف والروح وقالت «أنا سأذهب يا ليونارد».

فقال ليونارد، مذعورًا مشلولًا، مقطوعًا عن أعماقه «أوه، أوكيه. ربّما في

أخذت منه شيلي لباس ركوب الدراجة.

«إلى اللقاء يا ليونارد».

وقف لدى باب المعرض، يشاهدها وهي ترتدي - في آخر منظر يصلح للسينما - لباس ركوب الدراجة. ابتسمت له ابتسامة بطوليّة شحيحة بذلت أقصى ما في وسعها لكي لا تتحوّل إلى ابتسامة باكية حتّى استدارت ومضت في طريقها. وقف ساكنًا، مبهورًا من معنى كلّ ما جرى، مشاهدًا درّاجتها تمضي وسط المرور مبتعدة عنه.

شاعرًا أنّه مفكّك، وبحاجة إلى مكان ما هادئ يللملم فيه شتات نفسه، انساق ليونارد إلى المعرض، فجلس وحيدًا في غرفة معتمة الإضاءة. وبمحاذاته في خزانة عرضٍ جثّة رجل يرقد منبطحًا منذ ألفي سنة، لم يزل على الوضع الذي كان عليه حينما تغيّرت حياته كلّها.

مكتبة

t.me/soramnqraa

## الفصل التاسع عشر

### لعبة الحياة

في مساء ذلك اليوم، بعد العشاء، جرّ ليونارد قلبه الثقيل إلى بارلي فيو بحثاً عن صداقة بلا تعقيد، وشيء من ألعاب الرقعة. كان الناس الطيبون أصحاب شركة ميلتن برادلي لألعاب الرقعة رواداً أوائل في حركة رياض الأطفال، فجاءت أفكار كثير من الألعاب الكلاسيكية التي حملت علامة م ب التجارية على مدار السنين رقيقةً مراعية لغرض تربويٍّ أخلاقيٍّ. ويصدق ذلك بصفة خاصّة على لعبة الحياة، وهي لعبة رقعة تنافسيّة مبهجة ترمي إلى تهيئة اللاعبين للنعم والنقم التي رأى السيّدان ميلتن وبرادلي أنّها تمثّل حقيقة الحياة. بدا لليونارد أنّ اللعبة لها وقع جديد وخاص، ففي الأسابيع الأخيرة فقد أمّه، وورث بيتاً، وسلك في عمله وجهة جديدة، وقابل - ولعلّه خسر أيضاً - أكثر من رأى في حياته من الفتيات تفرّداً. ففيها أخذ يحرك قطعته على الرقعة، وهي سيّارة مقعد السوافة فيها شاغر وما من قطع حمراء أو زرقاء على مقعدها الخلفي، انتبه إلى أنّ أمام عينيه نمطا مألوفاً من الوقّعات والقوّمات. ومع أنّ هنجري بول يحترم خصوصيّة أفكار الرجل، ويستمتع عادة بفترات الصمت الممتدّة مع صديقه، لكنّ القلق اعتراه ممّا رآه في ليونارد من غمٍّ، ولمّا تجاوزت يد ليونارد في لحظة ما الشوكولاتة والبسكويت الممتاز لتتناول من كعك الجنزبيل كانت تلك علامة أكيدة على أنّ الأمور جميعاً ليست في نصابها.

غامر هنجري بول قائلاً «ما الحكاية؟»

جاء صوت ليونارد من وراء حجب الضباب «عفوًا؟»

«قلت ما الحكاية. لا تبدو طبيعيًا بالمرة. ضيّعت فرصتين لشراء رمز الحالة، وأهدرت فرصة مقاضاتي بسبب أضرار، وتبدو قائمًا بالخروج في رحلة فاشلة إلى القطب الجنوبي، وتمضغ كعكة جنزبيل وهو ما يبدو لي، بأمانة، نقطة تحوّل».

«أوه نعم. أنا لست على طبيعتي هذا المساء. كنت أرجو أن أتعافى، لكنني أعتذر، كان يومي صعبًا».

سأله هنجري بول «أرى هذا. مشكلة رومانية؟»

«لا، الرومان لم يتسببوا في أيّ أذى. المشروع كلّهُ في الحقيقة يمضي على نحو جيّد. إنَّها شيلي. حدث بيننا أمر بسيط، مشكلة بسيطة وأعتقد أنّي قد أكون فقدتها».

«أوه، قلت لي! ماذا حدث؟»

«لا أعرف».

«ماذا تقصد؟»

«أقصد أنّي لا أعرف ماذا حدث».

قال هنجري بول «إذا كنت لا تعرف ماذا حدث، فكيف تعرف أنّه حدث؟ أنا لا أفهم. وإذا كنت أنت لا تعرف وأنا لا أفهم، فليس بوسع أيّ منّا أن يسوق في هذا الطريق. ما رأيك أن نحاول من جديد، فتقول لي مثلاً ماذا قالته؟»

قال ليونارد «قالت إنّني لا أفهم».

«وعندها حق».

«قالت إنني لا أفهم وضعها مع باتريك».

«ولست كذلك؟»

قال ليونارد «كذلك ماذا؟»

«تفهم يعني؟»

«شوف، في العطلة الأسبوعية اقترحت عليها أن تحضر معي حفل توزيع الجوائز لكنّها كانت مشغولة بباتريك، ففكرتُ أنّ بوسعها أن تحضره معها. وهي لم ترد أن تفعل ذلك، من ناحية، لأنّه سيريد أن يعرف من أنا وكلّ شيء عن الوضع بين شيلي وبينني. وسط كلّ تلك التعقيدات، أظنّ أنّ شيلي أرادتني أن أقول أو أفعل الشيء الصحيح في اللحظة المناسبة، لكنني فعلاً لم أعرف ما الذي أرادتني أن أقوله، فإذا بي أفعل أيّ شيء أخرق ولعلّها الآن تفكر أنّي شخص ميثوس منه وأنّ من حسن حظّها أنّها اكتشفت ذلك حينها اكتشفته حتّى لو كان فيه إيذاء لمشاعرها على المدى القريب».

قال هنجري بول في حكمة «والمدى القريب هذا كثيراً ما يمتلئ بالمشاعر».

«المسألة أنّها شخص حسّاس برغم أنّها تبدو إيجابية تماماً في ظاهرها. والأمر أنّ الحسابات عندها أكبر ممّا هي عندي. فهي تفكر في باتريك والمستقبل، في حين أنّ كلّ ما أفكر فيه أنا هو هل يا ترى أصطحبها إلى مطعم لطيف أم إلى معرض الجثث؟».

قال هنجري بول وهو يلعب دوره «الجثث؟»

«نعم، أجرينا هذا النقاش ونحن في طريقنا إلى معرض الجثث المتحرّرة، ثمّ رجعت هي إلى البيت قبل أن تدخل المعرض».



«أمر مؤسف - بعضها لم يزل عنده شعر على فكرة. المهم ما موقفك أنت من مسألة باتريك كلّها؟ أتصوّر أنّ الانتقال من عزوبة طويلة الأجل إلى أن تلعب دور الأب في أسرة جاهزة ليس بالأمر السهل».

«لا أعرف. لم أفكر حتّى تلك المسافة. كلّ ما أردته هو أن أعرف شيلى، وأجد لنفسي مكانًا في حياتها، ولها في حياتي، وأتعامل مع البقيّة حينها يأتي أوانها».

قال هنجري بول وقد استقرّت سيّارته في المحكمة وتحتّم عليه أن يفقد دورًا في اللعب «وما العيب في هذا؟»

قال ليونارد «لا أعرف. لكن يبدو أنّه خطأ. يتبيّن أنّه في الواقع أمر مؤذٍ». «فهمت. من الصعب فعلًا عدم إيذاء الناس. حتّى بعدم فعل أيّ شيء، يمكن أن تجد نفسك قد آذيتهم. يبدو أنّه في إجابة السؤال عمّا إذا كنت ملعونًا هناك علامة x في خانتي نعم ولا. الدور عليك».

قال ليونارد وهو يدير الساقية «أنا أصلًا لا أعرف ماذا يفترض أن أفعل في الوقت الراهن. أعني، هل تنتظرنى الآن أن أتصل بها أو أبعث رسالة أم ماذا؟ ولو فعلت فلا أعرف ماذا أقول. لكنني أشعر مع كلّ دقيقة أسمح بمرورها أنّها تنسرب مبتعدة من حياتي. ماذا تفعل لو كنت مكاني؟»

«للأسف هذا ليس مجال خبرتي، لكن لو قرّرت أن تبعث لها رسالة نصيّة فبوسعي أن أقترح عليك عبارة ختامية سهلة تمامًا».

قال ليونارد «آسف لكلامي طيلة الوقت عن نفسي. ما أخبار الزفاف؟ هل رجعت بذلتك من التنظيف بعد حفل توزيع الجوائز؟»

«أعتقد أنّ خطط الزفاف تسير على ما يرام. هناك مشكلة مع عازف أرغن تتعلق باتفاق صعب، لكنّ الأمور تبدو جيّدة. جريس هذه الأيام متوتّرة

وانتقاديّة لكنّ أمّي تحاول أن توفّر لها دعماً معنوياً. لها ولنا. وبذلتني لم أبعثها إلى التنظيف بعد: أحتاج إليها يوم الأربعاء لحضور مقابلة».

«أيّ مقابلة؟»

«آسف، لم أخبرك قطّ. نعم، عندي مقابلة. كنت أتكلّم مع ذلك الممثل الصامت في حفل توزيع الجوائز، هو هولندي، اسمه آرنو، وله علاقة بالاتحاد الوطني للتمثيل الصامت. قال إنهم يبحثون عن متحدّث باسمهم وفكر أنّني قد أكون مناسباً، وسألني إن كنت أحبّ أن أجري مقابلة. هو عائد إلى هولندا وهم بحاجة إلى شخص يشغل الوظيفة بسرعة قبل رجوعه. تصوّر أنّني قد أكسب الوظيفة بعض المكانة بسبب المسابقة، وأنّني قد أتوافق مع مجتمع التمثيل الصامت».

«لو أنّ الصمت غايتهم، فكشّافو المواهب عندهم يستحقّون الثناء لعثورهم على رجلهم حقّاً. لكن كيف يكون للاتحاد الوطني للتمثيل الصامت متحدّث باسمه؟ كنت أتصوّر أنهم لا يتحدّثون».

«ذلك هو الأمر. يشعرون أنّ التمثيل الصامت في طريقه إلى الاندثار وأنّ الجميع لا يتذكّرون إلّا مارسيل مارسو ومشيه مقاوماً الريح<sup>(1)</sup>، مهما يكن جيّداً. في أيّامنا هذه أصبح الرجال الذين يقفون في الشوارع ساكنين سكون التماثيل أشهر من الممثلين الصامتين».

سأل ليونارد براءة «أليس هذا تمثيلاً صامتاً؟»

قال هنجري بول ضاحكاً «لا يا رجل. ناس التماثيل هؤلاء في حرب

(1) (1923-2007) ممثل فرنسي، ويمكن العثور على فيديو لمشهد مشيه مقاوماً الريح الجدير بالمشاهدة، عبر جوجل بالبحث باسمه Marcel Marceau وكلمات (walking in the wind)

مع الممثلين الصامتين، ووقعت حوادث قليلة والأمر قد يتفجّر بينهم في أيّ يوم. مشكلة الممثل الصامت أنّ الحياة الآن شديدة الصخب، وهم يتخلّفون عنها. نحن نعيش في عصر الجعير. صوت الجميع زاعق في الكلام وفي التفكير، بلا متّسع أو متنفس للحديث الهادئ أو الصمت. فبطريقة ما، ليس الأمر أن أكون متحدّثًا باسم الاتحاد الوطني للتمثيل الصامت، بل متحدّثًا باسم الصمت شخصيًا.

«وماذا ستقول في المقابلة؟»

«كنت أفكّر أن أطلب منهم إن أمكن أن يكون يوم الاثنين إجازة حتّى أستطيع الوفاء بوعودي لمكتب البريد».

«وهل هذا كافٍ ليضمن لك الوظيفة؟»

«قد لا يكون. ما الأسئلة التي يطرحونها في العادة؟ أنا لم أجر مقابلة من قبل، ووظيفة مكتب البريد حصلت عليها من خلال أبي».

«بصفة عامّة يحاولون في العادة أن يعرفوا إن كنت زعيمًا بالفطرة، ملهمًا، شخصًا قادرًا».

«أعتقد أنّي أقدر على أشياء كثيرة لو جرّبتها، لكنني عمومًا لا أجرّبها، فلعلّي أقرب إلى شخص غير قادر؟»

«أعتقد أنّ هذه بداية. لا تفكّر في الأمر أكثر ممّا ينبغي. لعلّ الممثلين الصامتين يفضّلون شخصًا أقرب، فاهم، إلى الهدوء».

قال هنجري بول في تأمل «فعلاً. فعلاً».

## الفصل العشرون

### أبو العروس

لم يكن بيتر قد كتب بعدُ حرفًا من خطبته ولكنه أفسح المجال لتراكم مجموعة نافعة من الأفكار على مدار الأسابيع السابقة. وطلب من جريس مقابلته ليتمشيا قليلًا ويناقشا بعض الأمور، وأيضًا ليطمئن أنها لم تنهر بعدُ تحت وطأة توتر ما قبل الزفاف، وذلك ولا شك كان تقدير هيلين للوضع برمتة.

قضى بيتر حياته المهنية اقتصاديًا جوالًا، بدأ بالعمل باحثًا، ثم محاضرًا، قبل أن ينعطف انعطافة كارثية ويصبح اقتصاديًا مقيمًا في بنك، ثم أخيرًا في المنعطف الأخير من حياته المهنية رجع إلى الساحل الأكاديمي ممارسًا أحب ما مارسه طوال حياته، وهو تدريس الاقتصاد للشباب المهتمين. رأى مجال الاقتصاد يتغير على مدار السنين. فحينما بدأ، كان الجميع مثاليين يؤمنون أن في أيديهم قطع اللغز الناقصة الكفيلة بحلّ المشكلات المجتمعية. وبمرور الوقت بدا أن الوظيفة تتغير فلا تقوم على فهم السوق وفكّ شيفراته، بل تتحوّل إلى وظيفة تناصر السوق. باتت وظيفة مفتقرة إلى التنوع الأيديولوجي متناقضة المناهج، تزدري التركيز الرخو على الإنسانية في العلوم الاجتماعية، ولكنها في الوقت نفسه غير ملتزمة فعليًا بالتجريبية المنهجية في العلوم الفيزيائية. وبدلاً من ذلك انتهت إلى مادة إضافية على دراسات الفنون والأعمال، أو يغلب عليها خرّيجو الرياضيات الذين يجدونها أيسر من الرياضيات الحقيقية.

على مدار تلك الفترة برع بيتر في العروض والمحاضرات. كان يعرف كيف يؤسّس حكاية ويضع فيها ما يبدو أنّه عفويّة محسوبة تبدو وكأن لم يبذل فيها جهد. فتجمّع لديه على مدار مسيرته الوظيفيّة الطويلة مخزون منظّم من النواذر الطريفة والاستطرادات التي تنال من نفسه - فهي أحيانًا عن هيلين أو ابنه، وإن لم يأت على ذكر أسمائهم - فكان ذلك يعينه على أن تبقى عروضه طازجة بما يسلي زملاءه الذين يستمعون إليه بانتظام. طالما عجب بيتر من أن المنظومين هم أفضل المتحدثين، ربّما لأنّهم أقلّ جديّة في نظرهم إلى أنفسهم من رجال الأعمال الاستعراضيين الذين يقبضون ثمن ظهورهم وحده في المؤتمرات. بيتر كان يعمد إلى حيلة بسيطة: لم يجعل نفسه الموضوع قطّ. لم يجعل نرجسيّته أو سمعته هي الغاية قطّ، بل أفسح مجال البروز والسطوع دائما للموضوع. وبرغم إلقائه شديد السلاسة، كان يستعدّ بدقّة، ويركّز كثيرًا على إدامة ما أطلق عليه «ذهنيّة الملاك» وذلك يعني أن يهدأ وهو يلقي ما يلزم إلقاؤه، ويتحفّز بالقدر الكافي فلا يتلقّى لكمة في وجهه. وبقدر براعته، كان ذلك الأمر يستنزف منه الكثير. حتّى أنّه في مؤتمر قبل بضع سنين ألقى محاضرة طويلة أمام قاعة رقص تغصّ بخبراء دوليّين في الاقتصاد المناخيّ، فلمّا تملّك منه الإنهاك أغلق على نفسه باب غرفته الفندقية لما بقي من المساء وأجهز على تمثالين ضخمين لسانتا من الشوكولاتة.

خطبة أبي العروس سوف تختلف قليلًا. علم بيتر أنّه بحاجة إلى أن يتجاوز الأداء وينهي بتنهيدة. أراد أن يحفر في نفسه بحثًا عن أصدق ما يمكن أن يقوله. وبرغم الصعوبة كان عليه أن ينقّب متجاوزًا حبّه الواضح وولعه بجريس، ليصل إلى جوهر علاقتهما المصهور، حيث تشكّلت الروابط العميقة في ما بينهما. وأراد لها في المقام الأكبر أن تستهلّ حياتها الجديدة بمباركته التامة، وأن تعلم أنّ زواجها ليس محض خطوة إلى الأمام أو تخليًا

عَمَّا سَبَقَ، بَلْ هُوَ دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى أَنَّ لَهَا سُلْطَانًا تَامًا عَلَى حَيَاتِهَا، وَأَنَّ قُدْرَتَهَا، بِمَا لَهَا مِنْ غَرَائِزٍ وَحَسَنٍ تَقْدِيرٍ، عَلَى أَنْ تَمِيطَ اللثَامَ عَنْ طَرِيقِهَا إِلَى السَّعَادَةِ، هِيَ تَتَوَجَّعُ لِعَصَامِيَّتِهَا فِي التَّعَلُّمِ وَالتَّمَرُّسِ.

حَضَرَ بَيْتَ الْكَثِيرِ مِنْ خُطَبِ آبَاءِ الْعَرَائِصِ عَلَى مَدَارِ السَّنِينَ، أَلْقَاهَا أَصْدِقَاءُ لَهُ وَزَمَلَاءُ، فَاشْتَرَكَتْ جَمِيعًا فِي أَنَّهَا الْعَنْصَرُ الْوَحِيدُ مِنْ يَوْمِ الزَّفَافِ الَّذِي لَمْ يَشْهَدْ حَدُوثَ أَخْطَاءٍ. فِي أَسْوَأِ الْحَالَاتِ، كَانَتْ الْخُطْبُ تَفْتَقِرُ إِلَى الْأَصَالَةِ بَعْضُ الشَّيْءِ، أَوْ تَنْتَهِي رَقْصَةً تَانِجُو ثَنَائِيَّةً بَيْنَ الْأَبِّ وَابْنَتِهِ، لَكِنْ لَمْ يَحْدِثْ قَطُّ أَنْ احْتَوَتْ مَا لَمْ يَكُنْ يَلِيقُ أَنْ تَحْتَوِيهِ. فَالرِّجَالُ مِنْ أَبْنَاءِ جِيلِهِ بِصِفَةِ عَامَّةٍ يَعْلَمُونَ كَيْفَ يَضْبُطُونَ النِّبْرَةَ فِي هَذِهِ الْمُنَاسَبَاتِ، وَيَدْرِكُونَ حَقَّ الْعُرُوسِينَ فِي بَعْضِ التَّكْرِيمِ فِي هَذَا الْيَوْمِ الْخَاصِّ.

كَانَ إِعْجَابُهُ بِأَنْدَرُو كَبِيرًا. حِينَمَا التَقَى هُوَ وَهَيْلِينُ بِهِ لِلْمَرَّةِ الْأُولَى تَسَاءَلَا إِنْ كَانَتْ جَرِيسُ قَدْ بَحِثَتْ فِيهِ عَنْ حَبِيبٍ مِثَالِيٍّ: حَسَنَ الْمَظْهَرِ، يَبْدُو أَنَّ لَدَيْهِ بَعْضَ الْمَالِ، مَهْذَّبٌ مَعَ الْوَالِدَيْنِ، لَكِنَّهُ يَخْلُو مِنَ الْإِبْدَاعِ أَوْ الْجُمُوحِ اللَّذِينَ اقْتَرَضَا دَائِمًا أَنَّهَا جُزْءٌ مِنْ ذَوْقِ جَرِيسُ فِي الرِّجَالِ. أَصَابَتْهُمَا وَظِيفَتُهُمَا بِدَهْشَةٍ مِمَّا ثَلَّةَ. فَقَدْ كَانَا يَتَصَوَّرَانِ دَائِمًا أَنَّهَا سَتَنْتَهِي إِلَى الْعَمَلِ فِي مَجَالِ إِبْدَاعِيٍّ، وَإِنْ فِي جَانِبِهِ الْعَمَلِيٍّ، فَتَكُونُ مَدِيرَةَ جَالِيرِي أَوْ مُحَرِّرَةَ أَدِيبَةٍ. فَنَجَحَتْ بَدَلًا مِنْ ذَلِكَ فِي مَا وَصَفَتْهُ هَيْلِينُ بِـ «الْوِظِيفَةِ الضَّخْمَةِ» فِي شَرِكَةِ أَمْرِيكِيَّةٍ مُتَعَدِّدَةِ الْجَنْسِيَّاتِ. وَبِمَرُورِ الْوَقْتِ تَنَامَتْ وَظِيفَتُهَا حَتَّى زَحَفَتْ عَلَى وَقْتِهَا زَحَفَ اللَّبْلَابِ، وَإِنْ تَكُنْ لَمْ تَيَاسُ بَعْدَ مِنْ اسْتِرْدَادِ بَعْضِ التَّوَازُنِ فِي حَيَاتِهَا الْجَادَّةِ الْمَزْدَحْمَةِ.

بِمَرُورِ الْوَقْتِ رَأَوْا الْجَانِبَ الْأَعْمَقَ مِنْ شَخْصِيَّةِ أَنْدَرُو، وَإِخْلَاصَهُ فِي مَشَاعِرِهِ، وَأَهَمَّ مِنْ ذَلِكَ تَفَانِيَهُ مِنْ أَجْلِ جَرِيسُ. كَانَتْ جَرِيسُ قَدْ قَضَتْ كَثِيرًا مِنْ حَيَاتِهَا وَهِيَ «تَعِيشُ مَعَ» أَشْخَاصٍ، فَهِيَ بِحَاجَةٍ إِلَى مَنْ يُمْكِنُ

الوثوق به، وتأوي إليه، وتعتمد عليه. بدا أن أندرو يفهمها أكثر على ذلك المستوى، يفهم ذلك الجانب في شخصيتها النازع إلى الانسحاب والذي كان لم يزل غامضاً على أبويها، وبخاصة هيلين.

ظلاً بيتر يتذكر دائماً ذلك الولاء المبهج الذي أظهره أندرو في أيامهما الأولى حين مرضت جريس بالحُمى العقيدية، وصعب عليها أن تسمح لنفسها أن تكون موضع رعاية صديق جديد قبل أن تسنح لها فرصة وضع شروطها الخاصة للعلاقة. ولكن الأب الذي يرى شاباً - أصغر من أن يعرف كم هو صغير - يعتني بابنته ويحسن الاعتناء بها، ويرى ابنته نفسها، وهذا هو المدهش، تسمح له بذلك، فإنه يدرك أن الطبيعة تأخذ مجراها.

كان بيتر قد رتب لمقابلة جريس في قسم المجلات بمتجر الصحافة في القرية، بحيث يستطيع من يصل منها أولاً أن ينتظر في الدفء، بعيداً عن المطر، ويشغل نفسه ببعض التصفُّح العابر. وصل بيتر مبكراً وفتح إيكونوميست ولاحظ أنها لم تزل توصي بأوليات الاقتصاد لحلَّ أيِّ أزمة يشهدها العالم.

وصلت جريس بعد دقائق قليلة وقبّلتها على خدّه قبل أن تلقي عليه التحية.

«أوه خدك بارد. كيف الحال؟»

«بخير، بخير، آسفة أن تأخرت قليلاً، لم أجد مكاناً للسيّارة. أين تحب أن نمشي، نبقى في المنطقة، أم نشطع بعيداً؟»

«يعني، ما دامت سيارتك في الموقف، فلنبق في المنطقة. حول خلفية ملعب الجولف مثلاً؟»

«أوكيه. ويمكن أن نبيع ما نجد من كرات الجولف تمويلاً للزفاف».

سارا معًا وجريس واضعة ذراعها في ذراع أبيها، وقد اشتد نسيم أبريل وصارت في الهواء لسعة برد هيئة وقد بدأت الشمس تغوص. لفت جريس رأسها بوشاحها الصوفي وأخرج بيتر قبعته اللينة، فلم يكن أيُّ منهما ليخاطر بالإصابة ببرد الرأس على تلك المقربة من الزفاف.

سأل «والآن كيف تمضي جميع الترتيبات؟»

«بخير، بخير، المعتاد».

«أرجو أن تكوني مستمتعة بالتجهيز وألا تكون الأمور تكالبت عليك. أنت دائماً تقسين على نفسك».

«شكراً يا ماما. يمكن أن تقول لها إنني بخير بل بدأت أسترخي قليلاً. التقيت وأندرو اليوم على الغداء ولم نناقش أصلاً ترتيبات الزفاف. فقط جلس محملاً في حُبِّ بينما آكل من البيتزا الخاصة به».

«لست طبيياً، لكنني أعتقد أنك إذا أكلت البيتزا الخاصة بشخص آخر، فإنها تظلُّ إضافة إلى سعراتك الحرارية. وبجد الآن، هل يؤرِّقك أيُّ شيء يمكن أن أساعد فيه؟»

«لا أخفي عليك أنني أتلهَّف إلى وقت، وأرجو ألا يكون بعيداً جداً، يتوقَّف الناس فيه عن سؤالي عن حالي، وعن سير الأمور، وهل أشعر بالإثارة. لا أريد أن أبدو جاحدة، والناس في الحقيقة طيبون معي، لكن سيكون لطيفاً أن أرجع شخصاً عادياً يشارك في الحوارات. أنت تعرفني، لا أحبُّ الجلبة وأبذل أقصى ما في وسعي لأجاري الحدث، ولكن الأمر بدأ يرهقني، وشخني بدأ ينذر بالنفاد».

«أعرف ما تعنيه. مثل هذا الوضع يصدُّ بعض الأنفس عن الزفاف كله، لكن عندما يأتي اليوم نفسه سوف تجددين انفجارية من المشاعر الإيجابية».



لم أكن مقبلًا على الجلبة عندما كنت أتزوَّج أنا وأُمُّك لكنني أتذكَّر نفسي وأنا أنظر إلى الكنيسة مدرِّكًا أنني لم أحضر من قبل زفافًا وكانت لي فيه لحظات شخصيَّة مع كلِّ شخص من الحضور. تأثَّرت فعلاً في تلك اللحظة. أرجو أن شعري بمثل ذلك. لديك على الأقلَّ إجازة جميلة في انتظارك بعد أن ينتهي كلُّ شيء».

«لا أطيق صبرًا على انتظارها. أرجو أن أسترخي في رحلة الطائرة وألاَّ يجهز عليَّ فارق التوقيت مضافًا على إرهاق الزفاف. ماذا عنك وماما، هل فكَّرتما أكثر في القيام برحلة أنتما الاثنين؟»

«تكلَّمنا في ذلك قليلًا. تبدو أشدَّ تلهُّفًا، بقليل، عمَّا كانت عليه، وإن لم تكن مستعدَّة تمامًا لاتخاذ قرار نهائيَّ. استبعدت آسيا لأنَّك ستكونين هناك». قالت جريس ساخرة «ها، يا إلهي، أيُّ عذر هذا!».

«ليست بلهاء، ولا تتصوَّر أنَّ إحدكما سوف تلتقي بالأخرى صدفة، لكنَّها فقط لا تريدك أن تتصوَّري أنَّها تتعقبُك أينما تكونين».

«وما الذي يكبلُّها إذن؟ ليست مضطرَّة إلى القيام برحلة جويَّة طويلة إذا لم تكن راغبة في ذلك. يمكنكما الذهاب إلى عاصمة أوريَّة أو شيء ما».

«أعتقد أنَّها لم تحسم أمر أخيك بعد. هو يبذل جهدًا حقيقيًّا في كلِّ شيء، في العمل التطوُّعيِّ بالمستشفى، والمسابقة، وكلِّ شيء، لكن لم تزل تأتي عليه لحظاته».

«لكنَّه رجل كبير يا أبي. يجب أن يعتمد على نفسه. أعرف أنَّه لديه مشكلاته، لكن هذا هو الوقت الذي ينبغي أن يتحرَّك فيه بدفعه الذاتي. طبعًا كان الأفضل أن يحدث هذا منذ عشر سنين. هو الآن اعتاد الأخذ والاعتماد عليكما. أنتما تفعلان له كلِّ شيء. ويجب عليكما البدء في دفعه قليلًا».

«أعرف، أعرف، نريد فقط أن نتحلَّى بالحذر، هذا كلُّ ما في الأمر. وأمَّك تريد فقط أن تطمئنَّ. أفترض أنَّك ستبتعدين وتبدئين حياتك، ونحن لا نعرف ما الذي سيحدث إذا ما وقع شيء ما. أعتقد أنَّ أمَّك سوف تكون أكثر طمأنينة في حال وجود خطة احتياطية. فاهمة، تحسُّبًا للطوارئ».

«لو أنَّني المقصودة من هذا، فيؤسفني أنَّني مضطَّرة إلى أن أخذلكما. لا يمكن أن أقضي حياتي كلَّها جليسة أطفال له. عليَّ أن أمضي قدمًا يا أبي. وكذلك أنت وأمِّي. علينا أن نخلع الإطارات الجانبية، لمصلحتنا ولمصلحتنا بالقدر نفسه. هل قال أيُّ شيء عن نقود المسابقة؟ هل تعرف أنَّه حاول أن يعرضها عليَّ للزفاف؟ قلت له لا، طبعًا نحن تجاوزنا ميزانيتنا، ولكن السبب هو أنَّنا ندلِّل أنفسنا. قلت له إنَّ عليه أن يفعل شيئًا لكمما أنتم. هل قال أيُّ شيء عن ذلك؟»

«في حدود معلوماتي لا. لكنَّنا لا نحتاج إلى النقود. فما الداعي إلى تعقيد الأمور؟ كلُّ ما نريده هو أن نراه يقف على قدميه، ونحتاج نحن أيضًا إلى القيام بالوثبة لنفسينا. أعتقد أنَّني مستعدَّة، لكنَّك أدرى مِنِّي بأمَّك. ستحاول وتدعمه لكنَّها لن تطمئنَّ ما لم تر أنَّ كلَّ شيء مضمون».

«لكنَّك وأمِّي بحاجة إلى راحة. لا تكونا كأولئك الأزواج الذين يؤخِّرون كلَّ شيء فلا يتاح لهم الاستمتاع بالسفر وبكلِّ ما استحقَّاه بنفسيهما».

«نحن لم ننته بعد يا كتكوتتي، لكنَّني أعرف ما الذي تقولينه. اصبري فقط، اتفقنا؟ على أمَّك بالذات. أعتقد أنَّ الزفاف أخذها من التفكير في المستقبل، لكنَّها سوف تبدأ التفكير فور أن ترى عقدة زواجك قد أحكمت».

توقَّفًا عند انعطافة النهاية واستدارا ليسيرا عائدين، وغيَّرت الانعطافة موضوع الكلام.

قالت جريس معانقة بيتر قليلاً وقد صارا في مواجهة الريح بعدما قفلا راجعين «احك لي إذن عن خطبتك».

«لم أكتب شيئاً بعد، لكنني أعتقد أنني في هذه المرحلة، لذلك عليّ أن أقرّر ما أفعله. هل ستقولين بعض الكلمات؟»

«سأرى هذا في اليوم نفسه. لن يكون خطبة، ربّما القليل من كلمات الشكر».

«نصيحتي لك. بوسعك أن ترتجلي خطبة، لكن ليس بوسعك أن ترتجلي كلمات شكر، فحتها سوف تنسين شخصاً ولن تتاح لك فرصة ثانية، فعليك أن تكتبي. وقعت في هذه الغلطة في زفافي ونسيت أن أوجّه الشكر لعمّتك سارة وهي التي أعدت الكعكة. تقبّلت الأمر بغاية اللطف، لكنني أعرف أنني آذيت مشاعرها».

«لو أن لي طلباً واحداً بشأن خطبتك فهو هذا: اجعلها راقية. لا تنقّب عن قصص محرّجة، أو سخرية من أندرو».

«يا إلهي، لا يمكن. قد أكون أحمق، لكنني لست هذا الأحمق بالتأكيد. تعرفين أنني أراعي عالمك وأنني أحبك وأنني فخور بك. وقد تكون هذه فرصتي الوحيدة لأقول ذلك أمام الناس. وعليّ أن أجد الكلمات المناسبة لكي لا تخنقني الدموع. يمكن أن يتحسّر صوقي لو تعمّقت أكثر ممّا ينبغي».

«لا بأس بالحشرة. الحشرة مع الرقي هي ما نريده. لماذا الحزن؟ لقد خرجت من البيت قبل دهر، وأنا مع أندرو منذ سنوات قليلة، بل نعيش معا. لن يتغيّر شيء. ما هو إلّا طقس».

«أعرف ما تقولين، لكن الأمر مهمّ. انتظري وسوف ترين بنفسك. ما إن يصبح أندرو زوجاً لك حتّى يطرأ تغيّر طفيف في ما يبدو. تشعرين بنوع

جديد من القرب، حتّى لو لم يوجد سبب منطقيّ للإحساس بأيّ اختلاف. جزء منّي ينظر إليك ويشعر أنّ أسرتنا تتغيّر. كلّ هذا جيّد وطبيعيّ، ودموعي لا تنهمر على شيء منه، ولكنّه يبدو أشبه بنهاية فصل أوّل طويل. أخوك حبيبك، الذي تقولين إنّه عديم الحيلة، لخصّ لي الأمر كلّه مباشرة. وهو شديد الحكمة بطريقته. كنت أتكلّم مع أمّك عن فقداننا لك وكلّ تلك الأمور فإذا به يتدخّل قائلاً «كلّ هذا الذي تتكلّمان عنه أصبح بالفعل في ذمّة الماضي». رماها في وجهينا وهو يبحث في الثلاجة عن شيء ما. وأتصوّر أنّه على حقّ. كلّ ما أنشبت به بات ماضياً بالفعل. الذكريات تبدو حقيقةً لكنّها ليس كذلك. أخوك أفاقني ببساطة. لا يبدو مطلقاً حبيس الماضي. لا تسمعيه يتكلّم عنه مطلقاً. لا ينظر مطلقاً إلى الوراء، أو هو على الأقلّ لا يبدو مطلقاً حبيس شيء حدث. انظري إليه عندما يقع منك شيء. موقفه كلّهُ هو أنّ هذا الشيء قد حدث، ويتحرّك لتنظيفه وحسب. كلّ ما يفكر فيه هو ما يجري الآن. لا أعرف هل هذا سبب شخصيّته ووضعه أم نتيجة لهما، لكنّه مبهر في القدر القليل من الوضوح الذي يضيفه على الأشياء. مرّة كنت أتكلّم عن العمل وكيف تجاهلونني في الترقية وكم بدا الأمر تحيّزاً ضدّ كبار السنّ فقطاعني قائلاً «ما هذه غير قصّة». ولم يزد على ذلك. هكذا وحسب. «ما هذه غير قصّة». والمشكلة أنّ هذا صحيح. لم تكن إلّا قصّة أحكيها لنفسي. حينما توقّفت عن حكيها، لم يعد لها وجود».

قالت جريس «أنا متأكّدة أنّه شيء لطيف أن يكون لديك حكيم مقيم، لكن حتّى الحكماء عليهم أن يتولّوا أمر أنفسهم في نهاية المطاف».

وصلا إلى السيّارة، وقد تجمّد ذقناهما، ولكنّها تعانقا سعيدين.

«هل تحبّين أن ترجعي معي إلى البيت؟ ستفرح أمّك كثيراً برؤيتك».

«آسفة. أبلغها حبّي. وعدتُ بإصلاح الكمبيوتر القديم في البيت مع

أندرو والبدء في حجز الجولات السياحية في شهر العسل وما إلى ذلك. شكرًا على اللقاء يا أبي. وبالمناسبة، لم يصبح كلُّ شيء ماضيًا. أخبر مرشدك الروحي الصغير أنني لم أنته من أمركم جميعًا بعد».

وقفت جريس على أطراف أصابع قدميها وقبّلت أباها في ذقنه مشاكسة إياه. ركبت سيارتها وانطلقت مطلقة نفيرها مرّتين سريعتين على سبيل الوداع، تاركة بيتر يرجع إلى بائع الصحف ليشتري نسخة إيكونوميست التي كان يتصفّحها من قبل، لا لشيء سوى أن يجد شيئًا يقرأه وهو يفكر في خطبته.

## الفصل الحادي والعشرون

### مقابلة التمثيل الصامت

مبكرًا بعض الشيء، وصل هنجري بول إلى مقرّ الاتحاد الوطني للتمثيل الصامت، القائم في مسرح كان في ما مضى اصطبلًا ملحقًا بمنزل كبير، فلم يكن الوصول إليه ممكنًا إلاّ عبر درب خلفيٍّ. على المقرّ من الخارج جداريّة لمثّل صامت أبيض الوجه مندهش، وملصقٌ إعلانيٌّ عن عرض أقيم في السنة السابقة. بجوار المدخل صورة جرس منزل مع لافتة تقول «رجاء اطرق الباب»، لم يكن أحد في مكتب التذاكر الذي تحوّل إلى بهو للاستقبال، فسمح هنجري بول لنفسه بالدخول، وقرّر ألاّ يلقي التحيّة على الغرفة الخاوية خشية أن يكون ذلك منافيًا للقواعد المتّبعة في المكان. بدا المسرح صغيرًا، فيه قرابة خمسين مقعدًا معدنيًا قابلاً للطّي، فهو أقرب إلى قاعة عرض سينمائيٍّ، وكذلك كان بالفعل قبل أن ينتقل إليه الاتحاد الوطني للتمثيل الصامت.

في وقت أسبق من صباح ذلك اليوم، خرج من بارلي فيو دون أن ينبئ أبويه بوجهته. فلم يشأ أن يثقل على عقله بتوقّعاتهما في الوقت الذي تنتابه فيه أصلاً مشاعر مختلطة تجاه تلك المقابلة. ولم يشأ إذا أخفق في المقابلة، أو عرضت عليه الوظيفة ورفضها، أن يخوض دراما مناقشة الأمر على مائدة العشاء في ما بعد فيلحّ عليه أبواه «وماذا عن هذا؟» أو «ماذا عن ذاك؟» والحقُّ أنّ هنجري بول لو تحرّى الأمانة التامّة لقال إنّه لا يعرف أصلاً لماذا يجري تلك المقابلة في المقام الأول. بدأ الأمر كلّهُ باستمتاعه بأداء أرنو في حفل توزيع الجوائز

بالغرفة التجارية حين أخذ يسلي المهنيين بمزاحه حول الشيك العملاق (الذي مثل أنه يقيسه بيديه) أو بلعبه بقلادة الشرف الخاصة بالرئيس (التي مثل أنه يبصق عليها ويلمعها). بعد ذلك، رأى أرنو جالساً يدخن سيجارة ويأكل سندوتشاً عادياً بطريقة عادية ف شعر بشيء من الإحباط لما رأى أن الممثلين الصامتين يفعلون هم الآخرون هذه الأشياء العادية. أخذا يثرثران، وقد انطبع في ما يبدو لدى أرنو أن هنجري بول رجل أعمال ناجح - أي أنه ثري - له حضور كبير داخل الغرفة التجارية. بدأ أرنو بأن أوضح أنه بدأ بدراسة الدراما والرقص، ثم تحول إلى التمثيل الصامت حينما عرضت الكلية نسخة موسيقية من مستر بين. ومن ذلك انتقل إلى باريس ودرس على أيدي آخر جيل من عظام الممثلين الصامتين الذين كانوا في ذلك الوقت قد قنعوا بانحدار الفنون الصامته. وعمل مع الاتحاد الوطني للتمثيل الصامت بعد نشرهم إعلاناً يطلب مديراً إبداعياً. وبرغم أنهم ما كانوا يملكون تقريباً أن يدفعوا له، فقد كان بوسعه أن يقيم مجاًناً في شقة صغيرة مفروشة وراء المسرح. واستطاع أن يجني من المال عبر التدريس والعمل في الشركات ما يكفي للحفاظ على بقائه وبقاء الاتحاد، مع ملاحظة أنه يؤجر المسرح لصفوف اليوجا مرتين في الأسبوع ولنادي السينما يومي جمعة من كل شهر.

لم تكن المشكلات مالية فقط. فالمعنويات في عالم التمثيل الصامت كانت في أدنى مستوياتها. تحول بعض أصحاب أكبر مواهب التمثيل الصامت إلى العيش من لعبة التماثيل الحية بوصفها أحد أشكال مسرح الشارع. ولما ثبت أن ذلك الأمر مربح بدأ في جذب عدد من الدجالين الذين صاروا يرتدون الزي لكنهم يضعون أقنعة ولا يجدون غضاضة في التنقل في المكان، بل رفع أصابع الإبهام في صورهم مع السائحين. فما كان من أرنو إلا أن قرّر وضع حدّ لهذا، ومع أنه لا يبرئ نفسه من ارتكاب بعض الأخطاء، ومن كلام قيل

وما كان ينبغي له أن يقال، فإنَّ نواياه في الغالب كانت مخلصة وتنمُّ عن رغبته في الحفاظ على سلامة فنِّ التمثيل الصامت العظيم الذي وصل إليه بعد جيل الأساتذة الكبار. لكنَّ الخطوات التي اتخذها كانت مثيرة للخلاف، فتسبَّبت في إقصاء بعض أفضل أعضاء المجال وأثنت المنضمِّين الجدد الذين دخلوا المسرح سعيًا إلى دراما من نوع مختلف. كان الاتحاد الوطني للتمثيل الصامت بحاجة إلى إصلاح صورته العامَّة وأقرَّ أرنو بأنَّه ليس الرجل المناسب لعمل ذلك، فقرَّر الرجوع إلى هولندا وترك إدارة الاتحاد الإبداعية لمساعدته الشاب لامبرت. وبدأ من ثَمَّ البحث عن شخص من الخارج ذي أفكار جديدة يعمل متحدِّثًا باسمهم ويسعى إلى استرداد سمعتهم في العالم الواقعي. ورأى أنَّ هنجري بول، بصلاته مع الغرفة التجارية، قد يكون هذا الرجل القادر على قيادة الاتحاد الوطني للتمثيل الصامت ليصبح مكانًا أفضل. وكونه فضلًا عن ذلك مؤدِّيًا بارعًا - وقد فهم هنجري بول لاحقًا أنَّ ذلك يرجع إلى تسلُّمه الجائزة في صمت - بدا أشبه بهبة إضافية من الرِّبَّات الملهمة. وطبيعيُّ أن تكون لشغل الوظيفة إجراءات، فالوظيفة مموَّلة جزئيًّا بمنحة من مجلس الفنون، فبات لزامًا على هنجري بول أن يجري مقابلة إن لم يكن ذلك الطلب منافيًا للمعقول.

لعلَّ هنجري بول تساءل - في الأيام المنصرمة منذ أن أوضح له أرنو ذلك كله - عمَّا أثناه فلم يبيِّن لأرنو خطأ افتراضاته، ولماذا لم تنطلق غريزته في عملها المعتاد فتثنيه عن الفرص الجديدة. لكنَّ هنجري بول لم يكن بالرجل الذي يطيل التأمل في أسباب الحياة وكيفياتها. فقد افترض ببساطة أنَّ الصمت معيَّد، شأن التثاؤب والحكمة. كان اهتمام رقيق قد تكوَّن في نفسه، عفويًّا وغير مفهوم، موقظًا صمته الداخلي، متجاوبًا مع قوى التمثيل الصامت الفاتكة النافذة.



جلس هنجري بول في الصفِّ الأوَّل بالمرح وانتظر في هدوء وصبر. كان يرتدي بذلة الزفاف على قميص زيِّ الرسميِّ البريديِّ فهو الوحيد لديه غير مزدوج الأساور. بل لقد كان في الحقيقة بنصف كمٍّ، ومن ثمَّ بلا أساور على الإطلاق، فكلَّمَا خلع البذلة جعلته تركيبة القميص قصير الكمَّين وربطة العنق أشبه بمدير في مطعم للوجبات السريعة. ولمَّا لم يكن لديه هاتف محمول، فلم ينشغل باستعراض رسائله النصيَّة أو تحديث صفحات التواصل الاجتماعيِّ. وبسبب افتقاره إلى التوتُّر لم يعمد إلى استكشاف منخاريه أو العبث في سحَّاب بنطاله، جعله سكونه الذهنيُّ لاهيًّا عن مرور الوقت أو الخواء المقبض في المسرح المتهدِّم.

من وراء ستارة المسرح وقف أرنو ولامبرت ومدير لجنة المقابلة السيِّد ديفنبورت من مجلس الفنون، مختفين، متلصَّصين عبر فرجة في الستارة، مذهولين من ثبات هنجري بول شاعرين بالضالَّة أمام خوله الأصيل. وبعد خمس عشرة دقيقة من التأمل لم يعد من شكٍّ يخالجهُم في أنَّهم عثروا على رجلهم المنشود. تبادلوا الملاحظات في ما بينهم في حماس واتفقوا على النتيجة التي أوضح السيِّد ديفنبورت أنَّها ليست محض إجراء شكليٍّ بالرغم من عدم وجود مرشَّحين آخرين.

خرجت أعضاء لجنة المقابلة من وراء ستارة المسرح مقدِّمين التهئة للمرشَّح الناجح. مدَّ هنجري بول يده يصافح أرنو، فما كان من أرنو إلَّا أن ردَّ بمثلاً أن ضربة قاصمة كسرت عظام يده وأصابته بالإغماء، وفيما هو طريح الأرض حاول لامبرت أن يفيقه قبل أن يؤدِّي طقساً ارتجاليًّا أخيراً يمثل من خلاله أنَّه يحفر ليدفنه. حاول السيِّد ديفنبورت أن يشاركهما، لكنَّه وجد نفسه ضحلاً وقد تفوَّق عليه الآخران تفوقًا تامًّا بما لهما من سنين من الدربة.

لأسباب واضحة، لم تجر إجراءات توقيع العقد والاتفاق من خلال وسيط التمثيل الصامت، فقانون العمل لم يكن قد سمح بذلك بعد. كان العقد الأوَّلُ ساريًا لأحد عشر شهرًا، ولكنَّ السيد ديفنبورت ألح بشدَّة إلى أنَّ هذه الأمور كثيرًا ما يجري تجديدها إذا سار كلُّ شيء على ما يرام. سيقوم مجلس الفنون بتمويل نصف راتب هنجري بول وتأتي البقيَّة من الموارد الخاصَّة بالاتحاد الوطنيِّ للتمثيل الصامت، ومنها دخل الشركات واليوجا، وكذلك مبيعات التذاكر في حال وجودها. كما عرضت الشقَّة الواقعة وراء خشبة المسرح على هنجري بول فور إخلاء أرنو لها في ما يعدُّ علاوة عينيَّة. طلب أن يلقي نظرة على الشقَّة المعروضة عليه، فلم يتيسَّر ذلك لأنَّ صديقة أرنو كانت لم تزل نائمة فيها، ولعلَّ هذا هو ما جعل أرنو يقترح على السيِّد ديفنبورت إجراء المقابلة صمَّتًا.

تصوَّرت مواصفات الوظيفة - التي أُعدَّت بهدف إشراك مجلس الفنون في تمويلها - نطاقًا بانورامياً من المسؤوليات. فكانت مهمَّة هنجري بول الأساسيَّة هي أن يثير الحماس على المستوى الوطني تجاه التمثيل الصامت والفنون الصامتة جميعًا ما عدا التماثيل الحيَّة واللوحات الحيَّة<sup>(1)</sup>. كما كان عليه أن يمثِّل وجهة نظر مجتمع التمثيل الصامت في الخطاب العام، ويحيب الأسئلة التي ترد إلى مركز خدمات مجلس الفنون في ما يتصل بالتمثيل الصامت. ومع أنَّ نقود جائزة الغرفة التجاريَّة جعلت هنجري بول غير منشغل كثيرًا بأجر الوظيفة التافه، لكنَّه مع ذلك كان قادرًا على المساومة حينما يلزمه أن يساوم. فأصرَّ على شرطين: الأوَّل أن يكون يوم الاثنين إجازة حتَّى يستطيع أن يفي بالتزاماته تجاه مكتب البريد، والثاني ألا يضطر إلى حمل هاتف محمول.

(1) اللوحات الحيَّة، أو tableau vivant بالفرنسيَّة، مشهد صامت يضم مؤديًا أو ممثلًا أو أكثر

ووافق الاتحاد الوطني للتمثيل الصامت ومجلس الفنون على كلا الشرطين، من ناحية لأنَّ الوظيفة المعروضة كانت تشترط العمل لثلاثة أيَّام فقط في الأسبوع، والثاني أنَّه لم يكن لديهم من المال ما يكفي لتمويل هاتف محمول.

بإبرام الصفقة ترك أرنو لمساعدته لامبرت شرح الوظيفة الجديدة لهنجري بول وذهب هو مع السيد ديفنبورت إلى سيَّارته. لم يدر لامبرت كم من الوقت أمامه قبل رجوع أرنو، فعمد إلى الإيجاز والصراحة. قال إنَّ عودة أرنو إلى هولندا مطلوبة على وجه السرعة. فالاتحاد الوطني للتمثيل الصامت في فوضى تامة. لم يقدِّم المسرح عرضًا منذ أكثر من سنة، والدخل المالي قليل جدًّا، وسرعان ما يتحوَّل مباشرة إلى نفقات، وفنُّ التمثيل الصامت نفسه لم يعد يغازل خيال الجمهور العام، بل إنَّ صغار السنَّ لا يكادون يعون بوجوده. أصبح المسرح تقريبًا مخزنًا عامرًا بالعناكب، تتناثر فيه صناديق الملصقات القديمة، لدرجة أنَّ أساتذة اليوجا أنفسهم بدأوا يتساءلون إن كان المكان يستحقُّ أجر الساعة الزهيد. ولَمَّا لم تلح بادرة على عودة أرنو - وتلك ملاحظة أبدائها لامبرت عن علم - فقد سارا باتجاه موقف الدَرَاجات الذي ترك لامبرت عنده درَاجته المخطَّطة بالأبيض والأسود والمزوَّدة بجرس وناقل سرعات معطل. أثار لامبرت الإعجاب في نفس هنجري بول، فلَوَّح له مودِّعًا، وهو يتأمَّل في ذلك الشيء الخاصَّ الذي بدا أنَّ الصامتين يعثرون به على بعضهم بعضا في الحياة.

كان يومًا محمومًا، بمعايير هنجري بول. ومقابلات العمل تستنزف الناس، فلا عجب أن غلبه النوم في القطار وهو في طريق الرجوع إلى البيت، فمضى خدُّه يرتعش على زجاج النافذة. ولَمَّا وصل إلى بارلي فيو، كانت أمُّه على الهاتف مع جريس يناقشان ترتيب المائدة في الزفاف، وأبوه يكتب على اللابتوب رسالة إلى محرِّر إيكونوميست. وفيما تمهَّل هنجري بول في الطريقة

لوهلة، عازفًا عن مقاطعتهم، بدا أنَّ الحافز إلى إعلان خبر وظيفته الجديدة تلاشى وانزلق الإعلان من حلقة إلى جوفه.

منهكًا، وراضيًا، قرَّر أن يصعد ويعلِّق بذلته الجيِّدة في الخزانة خشية أن تكون قد تغصَّنت. خلع حذاءه الدوكس واستلقى في سريره بسر والهدوء الداخلي وفانيلته يتأمَّل في تعقيدات العمل التي ورثها للتو. بدا له أنَّ مسرح التمثيل الصامت، بحالته الرثة المتهالكة، بات انعكاسًا لحالة الصمت نفسه. ولكن كيف يتسنَّى له أن يستردَّ مكانة التمثيل الصامت بوصفه قوَّة اتحاد وإنسانية في العالم والمجتمع الصامت نفسه منقسم؟

شخص هنجري بول إلى السقف المخطَّط وغرق في الهدوء المحيط به. أصاخ السمع للصمت الحاضر دومًا، لا إلى فقايع الصوت الطافية فيه. بدا يزن حجمه العميق. لقد أقرَّت كلُّ التراثات الروحانية والفلسفية الكبرى على مدار التاريخ بما للصمت من قيمة. والكون، سواء أتمدَّد أم يتقلَّص، يفعل ذلك وسط محيط هائل منه. والانفجار الكبير نبع منه وهو يومًا ما عائد إليه. ومع ذلك، ها هو الصمت، بكلِّ ما له من حضور وخلود، يجد نفسه في مأزق مع صخب طبيعة الإنسانية الحديثة. لقد عادى هذا العالمُ الصاحبُ العنيدُ الصمتَ، وجعل منه شيئًا مرفوضًا، مطلوبًا كسره، أو ملئه.

محملًا في المروحة الدائرة في سقف غرفته، بدا أن الإجابة صاحبه طوال الوقت منتظرة في صبر أن ينتبه إليها. أدرك أنَّه قبل إقناع الجمهور بالتمثيل الصامت لا بدَّ أولًا من إقامة صلة تربطهم بالصمت نفسه، فقوَّة التمثيل الصامت تكمن في قدرته على لمس الصمت الكامن فينا جميعًا. بدفقة إلهام مفاجئة، تناول قلم الرصاص القصير من الطاولة الجانبية وسارع بكتابة التالي:

نادي ليلة الأحد الهادئ  
ساعة من الجلوس في صمت  
في مسرح الاتحاد الوطني للتمثيل الصامت  
الدخول مجاني - نرحب بالجميع  
الثامنة من مساء الأحد الأول في كل شهر  
(عسى أن تنتبهوا إلى الوارد أعلاه)

بساطته هي كماله. اقتضى الأمر شخصًا له بصيرة هنجري بول ليدرك أنَّ حلَّ المشكلة، على غرابته البادية، هو أن يحمل الناس على ألا يفعلوا شيئًا. قرَّر أيضًا أن يدعو فنَّاني التماثيل الحيَّة للحضور بكامل أزيائهم للأداء في صمت طوال اجتماع نادي ليلة الأحد الهادئ. وكان يرجو من طلبه، المقدَّم باحترام ودرجة من الحساسية الفنيَّة، أن يكون كافيًا لإقناعهم بأنَّ حقبة من التعاون الوثيق معروضة عليهم من أصدقاء لهم في عالم التمثيل الصامت.

وفيا بدأت تبلغه أصوات أبويه إذ يشرعان في إعداد العشاء في الطابق السفلي، أزاح همومه الوظيفيَّة جانبًا وبحث عن لبس مريح يرتديه بعد يوم له وقع أيام الكبار المشحونة. ومع أنَّ الأمر كلَّه كان لم يزل جديدًا عليه، فقد رأى أنَّ عواقب اتخاذ القرارات المؤثِّرة تماثل تمامًا عواقب عدم اتخاذها. ففي كلتا الحالتين يترتَّب التزام تجاه شيء ما. ولا يحدث أبدًا أن نخرج بالكامل عن نطاق خيارات الحياة، إذ أنَّ كلَّ شيء يؤدِّي إلى مكان ما.

## الفصل الثاني والعشرون

### البيضة الهرمية

كان أسبوعًا طويلًا وعصيبًا على ليونارد. تغيّبت شيلي عن العمل منذ يوم الاثنين وانقطع ما بينهما من تواصل. لم يدر هل تجتنبه بسبب الغضب أم الحرج، أم السبب فقط أنّها في البيت مع باتريك في إجازته المدرسية بمناسبة عيد الفصح. ولعلّ السبب في إجازتها تلك هو وجع في البطن، أو أنّها رجعت تستأنف حياتها العادية من جميع أوجهها التي لا مكان له فيها.

كم من مرّة كتب فيها مسوّد رسالة نصيّة للاطمئنان بلا تطفّل، ثم عدل عن ذلك، متوهّمًا أنّ رسالة نصيّة هي السبب في ذلك كلّ في المقام الأوّل. كان يرجو على الأقلّ ألا تكون غاضبة منه، وأن تكون مدركة أنّ خرّقه وليد عدم الخبرة لا عدم الحساسية. بل لعلّها بمرور الوقت يستطيعان أن ينعمًا بالتمشية الأفلاطونية في الحديقة، أو لعلّها تقول يوما لحبيب مستقبليّ إنّ ليونارد وإن كان غير مناسب لها من أيّ وجه فقد كان على الأقلّ من الرجال الطيّين. كان قبل أسبوع واحد لا غير يعدّ نفسه حبيبًا لشيلي، لكنّه الآن يشكّ في أن يكون قد وصل إلى ذلك الحدّ. كيف كانت هي ترى الأمر؟ وفقًا لمعايره هو، كانت العلاقة أساسيّة، بل هي أبعد ما وصل إليه مع امرأة، لكن لعلّ العلاقة - بالنسبة إلى امرأة بتجربة شيلي - انتهت بأسرع من أن يمثل لها ليونارد أيّ شيء. لعلّها قالت «ما هو غير رجل خرجت معه بضع مرّات». «مباراة معدومة» بلغة الملاكمة، أو «صوت باطل» بلغة الانتخابات. كان

في خياله - القائم في صدره بقدر ما هو في رأسه - قد تقدّم فصولاً قليلة في حياتهما معا، وها هو وقد أدرك أنّ هذه الفصول سوف تكتب في غيابه. يا لها من مذلّة إذ يحزم طموحاته وخيالاته وينتقل إلى سكنى نوع جديد من الوجود العاديّ المهلهل.

بعد يوم آخر موحش في العمل، جلس ليونارد في البيت يخربش بالقلم في دفتر الرسم جالساً إلى المائدة في غرفة الطعام، وقد اتخذت شفتاه شكل عقربي الساعة عند الثامنة والثلاث. منعه الاضطراب من التركيز، والفتور من عمل أيّ شيء ذي قيمة. والشيء الوحيد الذي سيطر على عقله لا هو تركه وشأنه ولا هو حلّ نفسه بنفسه. كانت أقسام كثيرة لم تزل ناقصة في كتابه عن باتريوس والرومان، لكنّه بات آخر خيط يربط شيلي بحياته. بات حزنه من الانفصال مشكلة جديدة سرّية تهيمن على إكمال الكتاب.

هي بالنسبة إلى البعض رائحة معطف صوفيّ مبلول منسيّ على المدفأة، وبالنسبة إلى البعض كعكة المادلين تترك في طبق إلى أن تذوب، أمّا بالنسبة إلى ليونارد فهي غلطة بسيطة تتمثّل في وضع الطرف الخطأ من قلم الرصاص بين شفتيه. فلا يكاد طعم الكربون، شديد الغرابة والبعد عن مذاق الطعام، يصل إلى لسانه، حتّى ترجع به الذاكرة إلى المرّة الأولى التي أوقعه فيها شرود الذهن في تلك الغلطة. حدث ذلك قبل سنين كثيرة: في زمن انقطاعات الكهرباء، ونقر العصافير الزُّرق فوّهات زجاجات الحليب، وما قبل مقاعد الأطفال الخاصّة في السيّارات، وما قبل البلايستيشن. كان جالساً يعمل الواجب المدرسيّ في غرفته، وأخرجه من تركيزه صياحُ بعض الصبية وهم يلعبون في الشارع، فوضع عَرَضاً سنّ قلم الرصاص بين شفتيه ومضى يمضّهُ. مشمئزاً من الطعم، هرع إلى الحَمّام يغسل فمه بالصابون، وتلك كانت غلطته. مغمغماً بشتائم طفل صغير، واسى نفسه بالجلوس على بلاط

أرضية الحُمام ومعه موسوعة عالمنا، لاهياً عن الوقت، بل عن الزمن نفسه، مهدداً نفسه، ممتطياً تلك الصفحات وصولاً إلى الرضا. مغمضاً راح يسبح داخل نفسه صوب ذكرياته، لا ذكريات الكتب، بل إحساسه بقراءة الكتب. وهنالك، تحت ركام من الحزن، عثر على الطاقة الأولى التي حفزت خياله طوال كلِّ السنين الماضية.

بدأ يكتب ويرسم، عابراً ما بين ليونارد الرجل وليونارد الطفل. فإذا بسحر قديم، أعيد اكتشافه، يبتُّ فيه الروح ويحفّزه، وإذا بصفحات تلو صفحات من الخيال تتدفّق منه. عاودته لمسته في الرسم، وهو يبدع مشاهد رقيقة لطفولة رومانية: تعبيرات دهشة خافتة على وجه باتريوس وهو يجذب ضفدعة من بئر، مشهد ضخم على صفحتين لأُمّ جالسة على كرسيٍّ في زِيّ المجالدات مشرفة عليه وهو يتدرّب على الوقوف على يديه، ونظرة رهبة حزينة مظلمة بعناية لوجه الولد حينما سمع عن بسالة ربّ أسرته الذي أحبه حباً عظيماً قبل أن يخرج لمحاربة القوط قبل كلِّ تلك السنين. أفرغ ليونارد روحه في تلك الصفحات، محطّماً كلَّ ما يمنع تجربته الشخصية من الانسكاب وإطلاق التجربة الإنسانية العامة الكامنة بداخله. وأخيراً انتهى من الكتاب في الوقت الذي قد يوصف بأنّه الهزيع الأخير من الليل أو بواكير الصباح، فهوى إلى سريره وقد انتابه كلل جليل وسكينة منهكة، كأنّها فرغ من نوبة قِيء.

في الصباح التالي، من يوم الخميس المقدّس، كان المكتب هادئاً. اعتزم ليونارد أن يجلس إلى طاولته لساعات قليلات قبل أن يللمم أغراضه ويرجع إلى البيت لينام طيلة العطلة الأسبوعية إلى أن يحين الزفاف يوم الاثنين، ثمّ بعد ذلك لا يعرف ماذا سيفعل في كتابه أو حياته.

فتح بريده الإلكترونيّ فوجد رسالة من مارك باكستر، دبلومة التربية:



مرحبًا ليني

أحببته، أحببته، أحببته. أحببت كثيرًا المقترح الذي بعثته لي. طبخة محترمة تليق برجل من رجالي. يحتاج إلى القليل من العمل، أعتقد أنه سوف يلزم أن ألمسه اللمسة المعهودة من عصاي السحرية، لكن مؤكد أن بين أيدينا شيئًا ما. أنا دائمًا مع الابتكار والتخريب. فلنفجر المشهد الروماني كله ونفتحه، هذا ما أقصده.

أنا على الساحل لقضاء العطلة الأسبوعية. استطاعات بعض فتيات الفريق أن يقنعني بتعليمهن ركوب الموج. ووافقت انطلاقًا من أنه تمرين على توطيد أواصر الفريق. لم يبق من الرجال المحترمين غيرنا أنا وأنت يا ليني. ولو لم نرفقه نحن عن الفتيات فلن يرين ترفيهاً من الثيران في فكتوريال للنشر، وهذا أكيد. ومع ذلك لا ينبغي أن أسيء إليهم الآن، فهي شركة لا بأس بها في النهاية، فيها بعض الرجال الجيدين، مبدعين حقيقيين، أشداء في التخريب. الحقيقة أنني أخطرتهم بالاستعداد لمكالمة يوم الثلاثاء، وأعتقد أنهم سوف يقعون في غرام كتابنا أيها الرجل.

عسى أن تنتبه إلى الوارد عاليه.

مارك باكستر، دبلومة التربية

بدأ ليونارد يمسح الرسائل غير المقروءة التي ظل يتجاهلها طوال الأسبوع. لم تكن بينها رسالة واحدة من شخص قابله بنفسه. ثمّة حفنة منها بحاجة إلى ردّ، لكنّها في الغالب مذكّرات بخصوص إجراءات داخلية. وثمّة سلسال مطوّل من الرسائل المتبادلة بين شخصين مختلفين حول نقطة تحريرية وكان ليونارد من المتفرّجين المدرجين في خانة (النسخ)، وبالطبع كان ثمّة

سلسلة رسائل عن النظام المحاسبيّ الباهظ المجنون الذي تعطلّ لسويعات ثم عاود العمل ليتعطلّ من جديد.

تولّى ليونارد طباعة نسخة قياسيةّ من الكتاب على طباعة الألوان الجيّدة ليرى كيف شكله. وفيما هو جالس في كرسيه الدوّار المريح، أخذ يقرأه ببطء، صفحة بعد صفحة. كان أجمل شيء فعله في حياته على الإطلاق، ولو أنّه أوشك أن ينكسر لكي ينجزه. ربّ الصفحات جميعاً، ثم أغلق عليها مطروفاً كتب على مقدّمته «شيلي». أراد أن يتركه على طاولتها مع بيضة فصح هرميّة من شوكلاتة توبليرون من أجل باتريك.

وجد مكتبها خاوياً مثلما توقّع، وأمام جريج، موظف الدعم الفنيّ، طبق حبوب يقطعّ فيه موزة على شيء بدا مثل أكل الكلاب. كان يرتدي النصف العلوي من بيجامة مشجّرة.

«مرحباً يا لين. منذ فترة لم أرك. كنت أستعرض تاريخ استعمالك للإنترنت. فحص روتينيّ. يمكن أن نتكلّم أكثر على انفراد الأسبوع القادم ما لم يكن عندك ما تحبّ أن تعترف به الآن، وننتهي من المسألة».

«مرحباً يا جريج. يبدو أنّ شيلي لم تنزل في إجازة».

«واو، ألم تعرف؟ إذن ثمّة مشكلة في عدن؟ قلبي عندك يا عمّ. يا عمّ ليس للواحد منّا غير الآخر. هل تحب أن أتولى أنا أمر بيضة الفصح هذه؟ ورسالتك الغراميّة الصغيرة مقاس «آيه فور» في هذا الظرف أيضاً. بوسعك أن تأتمني على حياتك، تعرف هذا طبعاً».

عدل ليونارد عن ترك الكتاب والبيضة على مكتب شيلي. جاءت مارجریت، إحدى زميلتي شيلي، تجري راجعة إلى مكتبها وهي تكرّر سلسلة من اللعنات.

«مرحبًا، كن...».

«ماذا؟ ماذا تريد الآن؟» وأشارت إلى جريج دون أن تنظر إليه «وأنت اسكت تمامًا».

«مرحبًا، كنت أقول، هل تعلمين بمكان يمكن أن أترك فيه هذا لشيلي؟ مكان خاصّ ربما؟»  
«ما هذا؟»

«هدايا شخصية لا أكثر».

«هل بيضة الفصح هذه لها؟»

«لا، هذه لابنها. الظرف لها هي. يعني، وله أيضًا».  
«هاتهما».

أعطاهما ليونارد ما معه وهو لا يعرف إن كان ما يفعله صوابًا.

قال «أوكيه، شكرًا. هل هذا كافٍ؟»

«سأقبلها في العطلة الأسبوعية، وأعطيهما لها».

«أوكيه، أوكيه. إذا لم يكن لديك مانع. سيكون هذا عظيمًا. شكرًا».

قالت وعينها على الشاشة تطبع شيئًا ما «هذا كلُّ ما هناك؟»  
«هذا كلُّ ما هناك. عيد فصح سعيد».

استدار ليودّع جريج فرآه يقلّب مكملًا غذائيًا على طاولته، رفع جريج يده إلى مارجريت بتحيةة ستار تريك<sup>(1)</sup>، «عش طويلاً وازدهر» قبل أن يبدّل

---

(1) برفع اليد اليميني بمحاذاة الكتف، مع الفصل بين السبابة والوسطى من ناحية والخنصر والبصر

وضع أصابعه مبرزاً الوسطى فقط.

قال ليونارد «عيد فصيح سعيد يا جريج».

«أهلاً مستر موسوعة. سيكون عندنا درس تاريخ الأسبوع القادم. تاريخ الإنترنت. لا تنس».

للمم ليونارد أغراضه، وذهب إلى البيت، فنام نوم جثة طوال ست عشرة ساعة.

في الصباح التالي وجد نفسه أخفّ روحاً، وأنشط جسداً. استيقظ بإحساس جديد عليه بالصفاء والتوازن. مضى عبر البيت يفتح جميع الشبايك، شأن يوكو وَنْ في أغنية إماجين<sup>(1)</sup>، مرتدياً بيجامة مشجرة ونعلًا برتقالياً من كروكس.

طوال أسابيع، بدا أن البيت الذي قضى فيه عمره كله، قد بات يزعجه، فهو يشعر بين جنباته بحنين إلى بيت، ويشعر أن خواءه خيانة له. لكنه الآن وهو يسير في كل حجرة من حجراته، شعر أنه أصبح مهياً لمصاحبة بيته من جديد. بدا فضاؤه مريحاً. ففي كل بقعة منه يحيطه إحساس بالآلفة.

شمل ليونارد إحساس جديد بالسلام. كان دائماً يربط بين إحساس السلام وفكرة السعادة، وكأنه حالة ثابتة تتحوّل إليها السعادة حينما تكون حقيقية. لكن ها هو يدرك أن السلام يقوم بمعزل عن أي شعور آخر. فالسلام العميق الذي بات يستشعره كان من طبقة خافتة، فما هو بنعمة، ولكنه شجن. هو قبول عميق بكل شيء مثلما هو، دونما أي تفضيلات مصطنعة، كان ثقل الجهد الواجب من أجل تحقيق السعادة قد

(1) يوكو ون لينون Yoko Ono Lennon (1933-) مغنية وموسيقية يابانية والأغنية هي

انزاح عن كاهله.

قبل أن يعدَّ إفطاره، خرج بعد طول إهمال إلى حديقته الخلفية فوجد آنية إطعام الطيور تتأرجح منذ أسابيع، خاوية ترتع فيها العناكب، وقد تلوّثت بروث الطيور. كحت ليونارد الأواني في ماء وغسول ليطهرها، ثمَّ أخرج من الخزانة طست بذور الطيور. ملأ إناء البذور حتَّى حافَّته ووضع بعض كرات الدسم للطيور الكبيرة التي لا تستطيع أن تتوازن على مجاثم أواني البذور الصغيرة، وبإحساس بالسخاء، نثر مزيدًا من البذور على الأرض حتَّى تجد الطيور التي لا تقوى على التدافع ما تلتقطه. وفيها هو واقف يملأ الغلاية من الحوض رأى من الشباك الخلفيَّ عصفورين أزرقين وقد علقا بالفعل.

متجهًا إلى الصالة بإفطاره على صينيَّة الشاي، ألقي ليونارد نظرة على مكتبته بحثًا عن بعض الكتب التي اشتراها أخيرًا ووضعها أفقيَّة في كومة الكتب غير المقروءة، فالوضع الرأسي مدَّخر للكتب التي انتهى من قراءتها واستمتع بها. عثر على نسخة من الطاحونة على نهر فلوس اشتراها قبل شهور ونسي أمرها. علم أنَّه سيكون امتحانًا له أن يقرأها ولا يجفل من آثار شيلي فيها.

في الطابق العلوي، فتح باب غرفة أمِّه القديمة وجلس على السرير، وكثيرًا ما كان يفعل ذلك من قبل ليكون برفقتها وهما يشربان شاي ما قبل النوم. بدت الغرفة نظيفة ومرتبَّة. فقدت إحساس الطزاجة الفريد الذي كانت تضيفه أمُّه عليها دائمًا، فكأنَّها هو بعض من شخصيَّتها ومن عبقها. وبدلًا من ذلك حلَّت رائحة غبار لا يعرِّج أحد عليه صفو عزلته. على الطاولة المجاورة للسرير صورة أبيه التي ظلَّت أمُّه تقبِّلها بأناملها كلَّ ليلة قبل أن تنام. لم يكن ليونارد قد استعرض أغراضها الشخصيَّة بعد لكن سيتاح له وقت كبير للترتيبات والتبرعات. رحلت بالفعل. لا مزيد من الأحاديث

أو الروتين البسيط المشترك. اعتراه هذا الإحساس بالاستحالة وتناغم مع الانسجام الداخلي الأسيان الذي استيقظ عليه.

بات لوحده الآن سمت مختلف. من قبل كانت وحدة مذعورة، تمخض عقله بلا هوادة عسى أن تعثر على أي شيء تشبَّث فيه، وتمضي به بعيداً. كان يبحث عن السلوى في التشبُّث، في هنجري بول، وكتاب الرومان، وشيلي في المقام الأكبر. وها هو يرى الآن كم كان مفزوعاً. كم استولى عليه رعب من أن الحياة نفسها موشكة على أن تبطله ابتلاعاً. ولكنه استدار وواجه نفسه. كان قد سهر طويلاً مع كتابه إلى أن تكشف له في النهاية. لم يكن الخوف الذي اعتراه طويلاً إلا حباً عميقاً لأُمِّه لم يكن مهياً للاعتراف به لنفسه وإلا أغرقه في الحزن.

رَبَّتْ على وسادتها في وداعة ورجع نازلاً إلى الطابق السفلي من البيت الذي رآه في تلك اللحظة أكبر حقاً من أن يكون لشخص واحد. خلال الشهور القليلة التالية سيكون عليه أن يفاضل بين بعض الخيارات، لكن لا داعي للعجلة. جلس على الأريكة في غرفة المعيشة وبجواره قهوته في فنجان عليه شعار مجلة نيو ساينتيس، وفتح رواية الطاحونة على نهر فلوس بنية خالصة في أن يقرأها كلها خلال العطلة الأسبوعية، وذلك ما كان.

## الفصل الثالث والعشرون

### أحد الفصح

استيقظت جريس في أحد الفصح وقد بدت على وجهها ابتسامة بليدة. كان أندرو قد رتب سهرة مفاجئة له ولها في الليلة السابقة، احتفالاً بآخر سبت يقضيانه معاً قبل الزواج. كان يعرف أن جريس تحبُّ الموسيقى الكلاسيكية - وإن يكن الأصحّ هو القول بأنها تحبُّ الأعمال الجيدة للمؤلفين الجيّدين - فحجز تذكرتين لحضور حفل لأندريه ريو<sup>(1)</sup> ظناً منه أنه يشتري بنقوده أفضل الأفضل. انفجرت جريس ضاحكة حينما أخبرها، لكنّها سارعت تعتذر وتطمئنّه بقبولات تحالطها القهقهات بأنّ ذلك كان غاية اللطف منه وأنها آسفة لأنها متعجرفة موسيقياً، برغم أنّها لم تنتو قطُّ ألا تكون كذلك. استاء أندرو قليلاً، ولم يكن هو نفسه من عشّاق الموسيقى، من سوء تقديره لذوق زوجته الوشيكة إلى هذه الدرجة، لكنّه مع ذلك ظلّ يلكز جريس في مرفقها خلال الحفل كلّما ضبطها وقد بدا عليها الاستمتاع.

حجز أندرو كذلك عشاء متأخراً بعد الحفل، فكان ثاني عشاء تناولاه في ذلك اليوم، بعد اقتسامهما بيتزا وهما جالسان على الأريكة عصرًا. سكرًا قليلاً وهما يتناولان ذلك العشاء، وشعرا بشيء من الدوار، فاحتفلا بعد العشاء بفنجان قهوة منكهة بالخمّر، مع تظاهر أندرو بعزف فالسات أندريه

---

(1) أندريه ريو Rieu Nicolas Marie Léon André (1949-) عازف كمان ومايسترو

ريو على عدد من الكؤوس نصف الممتلئة على المائدة.

وبرغم قبلات تبادلها في سيّارة الأجرة وهما راجعان إلى البيت، فما كادا يصلان إلى السرير حتّى منعهما الإرهاق الشديد إلّا من الاستسلام للنوم. ولما استيقظت جريس في الصباح التالي، رأت أندرو وقد علا شخيره نائماً على بطنه، نومته المعتادة، وأطرافه ترسم زوايا قائمة فكأنّه رسمة بالطباشير لجثّة في مسرح جريمة. ابتسمت لنفسها حينما تذكّرت أندرو وهو يساوم مساعد بائع في متجر جرائد ساهر على بيضة فصيح تباع مع فنجانها الخاص وأراد أن يشتريها لها. لم يتزحزح البائع عن سعره، واشترى أندرو البيضة برغم ذلك، قائلاً إنّ ذلك ما كان ليفعله أندرو ريو لو أنّه في مكانه. ولما حالت ساعة جريس البيولوجيّة - بتصلّبها المعتاد - دون أن تسمح لها بمعاودة النوم في صباح يوم الفصح ذلك، قاومت اعتيادها النهوض مبكّرة ووحيدة، وبدلاً من ذلك التفتّ من وراء أندرو راجية أن توقظه أو تستدفع بدفته إلى أن يستيقظ.

برغم أنّها كانت تجاهر بتحفظها على احترام التقاليد لذاتها، أذعنت جريس لوجوب أن تقضي هي وأندرو عشية الزفاف منفصلين. سيكون غريباً أن تتركه في وقت لاحق من اليوم لتتوجّه إلى بيت أبويها فتقضي الليل هناك، لكنّها فكّرت أنّه قد لا يكون شيئاً سيئاً أن تفتقد زوجها قليلاً قبل يوم زواجها به.

في بارلي فيو، كانت هيلين وهنجري بول قد بدأ يومهما مبكّرين بالفعل، إذ أرادا زيارة المستشفى لإهداء بعض بيض الفصح للممرّضات والمريضات قبل الشروع في ترتيبات اللحظة الأخيرة في البيت استعداداً لزيارة جريس. وصلاً إلى المستشفى متأخرين قليلاً، وقد عطّلها إصرار هنجري بول على تفحص التواريخ بدقّة على جميع البيضات التي اشترتها أمّه، معرضاً عن



احتجاجها عليه بأن الشوكولاتة لا تفسد. وفيما وقفت هيلين تثرثر مع الممرّضات، دخل هنجري بول العنبر وحده. رأى أن باربرا تكلم شخصاً ما عبر الهاتف، فلعلّه أحد أبنائها المهاجرين، وأن السرير الأوسط شاغر، وأن الستائر مسدلة حول سرير السيدة هاوثرن. وقف هنجري بول بجوار الستارة وأنصت قليلاً إلى أن أمكنه أن يتبين ما الذي يمكن أن يتطّفل عليه لو أقحم رأسه. كان يريد أن يعطي السيدة هاوثرن البيضة التي اشتراها لها خصيصاً. مضت عليه لحظة تشكك تمنى فيها جرساً أو مطرقة باب فيمهد بأحدهما لنفسه اجتناباً لخرج اقتحام فحص طبيّ.

قال بصوت غائم، يعوقه بعض البلغم إثر صمت طويل «مرحباً».

حاول مرّة أخرى بعد لحظات «مرحباً».

قال صوت ذكريّ «مرحباً. من هناك؟»

أقحم هنجري بول رأسه عبر الستارة فرأى رجلاً حسن الملبس - في مثل سنّه تقريباً - جالساً على الكرسيّ المجاور للسيدة هاوثرن وهي نائمة.

قال هنجري بول للمرّة الثالثة «مرحباً. نحن نقوم فقط ببعض جولات زيارة المريضات لنرى إن كنّ راغبات في تجاذب أطراف الحديث. هل أنت قريب للسيدة؟»

قال الرجل مشيراً إليها بإبهامه «نعم، هي أمّي. وهي نائمة، غفت منذ أن وصلت إلى هنا قبل عشر دقائق تقريباً. سأمهلها خمس دقائق أخرى. لا معنى للبقاء هنا وهي غير متيقّظة أصلاً. وإذن لا بأس عليك أنت اليوم. لكن شكرًا». ورجع يستعرض صفحة ما على هاتفه.

قال هنجري بول مشيراً إلى بيضة الفصح «سأترك لها هذه، ممكن؟»

قال الرجل وهو يضعها على الأرض «سأخذها. هي لن تأكلها. سأخذها

للأولاد في البيت».

توقّف هنجري بول للحظة. «إذا كان وقتك لا يسمح، لا مانع عندي أن أجلس مع والدتك قليلاً. يعني، سأكون هنا خلال الساعة التالية في كلّ الحالات».

رفع الرجل عينيه عن الهاتف ووزن الأمر قليلاً قبل أن يوافق. «في الحقيقة، سيكون هذا أمراً عظيماً. لا يبدو أنّها سوف تستيقظ سريعاً والمجيء إلى هنا كان رحلة، فمن الأفضل أن أتجنّب الزحام المروري».

قال هنجري بول بينما يتناول الرجل حقيبته ومعطفه «لا مشكلة. لا تنسَ بيضة الفصح».

قال وهو ينسلّ من الستارة «أوه نعم، هذا عظيم. قل لها حينها تستيقظ إنّ دانيال كان هنا، وإنني انتظرت بقدر ما استطعت لكن كان عليّ أن أذهب. سأحاول الرجوع في عطلة الأسبوع القادم إذا استطعت. وأنت لست مضطراً إلى البقاء هنا طويلاً».

انتظر هنجري بول إلى أن خرج الرجل ثم فتح الستارة فدخل قدر إضافيّ ضئيل من الضوء الشحيح الذي كان يناله العنبر المواجه للشمال. جلس في كرسيّه المعتاد منتظراً بجوار السيدة هاوثرن التي امتقع لونها وهزلت. جلس هناك لما بقي من الساعة، وبقيت السيدة هاوثرن نائمة طوال ذلك.

قضت هيلين وقتها مع باربرا التي قضت الصباح كلّ مشغولة على الهاتف بمكالمات من أحفادها يتمنّون لها فيها عيد فصيح سعيداً ويخبرونها بكمّ البيض الذي حصلوا عليه. كما عرفت باربرا أخيراً أنّها سوف تخرج يوم الخميس.

«عندي خبر جيّد وخبر سيّئ، وإن كنت في الحقيقة تَلَقَّيت السيّء أوّلاً.

اتضح أنني مصابة بالسكري، ولكنهم سيؤكدون هذا نهائياً عندما ترد نتائج آخر التحاليل غداً. ربّما يجب أن أكل بيضة الفصح هذه قبل أن يتأكدوا. وهذا هو الخبر السيئ، وإن أمكن أن يكون الأمر أسوأ، ولا يرقى إلى سوء ما كنت أتوقّع الحصول عليه من أخبار. الخبر الجيد، أو الأقلّ سوءاً، هو أنّ بوسعهم التعامل معه باستعمال الأقراص فلا أضطرّ إلى حقن نفسي أو عمل أيّ شيء من هذه الأمور الرهيبة. يعني، الأمر إجمالاً ليس بالغ السوء. الواحدة حينها تصل إلى هذه السنّ يتحتّم عليها طول الوقت أن تساوم، وترضى بأوضاع كان من شأنها في السابق أن تصيبها بالقلق. الحقيقة أنّها غلطتي، أنا تعبت لأنني لا أمارس الرياضة، وأكلي ليس صحيحاً، ولو أنني حينها سألت الطبيب عن احتمال أن يكون السبب وراثياً أقرّ أن هذا وارد. لم يعجبه أنني ردّذتها في وجهه، رأيت ذلك تماماً».

ملأت هيلين وباربرا ساعتها بسهولة كعادتهما دائماً، بالحديث عن الزفاف وتطوّرات الأوضاع في أسرة باربرا وما يجري في العنبر. يبدو أنّ سيّدة السرير الأوسط اختفت ذات يوم عند تغيب باربرا لإجراء بعض التحاليل. أرجعوها إلى البيت ولم يقولوا إن كانوا فعلوا ذلك لأنّها شفيت أم لتتاح لها عناية أهلها، وربّما لتوفير الرعاية التلطيفية<sup>(1)</sup> في حدود معلومات باربرا التي قالت إنّ هذا المستوى من الرعاية غير متاح لمريضات العنبر.

مرّ هنجري بول من أجل تحية سريعة قبل أن يرجعا إلى البيت، فعانقته باربرا وقبلته وتمنّت له أطيب الأمنيات في زفاف جريس، قائلة إنّ الدور عليه وإنّ على هيلين أن تضعه نصب عينيها، ومثل ذلك من الكلام الذي لم يكن يحبّه هنجري بول في العادة، لكنّه كان يتحسّن في التعامل معه.

(1) palliative care نوع من الرعاية الطبيّة الرامية إلى تخفيف آلام أصحاب الأمراض

الخطيرة.

انقضت بقية اليوم في التفاصيل الصغيرة. قام بيتر وهنجري بول بتجربة الذهاب إلى الكنيسة بالسيارة ليعرفا كم تستغرق رحلة الزفاف، ونصبا العلامات الإرشادية الملونة على طول الطريق لكي لا يضل المدعوون، وإن بدت العلامات صغيرة على نحو مؤسف وغير مقروءة جيداً فور تثبيتها. جهزت هيلين البيت إذ اتصل حشد من الجيران المهنيين يبلغون أنهم يريدون أن يزوروا جريس، فقضت المساء لطيفة تسير في البيت مرتدية نعلاً خفيفاً وبين أصابع قدميها مطلية الأظافر مناديل ورقية. وبقيت بعد ذلك كله مهمات بسيطة تؤدي في الكنيسة التي امتنع عمل أي شيء فيها طوال الأسبوع بسبب حظر الأسبوع المقدس أي نشاط خاص بالزفاف، وفي ما عدا ذلك ضمنت براعة جريس التنظيمية الاعتناء بكل صغيرة وكبيرة، والتأكد من كل شيء، ثم التأكد من التأكد. حتى الزهور وصلت في الوقت المناسب، وخزنت في المطبخ الذي أغلقت التدفئة فيه لكي لا تتسبب في ذوبها، أما الذعر العابر من عدم توافر مزهريات كافية للزهور فقد تبدد بالطرق على أبواب الجيران الذين أسعدهم أن يمدوا أيدي العون.

بعد أسبوع من أكل الشوارع والمطاعم والوجبات الخفيفة، استرخت جريس هانئة على الأريكة ومعها وجبة بسيطة من طعام بيتي طبخه بيتر: دجاج وبطاطس مهروسة وبازلاء مجففة مطبوخة. وكانت وجبة تحبها جريس وإن لم تطبخها قط، فهي من جيل طهاة كتب الطبخ الذين يغالون في تعقيد الأمور. وكان أمراً محتوماً أن يقترح هنجري بول إخراج سكرابل، فكان رد جريس أن سدّدت إلى الهواء لكمة منهكة وقالت «اطلع بها».

مضت اللعبة متقنة، إذ حاول كلٌّ منهم تعظيم درجاته، فبات للرقعة مظهر مزدحم وقلّت فرص الكلمات المؤلفة من حرفين. وترتّب على ذلك أن طالت التوقّفات بين الأدوار، فمضت تشغلها الأحاديث.

قالت هيلين «سفتقد كل هذه الجلبة بعدما ينتهي كل شيء، كان جيّدًا أن يكون لدينا حدث منتظر».

قال هنجري بول «يؤسفني أنّك لو اعتمدت عليّ فستمضي فترة قبل أن ترتدي ثيابك مرّة أخرى».

قال بيتر «ربّما يجدر بنا أن نجدّد العهد يا حبيبتى؟»

قالت هيلين «أفضّل تعديّلها، هناك قليل من الشروط الجديدة التي أودّ أن أضيفها على الوثيقة الصغيرة» ولعبت «فا» وشرحت لهم أنّها «فا» كما في «دوري مي فاصولا تي دو».

قال بيتر «يستحسن ألا تفعل، قد يلغون قسيمة زواجنا».

قالت هيلين «أنا ألغيت بالفعل قسيمة زواجك، بسبب الكثير من النقاط الجزائية» وشفعت بيتر على ظاهر يده وهو يحاول أن يضع كلمته في غير دوره «الدور على جريس».

تدخلت جريس «لذلك أظّل أقول إنكما بحاجة إلى أن تفعل شيئًا لنفسيكما. خذا إجازة لطيفة بعيدًا. اكسرا الروتين وافعل شيئًا طالما أردتما القيام به. بجدّ، أنتما بحاجة إلى حجز شيء ما وتنفيذه».

قالت هيلين «عارفة، عارفة. سأرى ما يمكن عمله بعد الزفاف».

التفت جريس إلى هنجري بول قائلة «وأنت يجب أن تحاول عمل شيء فريد أيضًا. ربّما تسافر مع ليونارد. معك الآن نقود جائزتك، فيمكن أن تحاول القيام برحلة خاصّة، أو تدرس شيئًا، أو يعني، تتدرّب على شيء. لا أعرف، ادرس كمبيوتر، تعلّم السواقة، أيّ شيء كذلك». لعبت جريس كلمة «زن» وكان هنجري بول يعلم أنّها اسم علم ومن ثمّ غير مسموح بها، لكنّه لم يشأ أن يعترض عليها في عشية زفافها وفي غمار انتقادها لها.

قال هنجري بول «ربّما. سنرى. طبقي ممتلئ فعلاً بالكثير، الجودو، ومكتب البريد، وزيارات المستشفى» ولم يكن قد أخبر أسرته بعد بوظيفة الاتحاد الوطني للتمثيل الصامت «وعلى أيّ حال، ليونارد عنده مشكلة نسائية. كان يفترض أن يكون هنا الليلة، لكنّه قال إنّّه لا يريد أن يرهق نفسه استعداداً لليوم الطويل غداً. أعتقد أنّه لم يزل حزيناً على شيلي».

سأل الثلاثة بصوت واحد «ومن شيلي؟»

«حبيبته، أو حبيبته السابقة في ما أعتقد. عندها ابن، وأعتقد أنّها وليونارد لا يزالان منفصلين. سوء تفاهم من نوع ما».

قالت هيلين «فعلاً؟ جيّد هذا من ليونارد. على الأقلّ يحاول. كنت أظنّ أنّه سيبقى أعزب بقيّة العمر، لكن ها هو».

قال بيتر «أظنّ أنّ التغيّر كثير عليه في وقت واحد، مع وفاة أمّه وكلّ شيء».

قالت جريس «مسكين ليونارد. ربّما كان بحاجة إلى المرافق في النهاية. لا بدّ أن أتذكّر أن أقولها له غدا. قد يكون حضور زفاف صعباً وأنت وحدك ومنفصل حديثاً. فعلتها مرّة وانتهى بي الأمر وأنا سكرانة أبكي في الحمامات». لم يقل الثلاثة الآخرون شيئاً أمام هذه الحلقة المزعجة قليلاً من اعتراف عضو الأسرة المثاليّ.

وضع بيتر كلمة ISCHORD على حرف D الذي وضعت جريس على الرقعة، وأطلق صيحة انتصار إذ استعمل في الكلمة جميع حروفه السبعة، فإذا بهم يصحّحون قائلين إنّّه ما من h بعد الـ c في كلمة discord فضلاً عن أنّه ليس دوره.

انتهت الأمسية فور أن انتصرت على الجميع رغبتهم في ليلة مبكّرة. خرج

بيتر وهيلين معًا لتمشية مسائية متأخرة، تعهّدا بأن يناقشا فيها خطط الإجازة. وفيما كان هنجري بول يتهيأ لغسل أسنانه طرقت جريس بابه ودخلت. ومثلما هو الحال في معظم البيوت، كان الحمام عندهم ساحة مزدحمة لا تعرف الخصوصية إلا مطمحا بعيد المنال. وفيما أخذ هنجري بول يغسل أسنانه بعيدا، جلست جريس على حافة الحوض، مرتدية في ما بدا بيجامة متواضعة تواضع فريق في قاع الجدول، مرسوم عليها الفأرة ميني ماوس وهي تأكل شطيرة سجق، فيما تناثرت أصابع سجق صغيرة على البنتال.

قالت جريس «بالمناسبة أنا آسفة لأنني مزعجة لك في بعض الأمور»  
«ماذا تقصدين؟»

«أنت عارف، كلامي عن دفعك إلى عمل شيء. أنا لا أقصد انتقادك».  
«لا بأس، أنا أتجاهل هذا».

«طيب، كنت أرجو أيضا ألا تفعل هذا. لا أحب أن أكون الجاويش في العائلة، فأحدّد للناس ما يفعلونه. أحب أن أكون اللطيفة ذات الشعبية».  
واصل هنجري بول غسل أسنانه بدقّة استثنائية، متيحًا من الصمت لجريس ما صعب عليها ألا تملأه.

سألته «في رأيك، ما الذي سوف يحدث؟»  
«هه؟»

«أقصد، هل ستظلّ مقيمًا هنا إلى الأبد؟ هل ستظلّ أمّي وأبي يريعيانك طالما هما موجودان؟ ماذا سيحدث بعد أن يشيخا؟»

تمضمض هنجري بول وبصق.

«لا أعرف».

«ألا تقلقك هذه الأمور، أو تخطط لها؟»

«أعرف أن الأمور سوف تأخذ مجراها. ولا أمعن التفكير فيها».

«أعرف أنك لا تفعل. ربّما لذلك أنا قلقة عليهما قلقًا كبيرًا. أنا المتولّية كلّ قلق الأسرة».

«جريس، الليلة عشية زفافك. لماذا تثيرين هذا الآن؟ عليك أن تكتفي بانتظار الغد، وتفكرّي في رؤية أندرو، وتفكرّي في إثارة شهر العسل، والزواج، والمستقبل، وكلّ تلك الأمور. ما الأمر؟ لماذا أنت ثقيلة هكذا، والليلة من بين كلّ الليالي؟»

«طوال هذا الوقت كلّهُ وأنا أحاول أن أثبّت في نفسي الحماس تجاه الزفاف والزواج، لكن يبدو وكأنّ مكابح اليد مرفوعة. لا أقدر على أن أجعل نفسي تستمتع أو تخلو من الهمّ، لأنني لست خالية من الهمّ. لا أستطيع أن أمضي قدمًا وأنا لم أزل أشعر شعورًا جارفًا بال... بالواجب تجاه كلّ شيء».

«لكن لماذا؟ أنت طوال عمرك طيّبة مع الجميع، ولا أحد ينتظر منك شيئًا».

«هذا كلامك، لكن ماذا لو احتاجت أمّي وأبي إلى مساعدة في السنين القادمة؟ ماذا لو حدث مكروه لأحدهما وانهار الثاني حطامًا؟ كيف سيكون حالك أنت بعد رحيلهما؟ أريد فقط أن أكون نفسي وأخطط لحياتي أنا، لكنني أشعر بهذه الدوامة تتكوّن من ورائي وتوشك أن تبلعني. هل تفهم قصدي؟»

«أظنّ ذلك، ولو أنّني لا أرى الأمر بهذه الطريقة. لا أعرف ماذا تريدين أن أفعل أو أقول».

«أريدك أن تمضي قدمًا. أريدك أن تستقلّ، فتكون قوّة إيجابيّة في هذا كلّهُ. إذا وقفت على قدميك فسوف يشعران هما بالتحرّر. سيعيشان حياتهما كاملة».



وحينئذ، إذا مضت الأمور على نحو جادٍّ في المستقبل، يمكن أن نصبح، أنت وأنا، فريقًا. لكن الآن، كلُّ ما أشعر به هو أنَّ الأمر كلَّه سوف يهوي على رأسي أنا. مهما تكن الحياة التي أقيمها مع أندرو، فكلُّ مشكلات بارلي فيو ستنتهي على عتبة بيتي قائلة «نحن هنا يا جريس، تدبّري الحلَّ» ولا أستطيع أن أكون بطلة الأسرة الخارقة».

«ومن طلب منك أن تكوني كذلك؟»

«من سيتولَّى الأثقال غيري؟»

«أيُّ أثقال؟»

«لا تراوغي. أنت تعرف عن أيِّ شيء أتكلَّم. المستقبل».

«جريس، أعرف أنَّني محبط لك. أعرف هذا ولكنني أتقبَّله. مهما يحدث، سوف أبذل قصارى جهدي. إذا كنت موجودة سوف أبذل قصارى جهدي، إذا لم تكوني حاضرة سوف أبذل قصارى جهدي. لا جدوى من التخطيط لما تريدان التخطيط له. وأعرف تمامًا أنَّ ما تريدانه، في المقام الأكبر على الإطلاق، هو أن أرى العالم مثلما تريانه أنت، أصحو على طريقتك في النظر إلى الأمور وأصبح نسخة من نفسي تراحين أنت إليها أشدَّ الراحة. ولكن ماذا حينئذ؟ هل ستظليْن تفتشين عليَّ كلَّ بضعة أشهر لتتأكّدي أنَّني لم أنجرف؟ كيف ستضمنين أنَّني بعد أن أنصلح سوف أبقى كما أنا؟ ولكن ماذا عنك، ماذا ستفعلين أنت؟»

«أنا؟ أنا التي تقف وراء تماسك كلِّ شيء طوال كلِّ هذه السنين! أنت طوال عمرك هائم كأنك الدبُّ ويني اللعين<sup>(1)</sup>، تقضي يومًا كاملاً تبحث عن

---

Winnie the Pooh (1) شخصية كرتونية شهيرة للكاتب الإنجليزي آيه آيه ميلن A. Milne والرسام الإنجليزي إي إتش شيرد E. H. Shepard، وقد ظهر في =

صنارة، أو تتأمل الأشكال التي يكوّنها السحاب، بينما أمّي وأبي وأنا نتعامل مع النقود والوظائف والمشكلات وهذه الأمور التي لا تحفى عليك».

«شوفي، مهما يكن الواجب الذي فرضته على نفسك تجاهي، أنا الآن أعفيك منه؟» ومسّ كتفي جريس بفرشاة أسنانه كأنّها صولجان وقال «أنا أحبك، لكنني لا أحتاج إلى أن تعتني بي. أنا لم أحتاج إليك لفترة طويلة جدًا. أنا لست مسؤوليتك. لست مسؤوليّة أيّ أحد. وأنا أخبرك الآن بهذا لأنني أعتقد أنّك مستعدّة لاكتشاف أنّك غير قادرة على مساعدتي. أنا فعلاً آسف أنّي احتجت إلى وقت طويل كي أدرك أنّي أعوقك، لكن ليس على النحو الذي تتصوّره. لقد كنت أعوقك بأن تركتك تعتقن هذه النسخة الوهميّة العزيزة من نفسك. أنت تدمنين الإحساس بالقدرة. كان ينبغي أن أحاول من قبل أن أساعدك فتكتشفين بنفسك أنّه من المستحيل مساعدة أحد».

«شوف، أنا لا أقصد أن أنتقدك، لكن أيّ تغيير نخرج به من هذا؟ لم تزل أمّي وأبي مجبرين على الاعتناء بك».

«هذا بيتي. أعيش هنا. وهما أسرتي. وأحبّهما. وأحبّك أيضاً، حتّى هذا السجق على بجامتك وبكلّ شيء. هذه ليست علاقة عمل. ليست صفقة. أقضي أيامي معهما. أكون هنا حينما تحتاج أمّي إلى رفقة بسيطة. أساعدها في أشياء، ونثرثر في هذا وذاك. أجلس مع أبي وهو يقرأ، ونشاهد التلفزيون معاً ونتكلّم عمّا نشاهده بعد أن نشاهده. لا أحد يعدّ، ولا أحد يسجّل النقاط. نفكرّ جميعاً في عالمك يا جريس، وأنت ببساطة غير حاضرة. تحضرين كالشبح بانشغالك وتغادرين كالشبح، تاركة وراءك قائمة مهمّات. ولا بأس في ذلك. أقبلك كما أنت. لا أنتظر منك أيّ شيء. لكنني أتمنّى فعلاً لو أنّك أكثر سعادة،

من أجل نفسك، لكنك لست كذلك. عندك هذا الخليط العجيب من عقدة الضحية وعقدة التفوق. ومع ذلك، ومع ذلك، أنا سعيد. فماذا تتوقعين أن أقول حين تريدين أن أضع جزءاً من شقائك بدلاً مما في حياتي؟»

سألته جريس «فما نصيحتك إذن؟ ما الذي تعتقد أنت أنني يجب أن أفعله؟ لو أنك أنت بطل الأسرة الخارق، فماذا أنت فاعل؟»

«نحن لسنا بحاجة إلى بطل خارق في العائلة. أنت خلقت عالماً لنفسك فيه هذا الواجب الأخويُّ النبويُّ الثقيل على الكاهل، لكنَّ كلَّ هذا انتهى الآن، لو أنَّه أصلاً كان له وجود. الفيلم خلص. يمكنك أن تكوني جريس لا أكثر. كوني أيَّ جريس تريدين. خيبي رجاءنا كما تشائين. سنحبُّك في كلِّ الحالات. نعم، أبوانا سيشيخان، ونعم سيمرضان، ونعم سيموتان، ولكنَّ هذا سوف يحدث لنا نحن الاثنين أيضًا. غلطتك أنَّك تتصوَّرين أنَّ هذه مشكلة في المستقبل. وهي ليست كذلك. وحلُّ هذه المشكلة هو قضاء وقت معها الآن. كوني في حياتها حتَّى إذا ما حدث المكروه - ونرجو أن يكون بعد سنين كثيرة - تكون ورائنا عشر سنوات، عشرون، سنوات كثيرة مهما تكن من سكرابل ويونيفرستي تشالنجر، والكاراي، والتمشيات، والبستنة، وكلِّ شيء آخر ممَّا نفعله. وعندئذ، حينما يحين الوقت سوف نعرف ما الذي يمكن أن نفعله. لا لأننا فكرنا مسبقاً في كلِّ شيء بل لأننا سنكون درجنا على العادة، على الممارسة، عادة وممارسة حبَّهما ووجودنا معها وما ينتج عن ذلك من وضوح تام. أمِّي وأبي مستمتعان متعة كبيرة بالزفاف لأنك تكلمينهما طوال الوقت وتتصلين، وتدرجينهما في حياتك. وجودك هنا ذكرَّهما بمدى افتقادهما لك عند انشغالك. هما لا يريدان إجازة، كلُّ ما يريدانه هو أن يعرفا أنَّك لن تنسيهما حينما ينتهي كلُّ شيء. أنت بحاجة إلى أن تذهبي وتسعدي مع أندرو، وأن تتخلَّصي من قصَّة دورك في الأسرة. وحينئذ، حينما تأتين، مرَّة

في الأسبوع، مرّة في الشهر، مرّة كلّما استطعت، لا يهم، تعالي ببساطة وكوني نفسك. لا مزيد من نسخ جريس. لا مزيد من جريس حاملة العالم على كتفها، لا مزيد من جريس المتسائلة عن سبب عجز الجميع عن التحرك في وجهة واحدة، لا مزيد من جريس مرجئة السعادة. تعالي فقط، ومن يدري؟ ربّما أكون مضيت قدّمًا. ربّما أحقّق منجزًا. وربّما لا أفعل. لكن لا داعي لأن يمتحن بعضنا بعضًا. لنكن سعداء وحسب. ما دام لدينا وقت».

تغرغر هنجري بول بغسول الفم، ثم انحنى وعانق جريس. وقال وهو يطرق بمقبض فرشاتها على جانب الحوض «هيا قومي، حان وقت غسل الأسنان».

بعض ذلك الذي سمعته جريس كان صعبًا عليها. أراد الجانب التنافسي في نفسها أن يجادل ويواجه الحجّة بالحجّة، أن يوجّه لكمة مضادّة، لكنّها كانت تعرف هنجري بول جيّدًا، وتثق فيه لدرجة أن تعرف أنّه لا يكثر بالفوز في نقاش أصلاً. طوال عمره لم يرد شيئًا على حسابها. وذلك ما كان صعبًا عليها. ما كانت لتجد بأسًا في الهجوم. فالهجوم شيء عندها قدرة على احتماله وردّه. لكن الحقيقة الطيّبة، الحقيقة الرقيقة، أصعب.

وفيما هي مستلقية في السرير، السرير الفرديّ القائم منذ سنوات مراهقتها، مضت تسمع روتين هنجري بول الأخرق في غرفة نومه الملاصقة، صوت فتح الأدراج وصرير أبواب الخزانات في فتحها وإغلاقها، بحثه عن شيء أو آخر. دائمًا، دائمًا، عينه على الشيء التالي. ومن الطابق السفليّ سمعت أبويها يرجعان من التمشية في برد المساء، وهيلين تعرض على بيتر فنجان شاي، وبيتر يعرض أن يدفع يدي زوجته.

## الفصل الرابع والعشرون

### يوم الزفاف

عندما نزل هنجري بول إلى الطابق السفلي في الصباح التالي - وهو ذو الجسم المدرب على البدايات المبكرة في أيام الاثنين - وجد جريس جالسة بالفعل إلى مائدة المطبخ مرتدية ثوب حمّام، تشرب الشاي في هدوء وتستمتع بسماء الصباح البرتقالية الرقيقة. كانت قد خرجت للتوّ فملأت أواني تغذية الطيور، وذكرها ذلك بأواني تغذية الطيور المهملة في بيتها هي.

قالت «مرحبًا بالبطل».

قال هنجري بول وهو يقبلها على جبهتها «مرحبًا، هل تزوّجت بعد؟»  
«لا، ليس بعد. نزلت مبكرًا تحسبًا لاحتمال أن يكون أندرو قد حلّ بنا ويتتظرن، فلم أجد للأسف إلا إناء فيه بقايا البازلاء. نمت جيّدًا؟»  
«نوم طفل رضيع، ولا يعني هذا أن الرضيع ينامون جيّدًا، واسألني أيّ أب أو أم. وأنت؟»

«نمت نوم خشبة متعبة. تصوّرت أن تشغلني قليلًا تفاصيل الزفاف، لكن ما كدت أبدأ في قراءة رواية من مكتبة غرفتي القديمة حتّى بدأ رأسي يميل فاستسلمت في النهاية».

قال هنجري بول «أيّ رواية؟»

«ليلة أن أمطرت<sup>(1)</sup> - إحدى مفضلاتك القديمة».

«ذلك كتاب عظيم، أو ربّما يجدر بي القول إنَّ الصفحات الخمسين الأولى منه عظيمة. قرأتها مرّات عدّة. وقرأت الصفحة الأخيرة أيضًا، فيمكن أن أقول لك كيف تُحلُّ الجريمة، لو أنّك مهتمّة؟ سأعدُّ بعض العصيدة، هل تحبّين أن أعدّ لك شيئًا؟»

«شكرًا، أنا بخير. تناولت بعض الحبوب. وبالمناسبة شكرًا على ليلة أمس. أعني ثرثرتنا البسيطة».

«آه نعم. يعني، أنت أدري بي، لا ألقى الخطب في العادة، ولكن تلك كانت من وراء جيب بيجامتي العلوي. شعرت بعدها فعلاً أنّ الكلام استنزفني. جميل أنّي لن ألقى خطبة اليوم، هل ستلقين أنت؟»  
«فقط بعض الشكر. بلا تعقيد».

استمتعا بإفطار لطيف ومريح، بلا كلام كثير، شربت فيه جريس الشاي من فنجان عليه رسمة بيضة فصيح وهنجري بول من فنجان عليه «أنا ♥ لندن».

لم يمض وقت طويل قبل أن تنزل هيلين وبيتر، ممتلئين بإثارة بلهاء يعدّان الإفطار بكلّ الثروة الفوضويّة عن برنامج الطهو النهاري وبيوت العائلات التي كم يسهل تحوّل أحدها من دير إلى سيرك فور أن ينخدش السلام الصباحي وتبدأ أولى طاقة اليوم في الاحتشاد. فتحت هيلين المذياع وأخذت تدير المؤشّر محاولة البحث عن شيء عدا الأخبار أو الوشيش، غير مدركة أنّها انتقلت من موجة إف إم إلى الموجة الطويلة. جلس بيتر وظهره

---

(1) صدرت الرواية (That Night It Rained) سنة 1961 وهي لكاتب الإثارة الأمريكي

الرائد هيلاري واو (Hillary Waugh) (1920-2008)

إلى الجدار يجرب مفاتيح الكلمات المتقاطعة غير المحلولة في جريدة الأحد، فتلك وسيلة ممتعة لتزجية الوقت في يوم مشحون كذلك اليوم، وذلك ما لم تكن هيلين لتغفل عنه. تولى هنجري بول مسؤولية المذياع، فأعاده إلى موجة إف إم، ولم يمض وقت طويل حتى كانوا يستمعون إلى فرقة أبا<sup>(1)</sup> التي ما كان لأحد في البيت أن يسمعا قاصداً، لكنها في الوقت نفسه فرقة تحظى بموافقة عامة من الجميع كلما صودفت في المذياع. واستلظفت جريس وجودها مرة أخرى في بيت مزدحم.

بعد الإفطار فتح بيتر باب البيت فإذا بالطارق مصففة شعر العروس ومعها حقيبتان من الألومنيوم فيهما مساحيق التجميل ومعدّات التصفيف، مرتدية - حتى في الثامنة صباحاً - ثياباً تليق بالذهاب إلى الحانة في ليلة المشارب المخفضة للمطلقات. ولم يمض وقت طويل حتى كانت وصيفتا عرس جريس قد وصلتا: كارين التي عرفتھا منذ الكلية وإن لم تعد تراھا كثير في الآونة الأخيرة، وباتي زميلتها في شغلها القديم ونديمتها في سهرات الشراب قديماً حينما كانت النديمة مرادفة للصديقة المقربة. كان على بيتر أن يلزم البيت إلى أن وصلت سيّارة الزفاف بعد أربع ساعات، وتلك فترة تطاول الأبد بالنسبة إلى رجل انطوائي في منتصف العمر حينما يقضيها مع ثلاث نساء مشتعلات حماساً ومصففة شعورهنّ. أمّا هيلين - التي أثرت الابتعاد عن الأضواء ولم ترغب في المرور بالمرّ بنفسها - فأخذت هنجري بول وليونارد إلى الكنيسة أولاً ليرتبا الزهور، ويعقدا ربطات الفراشة عند طرفي الممرّ، ثم يمرّان بالمكنسة الكهربائية على سجّادة الكنيسة إذا لزم الأمر، إذ قدّرت أن الساعة المعتادين لن يكونوا حاضرين بسبب العطلة الأسبوعية الطويلة. وفور الانتهاء من ترتيبات الكنيسة، يتوجّهان بحسب الخطة إلى

(1) [ABBA] فرقة غنائية سويدية تأسست سنة 1972

الفندق مبكرين فيرتديان ويستعدّان للطقس الكنسيّ.

غامت عينا هيلين قليلاً حينها حان وقت ذهابها، وقد علمت أنّ المرّة التالية التي يلتقيان فيها ستشهد جريس في ثوب الزفاف وقد بدأت الأمور تأخذ مجراها. انتظرت أمام بيت ليونارد وأطلقت النفير دون أن توقف المحرّك، وكأَنَّها تقلّه إلى موعد غراميّ لحبيين في المدرسة الثانويّة. أقبل ليونارد عبر ممرّ السيّارة يسحب حقيبة صغيرة بيد وعلى كتفه في الجهة الأخرى كيس بذلته. كان قد قضى عطلة أسبوعيّة تأمليّة هادئة في البيت، منفرداً بنفسه، نظّف خلالها البيت تنظيفاً محترمةً وأبقى يديه بصفة عامّة مشغولتين عوضاً عن عقله. وفي يوم السبت ذهب وحده إلى قاعة الموسيقى فاستمع إلى أجنحة التشيلو الستّة لباخ، فمضى قلبه ينبض مع الموسيقى برقة وهو مستسلم لقليل من الألم على شيلي. لكنّه إجمالاً، وبصرف النظر عن لحظات قليلات من التساهل مع نفسه، لم يتخبّط أو يستسلم لأحلام اليقظة أكثر ممّا ينبغي. قرّر ليونارد أن يجلس في مقدّمة السيّارة بجوار هيلين بدلاً من الجلوس بالخلف مع هنجري بول الذي مضى ينعم بقليل من الهدوء بجوار النافذة المفتوحة. ولأنّ مقعد المقدّمة يتيح مزايا السيطرة على سترियो السيّارة فقد أتيح له الاختيار الأوّل من مجموعة الأسطوانات المكدّسة في ما بين مقعده ومقعد السائق، غير أنّ ليونارد بنبله المعهود وخصاله كمؤسّس للإجماع عرض الخيارات على الآخرين وتوصّل إلى إجماع تامّ، فقد كان كلّ من هيلين وهنجري بول صاحبي ذوق موسيقي جيّد ومدّش بالنسبة لشخصين لا يتكلّمان كثيراً عن الموسيقى. اختار في النهاية أسطوانة أجهل أغنيات الأخوين إيفرلي<sup>(1)</sup> فغرقت الأغنيات وراء هدير محرّك الفيات في ثنّيا

(1) يتألّف الثنائي الغنائي الأمريكي [Everly Brothers] من الأخوين إيزاك (1937 - ) وفيليب إيفرلي (1939-2014) اللذين تأثرا بالموسيقى الريفيّة لكنهما ينتميان إلى الرّوك أند =



كفاحه مع سرعات الطريق السريع. رجع ليونارد قليلاً إلى نفسه مع انتقال الأخوين فيل ودون من أغنية إلى أغنية عن القلب المفطور، متخوفاً من أن هيلين وهنجري بول قد يظنانه في حالة مزاجية متوترة، فأفرط في التعويض بلغو فارغ مفاده أنه يكنُّ محبة حقيقية للزفاف القديم الجيد.

حينما وصلوا إلى الكنيسة، وكانت تقع على بعد أميال من إيرشيتهم، عند تقاطع طرق ريفية، وجدوها مفتوحة وخاوية، ولم يزل الهواء بالداخل يحمل أثراً من روائح الفصح المقدسة: أي البخور والشمع والأنفاس المبوثة في الأدعية. كانت الكنيسة مبنى صغيراً على شكل صليب ذي سقف مقبب، وعدا ذلك تفتقر إلى أي ملامح ذات جلال. بتعليمات من جريس، سيستمعلون فقط صفوف المقاعد الوسطى، ويتركون مقاعد الجانبين خاوية، تحسباً لمجيء أي من أهل المنطقة لحضور القداس، فقد بلغها أن أهل المنطقة يفعلون ذلك أحياناً. مضى ليونارد على عادته الكنسية ينظر إلى تصوير درب الصليب، متأملاً في الآلام ومعجباً بها - على الرغم من عدم تديته - باعتبارها قصة ملحمية لا ينال منها الزمن. كانت مراحل درب الصלב في الكنيسة مصورة في أشكال مسطحة فاترة شحيحة المشاعر الحقيقية. وفي المرحلة الحادية عشرة التي تدق فيها المسامير لتعليق المسيح على الصليب يظهر روماني كرتوني يتسم ابتسامة شبه سادية رافعاً بيده مطرقة، ولما كان ليونارد قد قضى ساعات طوالاً يحاول تصوير الرومان بشيء من الحساسية فقد نفر من الصورة. كان ينبغي - حسبما يعلم - أن يدق قائد المئة المسؤول المسامير بين عظام الساعد على مقربة من المعصم مع مراعاة عدم الإضرار بأي من الشرايين أو العروق الكبرى، في عنف جراحي، لا عدوان فيه ولا مجد. ففكر في قائد المئة ذلك وكيف أوكلت إليه المهمة، وهي بالقطع أنتكاسة

=رول وقد بدأ تسجيل وعرض أغانيها سنة 1956.

على المستوى المهنيّ. أكان هو قائد المئة الذي قدّم الخلّ للمسيح وانخرط في السخرية من المخمور؟ كيف يكون شعور رجل كهذا كلّ صباح، إذ يستيقظ على غثيانه من يوم آخر ينتظره حافلاً بالقسوة؟ من التي ترضى بالزواج برجل كهذا؟ وما الذي يرجوه من الحياة رجل في هذا الوضع؟

سرعان ما انتزع ليونارد من حلم يقظته بطلب هيلين منه أن يساعد هنجري بول في جلب زهور المذبح من السيّارة. كانت زهور أحد الفصح لم تزل في مكانها فوزّعتها هيلين في أرجاء الكنيسة لتترك أثراً طيباً وتضفي بهجة على المكان في يوم بدا أنّه سيكون ملبّداً بالغيوم. عقد ليونارد وهنجري بول ربطات الفراشات عند طرفي الممرّ بكلّ الحماسة الخرقاء المعهودة في تلميذ يحاول تعليم نفسه ربط حذائه. وفي النهاية أعادت هيلين ربطها بنفسها، وطلبت من الولدين أن يكنسا بدلاً من ذلك، فانهى الكنس إلى أن أصبح مهمّة شخص واحد يقوم بها شخصان فليونارد يتحرّك بالمكنسة وهنجري بول يشير إلى الأجزاء المتروكة دون كنس. لم ينقض وقت طويل حتّى أصبح منظر الكنيسة مقبولا وإن تعذّر إدخال الكثير من التحسينات عليها بما لها من بساطة. وقبل خروجهم لم تملك هيلين ألاّ تتوقّف عند بداية الممرّ لتنعم بالمنظر الذي سوف يستقبل جريس عند وصولها، وتبدّت لها فراشات يوم زفافها من الذاكرة وهي واقفة هناك.

وصلوا إلى الفندق ولم يزل لديهم وقت كبير. كان الفندق منزلاً ريفياً قديماً له سمت قلعة، وفيه من الداخل مزيج ثريّ من القديم والجديد، ويبدو أنّه تجدد ولم يمض على تجديده عهد بعيد. بدا بهو الاستقبال قطعة ثريّة من الفنّ الحديث، ولكن بعض عناصره بدت بعيدة بعض الشيء عن ذوق ليونارد، واصطفّت على الجدران كتب حقيقيّة، وإن لم يكن شكلها يشي بوجود كلاسيكيات مثل الطاحونة على نهر فلوس أو ليلة أن أمطرت.

لَمَّا كَانَ كُلُّ مِنْهُمَا مُرَافِقَ الْآخِرِ، فَقَدْ حَجَزَ هَنْجَرِي بُولَ غُرْفَةً وَاحِدَةً لَهُ هُوَ وَلِيُونَارْد. اقْتَادَهُمَا إِلَى الْغُرْفَةِ عَامِلٌ مَسْنٌ بِذَلِكَ أَقْصَى مَا فِي وَسْعِهِ لِيُثَرِّثَ فِي الطَّرِيقِ، وَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ هَنْجَرِي بُولَ أَنْ يَبَادِلَهُ الْحَدِيثَ بِسَبَبِ هَلْعِهِ الْمَكْتُومِ مِنْ كَيْفِيَّةِ إِعْطَاءِ إِكْرَامِيَّةٍ لِرَجُلٍ يَكَادُ يَكُونُ فِي مِثْلِ سَنِّ أَبِيهِ. كَانَتْ الْغُرْفَةُ سَاطِعَةً حَدِيثَةً مَزُودَةً بِزَجَاجَتِي مِيَاهٍ مَجَانِيَّتَيْنِ، وَلَمْ يَمْلِكْ لِيُونَارْدُ إِلَّا أَنْ يَقُولَ - بَرغمَ مَا فِي ذَلِكَ مِنْ فِظَازَةٍ - إِنَّهَا فِي مَا يَبْدُو تَحْوِي سَرِيرًا وَاحِدًا مَزْدُوجًا، بَلْ إِنَّهُ مِنَ النَّوعِ ذِي الْعَمْدَانِ الْأَرْبَعِ.

قَالَ لِهَنْجَرِي بُولَ «يَبْدُو أَنَّكَ أَخَذْتَ مَسْأَلَةَ رَفِيقِ الدَّعْوَةِ هَذِهِ عَلَى مَحْمَلِ الْجَدِّ أَكْثَرَ مِنَ اللَّازِمِ، أَمْ مَاذَا؟»

«ظَنَنْتُ أَنَّهَا سَوْفَ تَحْتَوِي سَرِيرَيْنِ وَلَيْسَ وَاحِدًا».

«مَاذَا طَلَبْتَ وَأَنْتَ تَحْجِزُ؟»

«قُلْتُ فَقَطْ إِنَّنَا بِحَاجَةٍ إِلَى غُرْفَةٍ لِي وَلِنَ يَرِافِقْنِي فِي الدَّعْوَةِ. وَعِنْدَمَا حَاوَلْتُ أَنْ تَتَأَكَّدَ مِنِّي أَخْبَرْتَهَا بِوَضُوحٍ أَنَّنِي أُرِيدُ غُرْفَةً مَزْدُوجَةً، وَلَيْسَ غُرْفَةً كَهَذِهِ».

«وَلَكِنْ هَذِهِ الْغُرْفَةُ مَزْدُوجَةٌ. الْغُرْفَةُ الْمَزْدُوجَةُ هِيَ الْغُرْفَةُ ذَاتُ السَّرِيرِ الْمَزْدُوجِ».

أَوْضَحَ هَنْجَرِي بُولَ «ظَنَنْتُ أَنَّ الْغُرْفَةَ ذَاتَ السَّرِيرِ الْمَزْدُوجِ هِيَ الْغُرْفَةُ التَّوَامُ. أَعْنِي أَنَّنِي شَكَكْتُ فِي نَفْسِي ثُمَّ فَهَمْتُ أَنَّ هُنَاكَ التَّوَامُ الْمُلْتَصِقَ، أَيْ أَنَّ الْغُرْفَةَ التَّوَامَ لَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ السَّرِيرَانِ فِيهَا مُلْتَصِقَيْنِ، أَمَّا عِنْدَمَا يَكُونُ لَدَيْكَ شَيْءٌ مَا مَزْدُوجٌ فَيَكُونُ عِنْدَكَ اثْنَانِ مِنَ الشَّيْءِ. أَقْصَدُ أَنَّكَ لَوْ طَلَبْتَ لِنَفْسِكَ آيَسَ كَرِيمٍ مَزْدُوجًا فَإِنَّكَ تَحْصُلُ عَلَى كَرْتِي آيَسَ كَرِيمٍ وَلَيْسَ كُرَةً وَاحِدَةً عَمَلًا، فَفَكَّرْتُ أَنَّهُ سَيَكُونُ هُنَاكَ مَزْدُوجٌ مِنَ الْأُسْرَةِ».

«طيب وماذا سنفعل؟ هل نرى إن كانت عندهم غرفة أخرى؟»

«نجرّب، لكنني أعرف أنّ جريس قالت إنّ هذا الفندق يحجزه ضيوف الزفاف قبل عصور من الزفاف. وكان على المتأخرين أن يحجزوا في فندق على الطريق اسمه بي آند بي، لذلك أعتقد أنّه سيكون صعباً ما لم يرغب أحد ممّن نعرفهم في التبديل».

قال ليونارد «أوكيه، وهذا يبدو مستبعداً. والظاهر أنّنا سوف نضطرّ أن نتشارك. وأرجو أن تكون بجامتك ذات بنطال طويل، وليس قصيراً أقرب إلى السروال، وأجد سابقاً مشعرة تقتحم جانبي».

«أنا مثلك صاحب بجامات مشجّرة يا ليونارد. كاملة ومستورة ومحترمة، ولكنني أحبّ أن أخرج ساقاً من الغطاء بحثاً عن البرودة».

«وأنا أيضاً. أوكيه، خلصنا. شمال أم يمين؟»

«ماذا لو أخذت اليمين فهو قريب من الحّمّام تحسباً لأن أحتاج إلى أن أبول ناعساً بالليل».

ثم بذل الرجلان أقصى ما في وسعهما ليتجهّزا ويلبسا للزفاف، مع اجتناب حسّاس لأيّ حرج لا داعي له، وإن يكن محتوماً عند الاشتراك في غرفة فندقية صغيرة أن يلاحظ المرء لوّناً استعراضياً مفاجئاً في سروال داخليّ ملقى على السرير.

للمرّة الثالثة خلال ذلك الأسبوع ارتدى هنجري بول بذلته الجديدة التي أضاف إليها ربطة عنق بنفسجيّة من كواليتي ستريت وقميصاً جديداً آخر لكنّه في هذه المرّة ذو أسورة مفردة. ارتدى ليونارد البذلة التي اشتراها لجنّازة أمّه، وإن تبدّل لونها الرماديّ الرزين بأثرٍ من ربطة عنقه الخضراء الفاتحة بلون ورق البتولا.

عندما حان الوقت، قابلا هيلين في بهو الفندق حيث كانت تثرثر مع أبوي أندرو. طالما انبهر هنجري بول بقدرة هيلين على تنحية أي حدث مهما يكن والانخراط في الثروة العابرة. فلو أنّها المكلفة بتسديد ضربة جزاء في نهائي الكأس لوجدت لحظة تثرثر فيها مع الحارس المنافس حول خطته لما بعد الاعتزال، أو إن كانت تزرع قلب قرد لطفل صغير مستلقٍ على طاولة العمليات لسألت الممرضة ببساطة عما إذا كان حفيدها لم يزل يضع تقويم الأسنان، فاهتمامها بالناس وفضولها تجاههم أصيل ورأيها أنّ الناس يميلون أكثر إلى فتح قلوبهم في الثروات البسيطة.

حينما رجعوا إلى الكنيسة، كان بعض الشباب من أقارب أندرو يدخنون خارجها، وبدا ذلك لهنجري بول غير لائق في زفاف، وإن لم يستطع أن يحدّد سبب رأيه هذا بالضبط. تلكا خادم الكنيسة في انتظار أن يتكلّم مع أحد في اتعابه، حتّى أتيح له أخيراً التواصل مع إثنين العريس الذي كان واقفاً وسط المدخنين. بالداخل، وقف ليونارد وهنجري بول كل في مكانه عند بداية المجرّ لإرشاد المدعوّين إلى قسم العروس أو العريس، وتوزيع كتيّبات الزفاف منزليّة الصنع التي غرزت كتابتها وتنسيقها في جريس عادة التفحّش بشتائم جنود البحريّة. بدا معظم المدعوّين عارفين بالغريزة إلى أيّ جانب يتوجّهون، حتّى الأصدقاء الذين تشترك فيهم جريس وأندرو أظهروا انحيازاً طفيفاً في إثارة جانب على الآخر. بدا ليونارد سعيداً بالمساعدة، وبخاصّة أنّها أعفته من نصف ساعة من الحرج الاجتماعي وهو جالس في مقعده وحيداً لا يجد ما يفعله، وأيضاً لأنّ مساعدته أسبغت الشريّة على وضعه في الزفاف، بوصفه «صديق شقيق العروس»، وكان يبدو في غير تلك الحالة شخصاً يجب عليه أن يخلي المكان في زفاف معروف أنّ عدد المدعوّين إليه محدود.

أمّا هنجري بول فكانت الأمور بالنسبة إليه أكثر تعقيداً بعض الشيء.

فبسبب افتقاره إلى الحسـم وخفائه الاجتماعيّ طول عمره كان الناس في الغالب يعبرونه قبل أن تسنح له الفرصة لتلاقي العيون وعرض المساعدة. كما أنّه لم يكن بارعاً في تذكّر الوجوه، وحاله مع الأسماء أسوأ، ولم يُعِنه على ذلك العجز مرور الزمن ونسيانه في ثنـايا ذلك وجود أقارب كبار بدوا شديدي الاختلاف عمّا كانوا عليه في طفولتهم. مع ذلك بدوا جميعاً يعرفونه. إذ أقبل عليه شقيق أبيه العمّ مايكل وصافحه بكلتا اليدين ونادى ولديه الكبيرين ليقدّما إليه التحيّة. كانا في صباهما يحبّان أن يشمّا رائحة الصمغ في صندوق أدوات الرسم الخاصّ بهنجري بول عند زيارتهما. كانت جين زوجة العمّ مايكل قد ماتت قبل سنوات قليلات وانحرف هو قليلاً فانجرف إلى السياحة الجنسيّة في الشرق الأقصى، ثم بدأ دراسة اللاهوت، قبل أن يستقرّ على مزيج تقاعديّ أقرب إلى الطبيعيّ قوامه التطوُّع في أعمال الكنيسة والاشتراك في دراسات مسائيّة.

جاءت الخالة سارة - شقيقة هيلين التي أعدّت كعكة زفاف أبويه - فعانقت هنجري بول عناقاً حارّاً وقبّلته قبله صادفت أذنه. لم تتزوَّج قطّ، لكنّها اتخذت على مدار حياتها «صديقة خاصّة» اسمها كوليت تردّدت معها على كلّ مكان بما في ذلك الزفاف. لم يُطلب من سارة إعداد الكعكة هذه المرّة، وكان متوقّعا أن يصعب إرضاؤها عند توزيعها في وقت لاحق.

تعرّف هنجري بول كذلك على قليل من صديقات جريس القديمات في الكلّيّة وفي المنطقة، وهنّ خليط من حاملات أسماء تارا وسوزان وليزا وليندا ولويزا، بدّون جميعاً أطول ممّا كنّ في ذاكرته بسبب كعوب أحذية الزفاف، وتنوّعت أمزجتهنّ في مرافقي الدعوات. لفت ثنائيّ نظره بصفة خاصّة: مؤلّف من رجل أنيق في الثمانينيات من عمره، ذي شعر متمواج جليل مصفّف إلى الوراء وزوجته العجوز مصبوغة الشعر بلون بنيّ داكن

بدا وجهها فيه وكأنه مطلٌّ في فرح من داخل أكمة شجرية. لم يبد أيُّ منهما أطول قامة من خمسة أقدام، ولم يفارق وجهيهما الابتسام، ربَّت الرجل على أسفل ظهر هنجري بول ومال عليه ليتكلَّم، ثم بدا أنه غيرَ رأيه ومدَّ مرفقه إلى زوجته فتعلَّقت به وانسابا معًا حتَّى جلسا في الصفِّ الثاني من جانب العريس مبتسمين وملوِّحين للجميع.

أخذت الكنيسة تمتلئ باطِّراد، مع غليان رقيق للأحاديث في المكان. فالنساء يُثْنين على ثياب بعضهنَّ بعضًا، والأكثر تمرُّسًا فيهنَّ لم ينسين التزوُّد بمعطف أو فراء صناعيٍّ لزفاف في أبريل، والرجال انخرطوا في ثرثرتهم الذكريَّة المعهودة، حريصين أن تبقى خفيفة وعامة. ولم يكن أشدَّ ودًا من مرافقي الدعوات الذين لم يكن لهم من خيار إلَّا أن يكونوا مستمعي اليوم اللطفاء. انشغل خادم الكنيسة في المذبح مطمئنًا على أنَّ كلَّ شيء كما ينبغي أن يكون، كأنه مساعد فرقة موسيقية يهَيِّ كلَّ شيء للأغنية الأخيرة. كان القسيس يتكلَّم مع والدي أندرو وهيلين التي كانت قبل ذلك جالسة منفردة بنفسها. في المقدِّمة تمامًا، كان أندرو يثرثر مع إشيينه، ناضحًا برباطة الجأش المعهودة، مبدئًا كلَّ ما يؤكِّد سميت العريس الثابت. كان يرتدي بذلة إيطالية زرقاء أنيقة التفصيل، وربطة عنق نبيذية اللون على قميص أبيض ناصع مزدوج الأساور أغلقه بطاقم أزرار لؤلؤية ارتداه والده في زفافه. لم يبد عليه من علامات توتر إلَّا النظرات الخاطفة تجاه زجاج الدهليز المحبَّب الذي ستصل منه جريس حينما تصبح مستعدَّة. وعلى مدار ذلك كله، مضى عازف الأرغن - وما كان مهادئًا بأيِّ مقياس - يعزف ارتجالات في الخلفية، فهي مزيج من النغمات الهلامية الدافئة وبعض النقرات اللاعبة باليد اليمني، متجاهلاً الجانب الشيطانيَّ من الأرغن الكنسي<sup>(1)</sup>.

(1) ظل الأرغن مرفوضًا كنسيًا حتى القرن التاسع عشر، لحسابه مسكونًا بالشياطين.

جاء دخول مجموعة المدخنين على عجل إلى الكنيسة ليعلن وصول ركب العروس. أوقف عازف الأرغن عزفه وحلَّ على الكنيسة صمت عامٍّ مع وقوف الجميع. وقف هنجري بول بجوار أمّه عند مقدّمة الكنيسة وقد استعدّت هيلين بمنديل. ونظر ليونارد - كدأبه في الفرجة على الناس - إلى القسيس الذي ارتسمت بعرض وجهه ابتسامة أبويّة، كاشفاً سرّاً تفضيله للمراحل الرومنتيكيّة الأولى في الطقوس على جميع ما عداها. وقف أندرو هادناً وسعيداً، شاكرًا بينه وبين نفسه لجريس دقّة التزامها بالموعد في اليوم الأهمّ بالنسبة إليه بحقّ.

دخلت وصيفات العروس أوّلاً في شيء من الخفر مواجهات ما أظهره المدعوّون من حماسة المصوّرين الصحفيين مطاردي المشاهير ولكن باستعمال هواتفهم، ومشيّن عبر الممرّ واحدة تلو الأخرى ليتخذنّ أماكنهنّ في المقدّمة. ثمّ، بإيحاء من المصوّر الفوتوغرافيّ ودونها تهاون في تقدير التوتّر الدراميّ، انطلق عازف الأرغن بالجميل الافتتاحيّة من كونشيرتو البيانو القيثاريّ رقم 5 لباخ، والمعروف لأندرو بالأغنية التي اختارتها جريس من تمثيليّة «حنّا وأخواتها» الكوميديّة الأمريكيّة.

وأخيراً دخلت.

توقّفت للحظة، رزينة، سعيدة، وعلى وجهها سياء من توشك على الانطلاق في الغناء.

كانت ترتدي فستانا فاتنا من الساتان العاجيّ يغطّي حتّى منتصف ربليتها. لكنّ أنظار الجميع تعلّقت ببريق الأخضر الزمرديّ في حذاءها، فهو اختيار غير متوقّع من ناحية، وهو مع ذلك، بطريقة ما، اختيار جريسيّ بلا أدنى شكٍّ من ناحية أخرى. سارت في الممرّ وذراعها في ذراع بيتر وهو



يبدل أقصى جهده كي يسير ببطء، وبداخله يترقرق زهو جميل، ووقف أندرو متأملاً جريس في كل خطوة شاكراً بتر بأرق الابتسامات وهو يتناول كلتا يدي جريس بين يديه.

قالت جريس ببساطة «ها أنا جئت».

قال أندرو بمزيد من البساطة «شكلك في منتهى الجمال».

في جميع أرجاء الكنيسة، أخذت الحبيبات يعصرن أيدي مرافقيهن، والزوجات يُملن رءوسهنَّ على أكتاف أزواجهنَّ، والقسيس، غير راغب في خدش تلك اللحظة، لولا أن الواجب يلزمه بالمضيَّ قدماً، فألقى كلمتي ترحيب بجريس وأندرو والجمع الحاضر. قدّم لكلِّ فقرة من الطقوس بشرح أهميتها الرمزيّة، وتلك طريقة مجرّبة لتنبية المشاركين إلى أن دورهم حان للتقدّم قليلاً نحو المذبح. جاءت عظته تأملاً خفيفاً في الحبِّ والأسرة، وإعلاء الفلسفيِّ على الروحانيِّ، كدأب رجال الكنيسة في تجاوز مسألة الالتزام الدينيِّ اعتماداً على لعبة أبعد مدى، فسوف تسنح لهم فرص لاحقة في العمادات والمناولات والرشم بزيت الميرون.

على مدار الأسابيع القليلة السابقة دأبت جريس على القول بأن الطقس الدينيّ كان أقلَّ ما تتلَهَّف عليه، مستشعرة نفاقها بسبب نقص إيمانها، لكنّه ما كاد يبدأ حتّى أرادته أن يستمرَّ إلى الأبد. وبرغم أنّها انكبّت طويلاً على كتيّب التعليمات، حتّى بات ينبغي لها أن تكون عالمة بالأقوال والأدعية عن ظهر قلب، فقد جلست متببهة إليها، ومصغية، وكأَنَّها كلمات وأقوال طازجة لم تعرفها من قبل، ونصائح صادقة عن رباط الحبِّ وأعماقه الكثيرة ومصاعبه ومشاقّه. ومع أنّ القدّاس في ذكريات طفولتها يمتدُّ لساعات لا حصر لها، بدت طقوس الزفاف بارقاً عابراً، وقد عطّلت الفرحة إحساسها بالزمن.

ولمّا حان وقت أداء القسم، الذي كتبه بنفسيهما، انزلق الخاتمان اللذان أقسما على ارتدائهما مدى العمر في سلاسة. وبذلك، وسط أهلها وأصدقائهما، وعبر شعيرة لا تشيخ ولا تقدّم، أصبحا متزوّجين.

عندما انتهى القدّاس، مضيا مبتسمين في طريق الرجوع عبر الممرّ على موسيقى «وصول ملكة سبأ» لهاندل، وقد استحقّ عازف الأورغن كلّ بنس من أجره.

بعد التقاط الصور، والمعانقات والتهنئات وجوقات التمنّيات الطيبات، استقلّ الاثنان المقعد الخلفيّ من الجاجوار مارك تو الحمراء التي اختارتها جريس تحيةً للمفتّش إنديفور مورس بطل مسلسلها التلفزيونيّ المفضّل. جالسين فيها، على المقعد الجلديّ الأحمر، حيث لم يكن للسيقان متسع كبير، مضيا يلوّحان من الشباكين تلويح زوجين ملكيين. قالت جريس «أقول لك شيئاً؟ كان ذلك لطيفاً».

مكتبة

t.me/soramnqraa

## الفصل الخامس والعشرون

### حفل الاستقبال

في حفل الاستقبال بالفندق، اضطرَّ هنجري بول إلى التخلّي عن ليونارد ليساعد في ترتيب الصور العائليّة، فقد أوكلت إليه مسؤوليّة جمع الأقارب الشاردين الذين استولى عليهم الضجر فبدأوا يهيمون في وقت الاحتياج إليهم.

ولأنّ جريس وأنדרو كانا زوجين كبيرين بعض الشيء، فقد كان الجمع كبارًا بدورهم بعض الشيء، ولا ينتظر منهم الإفراط في الشراب على بطون خاوية في فترة ما قبل العشاء بداخل ما سيعرف لاحقًا بحانة المدعوّين النزلاء. فبدلاً من السكر، شوهد قليل من الثأوب إذ بدأ المدعوّون يومهم مبكراً، وذهب أزواج الحوامل منهم يبحثون عن كراسيّ، ومضى الأزواج الذين جاءوا غير مصطحبين أبناءهم يطمئنون برسائل نصيّة يبعثونها إلى الجدّات الجالسات بالصغار.

في ما عدا هنجري بول وأسرته المباشرة، لم يكن ليونارد يعرف كثيراً من المدعوّين إلى الزفاف. أخذ يتجوّل في البهو وفي يده كأس شمبانيا وقليل من الأطعمة الخفيفة الموزّعة لم يتجاوز قليلاً من لفائف البصل المقرمش وشيء ما بالسلمون. كان عازف البيانو الفندققيّ يعزف ألحاناً من سجلّ الأغنيات الأمريكيّ الكبير<sup>(1)</sup>، وفي كلّ مكان خلعت السترات ووضعت على ظهور

(1) هو سجل بأهم الأغنيات الأمريكيّة وأكثرها تأثيراً وأنجحها في اختبار الزمن منذ بداية القرن=

الكراسيَّ وتحرَّرت النساء لدقائق قليلات من أحذيتهنَّ عالية الكعوب. في الماضي، كان ليونارد يشعر أنه بارز تمامًا في موقف كهذا، وكأنَّ وحدته مثار حديث جميع من في المكان، وينتابه ذلك الإحساس بالانسحاب من المجتمع، والرغبة في أن يكون خفيًّا وسط الحاضرين، وتبَدَّد ثقته بنفسه. لكنَّه الآن وقد عثر في نفسه على ركن وادع، بات بوسعه أن يشعر بالسعادة في المكان وتخلَّص من إحساسه بالإقصاء عنه.

سار مدير الفندق في الحانة يدقُّ جرسًا مدرسيًّا، وتلك كانت علامة للمدعوِّين الجياع لكي يبحثوا عن أسمائهم على خريطة الموائد المعلَّقة بجانب غرفة الطعام الكبرى. جلس المدعوُّون في كراسيَّهم، متعارفين بأحسن ما استطاعوا عبر الموائد الدائريَّة الضخمة التي التَّفَّوا حولها، وهم ينتظرون العروس والعريس وطبعا الطعام. جاءت جلسة ليونارد بين هنجري بول وسيِّدة اسمها جلوريا جريمز، هي عمَّة لأندرو لم تشقَّ طريقها إلى قائمة المدعوِّين إلَّا لأنَّ ليونارد تنازل عن مرافقه. أجلستها جريس بجوار ليونارد لأنَّها كاتبة، ثم سرعان ما تبين أنَّها متكلمة بالقدر نفسه.

استهلَّت قائلة «إنَّني أقول دائما إنَّ الزفاف هو خير وسيلة لمقابلة ناس جدد. وخير وسيلة أي خير وسيلة. ففي أيِّ مكان آخر تقابل ناسًا بلا أجندة؟ أقصد أنَّني أكتب، وأظنُّك على علم بهذا، لذلك أشارك في كثير من فعاليات إطلاق الكتب ببنيتها ومقبَّلاتها وما إلى ذلك، لكن الجميع دائما ينظرون من أعلى رأسك أو يتجاوزونك متخوِّفين أن يفوتهم شيء. كأنَّها عند الواحد منهم رادار يبحث عمَّن يمكن أن يحقق لهم مصلحة مهنيَّة وهو دائمو القلق من التقيُّد بحوار لأنَّهم شديداو القلق على أولئك الذين لا يحاورونهم،

---

=العشرين، وذلك بحسب ما يرد في «مؤسسة سجل الأغنيات الأمريكي العظيم» - Great Ameri-

can Songbook Foundation!

ومثلما أقول دائماً، أعظم احترام منك لشخص هو أن تمنحه انتباهك الكامل. أقصد، أيُّ كتاب أولئك لو أنَّهم غير مهتمِّين أصلاً بالناس...

حاول ليونارد أن يقاطعها بسؤال ولكن خانة التوقيت.

«... طبعاً أنا لم أتصوّر قطُّ أن أكون كاتبة. ربَّما صحفية، فقد كنت دائماً مجيدة على مستوى التقنية، وإن أكن متشككة دائماً في خيالي، ولو أنَّني أفترض أننا لا نعرف مطلقاً من أين يأتي خيالنا، ولعلَّه لا يكون تأليفاً على الإطلاق، ولكنه تجلُّ لما هو موجود بداخلنا بالفعل. لكنني أقول دائماً، قد لا تكون لديَّ أقوى الأفكار، لكنني أعرف كيف أحصل على الحدِّ الأقصى ممَّا لديَّ، وذلك هو الجزء الأعظم من المعركة. أقصد أنني كنت أعرف كاتباً، رجلاً فقيراً أصيب بسرطان البنكرياس، وكان يخون زوجته عليها رحمة الله، كان لا بدَّ أن ترى كيف بدَّل البيت بعد وفاتها. يا له من رجل لمَّاح! أقصد، من كان ليعرف ذلك؟»

انتهاز ليونارد فرصة وقال «أيُّ نوع من الكُ...»

«كانت له طريقة بارعة في جعلك تقرأ باللكنة التي يكتب بها. هولندي، ويلزي، هندي، أعني حتَّى إذا لم تكن لديك القدرة على تقليد اللكنات، وأنا يقيناً أفقر إلى هذه الملكة، لا يعني ذلك أنَّك لا تستطيع أن تقرأ اللكنة. رجل رائع. ترك ثروته لبيت الققط والكلاب، ابنه طبعاً هاج وماج، ولكنه كان يكتب اللكنات بشكل حلو فعلاً. أقصد، اسأل أيَّ كاتب محترف وسيقول لك مدى صعوبة هذا الأمر».

سكنت لتضع الزبد على قطعة خبز ممَّا كان يوزَّع على المائدة، وكان ليونارد يتناول قطعه الثانية بالفعل. والغريب أنَّه كان مستمتعاً بحديثها، وقد عرف في نفسه الميل إلى الإعجاب بالأشخاص الغرباء، ربَّما لما فيهم من حدة.

استأنفت كلامها، وقد قسّمت خبزها إلى أرباع لم تأكل أيّاً منها.

«الشيء الوحيد الذي لا أقوى على احتماله، أقصد أنني لا أطيقه، هو أولئك الذين يتمسكون في شيء واحد ويكرّرونه المرّة تلو المرّة. أقصد، ما الجدوى؟ إنك تقصف عمرك المهني لأنك فاقد للثقة لا أكثر. تلك هي المسألة لا أكثر ولا أقل. فقدان ثقة. سمّها أنت بما تحبّ. هناك امرأة كانت معي في فصل الكتابة، أقصد أنا كنت أدرّس في الفصل وهي طالبة - كل قصّة قصيرة كتبتها أيها المحترم إنّما كتبتها عن طفولتها مستعملة دائماً عبارات من قبيل: «وبجوار الباب كرسيّ شاغر»، فاهم، تحاول أن تكون كثية، متصوّرة أن ذلك أليق بالكتابة، لكنني متأكّدة أنّك رأيت بنفسك أن بعض الناس يضلّون الطريق، تنسيهم الكتابة أن يحكوا القصة، وهذا يصيبني بالجنون».

لوّحت بسكّينة الزبد من جانب إلى جانب كمن تطرد روح الكتابة الرديئة. «قل لي، جريس أخبرني أنّك كاتب، طبعاً لم تكن بحاجة إلى أن تقول لي هذا، أقصد، أنا دائماً أعرف من تلقاء نفسي، شيء ما في الشخص. تراني قرأت لك؟ أدب جريمة، صحّ؟»

قال ليونارد «لا. موسوعات أطفال».

سكتت العمّة جلوريا.

قالت «أوكيه، لطيف جداً» وقضمت من الخبز قضمتها الأولى. اقترب نادل من ليونارد وقد رفع في البداية لافتة اسمه ليتأكّد من أنّه الشخص المقصود.

«معذرة سيّدي، أخت حضرتك تنتظرك في الاستقبال».

«أختي؟»

«نعم يا سيدي. في الاستقبال. اعبر الأبواب المزدوجة، بعد غرفة المعاطف». «أوه، فهمت. هي ليست أختي في الحقيقة، هي أخت صديق لي» وأشار ليونارد إلى كرسيّ هنجري بول الشاغر بجواره.

«سألت عنك بالاسم يا سيّدي. وجئت أخبرك فقط».

قال ليونارد للعمّة جلوريا «الظاهر أنّ جريس لديها أمر بسيط عاجل، دقيقة وأرجع»، وكانت العمّة جلوريا قد استدارت إلى الناحية الأخرى تكلم الشيخ الأنيق ذا الشعر المتهاوج وزوجته ذات الشعر الشبيه بالأكمة الشجرية.

سار ليونارد جهة الاستقبال بمشية مريحة لشخص مهذب في عجلة من أمره.

لما وصل رأى شيلي واقفة وحدها أمام أرفف الكتب تقرض إظفرها. قال «أوه، مرحباً».

قالت شيلي باسطة كلتا يديها تداري حرجها «مفاجأة».

«الحقيقة، لم أكن أتوقّعها. ما الذي جاء بك إلى هنا؟»

«جئت لأراك. بل إنني سقت إلى هنا، إذا أمكنك أن تصدّقني. اضطرت إلى استعارة سيّارة أختي».

«أوه، فهمت. الحقيقة أنّني في الزفاف في هذه اللحظة».

«أعرف ذلك، قلت لي إنّه سيقام هنا اليوم. طلبت منهم أن ينادوك. آسفة، اضطرت أن أخبرهم أنّك أخي. خفت أنّهم قد لا يساعدوني إذا أخبرتهم أنّني مشرفتك السابقة على الحرائق».

قال مرتبكا ومتلفتا حوله «الحقيقة. لماذا لا نجلس هنا؟»

مضى بها إلى موضع أهدأ على مقربة من المدفأة حيث جلسا متواجهين على أريكتين متقابلتين، وبينهما طاولة خشبية منخفضة.

قال «هل تريدان بعض الشاي، أو ربما القهوة؟»  
«لا شكرًا».

«طيب، كيف الحال؟ يبدو وكأنَّ زمانًا مضى منذ أن رأيتك».  
«أنا بخير. يعني، ليس تمامًا، وأنت تعلم».

«فعلًا، أعلم. كان أسبوعًا غريبًا».

حاولت شيلي أن تستعمل أصابعها في نزع قطعة الإظفر التي لم تنه قضمها.

«شيلي، أنا لا أتعمد أن أكون مباشرًا ولكن... هل كلُّ شيء بخير؟»

«مارجريت اتصلت اليوم. من العمل. وجاءت بالبيضة التي أحضرتها لباتريك وبكتابك».

«أوه فهمت».

تردَّدت.

«كتابك جميل يا ليونارد».

لم يدر ماذا يمكن أن يقول.

«شكرًا يا شيلي».

توقَّف الحديث. نظرت إليه مباشرة.



«أردت فقط أن أخبرك بذلك».

«كيف أمكن أن تقطعي كل هذا الطريق؟ سأراك في المكتب غدًا، صحّ؟ ولست مخفياً أو ما شابه هذا».

«أنا تركت وظيفتي يا ليونارد. ولن أكون في المكتب».

«أرجو ألا يكون بسببي».

«لا، ليس بسببك، بفضلك لكن ليس بسببك. رأيت ما تضعه في عملك من روحك، جميع أفكارك، وكيف لم تفقد قط تواصلك مع الشغف الذي كان لديك في طفولتك. لم يزل داخلك حيًا. لم تمتلئ بالمرارة ولم تغرقك الحياة العملية. لم تفقد فضولك قط. قرّرت أن أتصل بالعمل لأطلب بضعة أيام إجازة بعدما شعرت أنني معطّلة تمامًا، متعبة من الجري والتفافز ومحاولة التعامل مع كل شيء: باتريك والشغل والنقود. غرقت، وبخاصّة بعد أن بدأ ما بيننا يفلت منّا. وإذا بمديري، الذي لا يعمل أصلاً في المبنى وما كان ليلاحظ غيابي إن غبت شهراً، يقول إنّه لا يسمح بالإجازات إلى حين شغل الوظائف الشاغرتين، فنقلت له الصورة من وجهة نظري، ولك أن تتخيّل. وإذن، على أي حال، تركت العمل، وعلى الآن أن أتبين خطوتي التالية».

«ذلك أسبوع عصيب. آسف بشأن الوظيفة».

«أرجوك لا تأسف. كانت وظيفة مدّرة وكثيرة الضغوط. كل ما في الأمر أنني اعتدت على النقود وأثّم وفروالي الظهيرة وهذا شيء مستحيل في وظائف أخرى، لكنني كدت أموت في تلك الوظيفة».

«شيلي، أنا لا أعرف ماذا ينبغي أن أقول. أقصد، أنا أريد أن أتكلّم، لكن اليوم زفاف جريس. وأنا فقط لم أكن أتوقّع هذا».

«أعرف، أعرف، الأمور بلغت أقصاها. ستجد منّي بالمناسبة محاولتي

اتصال ورسالة أو اثنتين. أردت فقط أن أقول لك إنني أحببت كتابك وإنَّ باتريك مغرم به فعلاً».

«أنا سعيد جداً بهذا. لم أكن متأكدًا أنني رسمته جيدًا».

«اقتربت كثيرًا. هو في الحقيقة له لحية وعين زجاجية وساق خشبية وحذبة، لكن في ما عدا ذلك لم تتعد كثيرًا. المربع الذي كتبت فيه أن له قلبًا كبيرًا وخيالًا كبيرًا المسني بشدة».

«أردته أن يكون شيئًا خاصًا بالنسبة إليه، وبالنسبة إليك».

«وهو كذلك فعلاً يا ليونارد».

سكتا لوهلة مليئة بالقلق، يظهر الصمت فيها وجهه الآخرق.

قال وهو يقوم «الأفضل أن أرجع، لطيف أن قابلتك مرةً أخرى يا شيلي».

قالت شيلي «لا تعاقبني يا ليونارد، لا تتحفَّظ هكذا بسبب أنني أذيتك».

تجمَّد ليونارد لوهلة وهو غير واثق ممَّا يجري. عاود الجلوس، لكن على أريكة شيلي هذه المرة وبجوارها.

«أنا لا أحاول أن أتحفَّظ في أيِّ شيء يا شيلي، أو أعاقبك، ولم أفعل هذا؟»

«إذن فما الذي يجري بيننا؟»

«لا أعرف يا شيلي. لا أعرف لأنني لا أعرف. أنا لست معتادًا على هذه الأحاديث. لا أعرف القواعد. ملغزة أكثر ممَّا ينبغي. أشعر كأنَّ للكلمات التي يريد المرء أن يقولها معادلة ما لكنني لا أعرف هذه المعادلة، وأخشى أنني ما لم أقل الكلمات الصحيحة فإنَّك ستمشين وتتركينني».

نظرت إليه شيلي باهتمام، وبدا في الهواء في ما بينهما أن الأمر جادٌ.

«لا يمكن أن تستمرّي في امتحاني يا شيلي. أضمن لك أنني سأرسب في كلّ مرّة. لا أستطيع أن أكون عميقًا بشكل عفويّ. وأقول لك شيئًا؟ هذا غير مهمّ. أو بالأحرى لا يجب أن يكون مهمًّا لكنّه مهم، على الأقلّ بالنسبة إليك. أيّ شخص يمكن أن يقول شيئًا جميلًا في لحظة ما. أيّ شخص يمكن أن يتبع الخطّ المناسب. لكن هذا ليس حقيقيًّا. ولا يثبت أيّ شيء. المهم هو الشخص نفسه وكيف هو فعلاً. ما يهمّ هو ما يكون شخص مستعدًّا لأن يكشف لك عنه في الوقت الحقيقيّ والعالم الحقيقيّ، حين لا تجري موسيقى تصويريّة في الخلفيّة ولا تجري ألعاب في الواجهة. أنا مهتم بك كثيرًا، لكنني لا أخاف أن أكون على طبيعتي. لا أستطيع أن أمثل أمامك يا شيلي. وقد فكّرت في باتريك كثيرًا مع ذلك. فكّرت فيه وكأنّه أنا حين كنت في سنّه. لم أزل أتذكّر كيف كان ذلك. لم أزل أحتفظ بالذكريات في عظامي. لم تبارحني قطّ. لا أعرف ما الذي كنت لأفعله لو التقيت به في تلك المرّة. لم تكن لديّ خطة أو إجابة بارعة تنفتح بها جميع الأبواب. لكنني أعرف أنني كنت لأكون على طبيعتي معه. ما كنت لألعب بمشاعره. لكنني أعرف مدى أهميّته لك. لا أفهم الوضع بالضرورة مثلما تفهمينه، لكنني أقدر تمامًا ما يعنيه لك. لا أعترم أن أمثل أيّ تهديد لذلك، لكنني أعرف أيضًا أنني قد أكون قليل الخبرة أو عديم الحيلة في العلاقات فلا أستطيع اجتناب قول خاطئ أو فعل خاطئ في بعض الأحيان. أنت تطرحين عليّ هذه الأسئلة لتحركينني، أو لأثبت لك شيئًا، لكنني لا أستطيع أن أعيش بتلك الطريقة. لا أستطيع أن أعيش على الحافّة، متسائلًا طول الوقت متى سيحين الامتحان التالي. متى ستطرح عليّ أحجية أبي الهول التالية. لكنني سأبذل ما في وسعي لأكون طيبًا. لأنصت إليك. لأتعلّم الحياة مع فتاة أهتمّ بأمرها. كلّ ما في الأمر أنني لا أعرف إن كان هذا سيكفيك».

توقّف ليونارد وقد أدرك أنّه قال أكثر ممّا كان يرمي إلى قوله. فور أن شرع في الكلام، لم يستطع أن يتوقّف، فتكلّم وتكلّم، وقال أشياء لم يفهمها حقّاً إلّا وهو ينطقها. أشياء حقيقة. هي ثمار حزنه.

وشيلي، التي ظلّت طوال الوقت تلفّ خيطاً على إصبعها بينما يرتجل ليونارد كلامه، تنفّست بعمق، ورمشت بضع مرّات كي تكبت دموعاً أوشكت على الانهيار قبل أن تتكلّم في همس.

«أتعرف، طوال الوقت الذي قضيته وأنا أسوق إلى هنا ظللت أدير في رأسي سيناريو لما أريد أن أقوله. وكانت خطّتي، كما تعرف، هي أن أقوم بتفريغ حزمة كاملة من الأمور عن نفسي، وأوضّحها، ويبدو لي الآن أنّك ربّما تفهمها جميعاً. كنت أعرف أنّي أتهوّر بمجيئي إلى هنا، ولكنني أردت فقط أن أتجاوز صوتاً بداخلي، يحتجزني بقوله «احذري» كلّما سنحت لي فرصة في الحياة. أعتقد أنّي أنشأت في نفسي هذه الفكرة عن نفسي بوصفي حامية باتريك، لكن خلال الأسبوع الماضي، إذا تحرّيت الصدق، أدركت أنّني أستعمله ذريعة لكي أحمي نفسي من العالم. عند أوّل بادرة خطر أراجع الأمان أوّلاً كما يقال».

أنصت ليونارد باهتمام، فهو نفسه عاش حياته كلّها بتلك الطريقة.

واصلت شيلي «لكن بعد فترة، تصل إلى مرحلة تدرك فيها أنّك إذا لم تمنح حياتك شيئاً من نور الشمس والهواء، يصبح داخلك مكاناً محزناً ضئيلاً. والآن أشعر أنّي حبيسة هذا الوضع الجديد المفرع حيث لا يمكنني التكهّن بالتوازن الصحيح بين الانفتاح على العالم، وعليك، وبين حماية نفسي وباتريك ممّا أعرف أنّه قد يحدث. هل لشيء من هذا أيّ معنى؟»

أطرق ليونارد، ولم يقل إنّ الرومان أنفسهم كافحوا وصولاً إلى التوازن

بين دافعين متلازمين إلى التوسُّع في العالم وإلى الدفاع عن النفس.

مدَّت شيلي يدها وأمسكت يد ليونارد، وأسندت خدَّها المبلَّل بالدموع على صدره تاركة أثرًا على ربطة عنقه الخضراء بلون ورق شجر البتولا. قَبْلَ ليونارد أعلى شعر شيلي ووضع ذراعه حول كتفيها، مربِّتًا على أذنها بإبهامه في رفق.

وبالداخل، في غرفة الطعام الرئيسيَّة، كان بيتر ينهض واقفًا، واعدًا بآلا يطيل أمد جوع المدعوِّين، بادئًا بذلك خطبته.

## الفصل السادس والعشرون

### الصباح التالي

في الصباح التالي، استيقظ ليونارد سعيدًا. في المساء السابق، عثر هو وشيلي على نقطة تقارب جديدة بعد أن طال جلوسهما معًا إلى أن برد عشاء ليونارد في حفل الزفاف. لم يعنيا بإجابة السؤال عن الموضع الذي يقف فيه أحدهما من الآخر، لكنهما تبادلًا قبلة مناسبة واتفقا على الغداء معًا في يوم قادم من الأسبوع. سار معها إلى حيث تركت سيارة أختها وقبّلها عبر فرجة في شبّاك العربة الذي لم يكن زجاجة قد اكتمل نزولًا. وانطلقت بالسيارة مع «يبب، ييبب»، سائقة مثلما تسوق الدراجة، غير مبالية بعلامة الاتجاه الواحد المعلقة في الموقف.

مضطجعًا في سريره ومن وراء ظهره وسادة، وضع ليونارد فنجانًا من شاي الغرفة الفندقية على بطنه مراقبًا إشراقة الصباح الساكنة تتسلّل من فرجة بين الستائر. كان عليه أن يللم ساقيه قليلًا مراعاة لهنجري بول الذي كان نائمًا بعرض السرير في وضع يعرفه المتخصصون في العلامات بـ «انحناء الأثم»<sup>(1)</sup>. كان لهنجري بول كل الحق في الإنهاك بعد مساء حافل ومحتدم امتنع خلاله عن شرب الكحول مكتفياً بمشروب طاقة اسمه لاكوزاد لم يستمتع به من قبل إلا أطفالًا، باعتباره علاجًا للبرد مشكوكًا في خصائصه

---

(1) [sinister bend] شريط في درع الفارس من أعلى ركنه الأيمن إلى قاعه الأيسر (دلالة

على أنّه لقيط)

العلاجية. غير أنَّ مزيج السكارى طيلة الليل وبهجة الزفاف العائليَّ ألهمه أن يكون على سجيته ضيقاً في زفاف. مؤكِّد أنَّه ما من رجل فاقه في استغلال رقصة ليندي هوب على المرقص حينما وجد نفسه في مركز دائرة كبيرة ظلَّ ينتقي منها مشاركات لا حصر لهنَّ ليرقصنها معه، وكانت جلوريا جريمز، الكاتبة، من اللاتي رجعن طالبات جولة ثانية. أمَّا عن رقصاته المنفردة، فقد كان صعباً تجاوز العرض المنفرد الذي أدَّاه على أغنية «قتال الكونج فو»<sup>(1)</sup> مستعيناً بحركات الجودو، وعاقداً ربطة عنقه على جبهته في لمسة مرتجلة تباهى بها لاحقاً. وما كادت الموسيقى تنتهي وبأوي أغلب المدعوين إلى أسرَّتهم، حتَّى انتقل هنجري بول إلى حانة النزلاء - وإن انتقل في تلك المرحلة إلى مشروب الشوكولاتة الساخنة - فلعب مع جريس لعبة توب ترامبس<sup>(2)</sup> بمجموعة أوراق «الحيوانات الأسطورية» التي ظلَّ يحملها في جيب قميصه طيلة اليوم. وبرغم أنَّ اليوم يوم زفافها، وبرغم طبيعتها معه طوال السنين، فقد بقي يهزمها، وكان تحقيق غير هذه النتيجة أمراً عسيراً في ضوء أنَّه حصل على ورقة حيوان الكراكن الأسطوريَّ التي لم تكن تغلبها أيُّ ورقة أخرى في أيِّ فئة عدا فئة السرعة. لكن جريس للإنصاف كانت مشتتة بسبب حكي هنجري بول لها أخبار وظيفته في الاتحاد الوطنيِّ للتمثيل الصامت وخططه بشأن النادي الهادئ الذي أحبه لامبرت وأخذ يساعده في تنظيمه. فسمحت للمرة الأولى لزهوها أن يُسكت شكَّها، وقد تحلَّى الشقيقات في بعض الأحيان بالكياسة فيعرفن أنَّ النهج العمليَّ ليس كلَّ شيء.

\*\*\*

(1) Kung Fu Fighting أغنية ديسكو شهيرة للجامايكي كارل فوجلاس.

(2) Top Trumps لعبة ورق ظهرت سنة 1987.

في طابق أعلى، وفي جناح العرائس، كانت جريس وأندرو قد استيقظا ليتناولوا في السرير إفطاراً تضمّن زجاجة بروسيكو هديّة من الفندق. وكانت جريس قبل أن تنام قد علّمت على جميع اختيارات قائمة الطعام وعلّقتها على مقبض الباب من الخارج. جاء الإفطار مؤلّفاً من التشكيلة المعتادة من العصائر والعصيدة والخبز المحمّص والإفطار المطبوخ، بل تضمّن الإضافات الحديثة مثل بطاطس الهاش براونز. لم تتذكّر أنّها علّمت على المربّع المجاور للرنجة، لكنّها على أيّ حال جاءت، وراودتها فكرة أن تضع الرنجة أسفل جانب أندرو من الوسادة خشية أن يفكّر في التسلّل عائداً إلى السرير بعد قيامه في الصباح الباكر للتبول.

كان يوم الزفاف ساحراً. نعمت جريس على مداره بسكينة نشوانة، وعضلات وجهها مرهقة من أثر الابتسامات المرسومة، ناهيك عن جنون حفل الاستقبال المسائي. كانت عروساً اجتماعيّة، تتنقّل في بشاشة حول المائدة لتطمئن إلى أنّها تحدّثت مع الجميع، ثمّ ترقص بعد ذلك حافية على أغنية «تعالى يا إيلين»<sup>(1)</sup>، مطوّحة بساقيها في حركات رقصة الكان كان<sup>(2)</sup>. وفي مرحلة ما، تسلّل بها أندرو إلى الخارج لتمشية قصيرة وتناول شريحة من كعكة الزفاف في السر، فتجوّلا في القلعة منفردين، ورأت بعينيها مدى فرحته، وقد بدأ بالفعل يناديها بـ يا زوجتي كلّما سنحت له فرصة ويشخص إليها بعينين ملؤهما الحبّ وهي تتحدّث إليه.

فيما هو خارج من الحَمَام مجفّفاً يديه مداعباً خاتمه وقد علق الصابون تحته، انحنى مقبلاً جريس على ظاهر رقبته.

(1) [Come On Eileen] أغنية من أوائل الثمانينيات لفرقة ديكسي مدنايت رانرز [Dexys]

[Midnight Runners] البريطانيّة

(2) رقصة can-can رقصة عنيفة الحركات رائجة منذ القرن التاسع عشر



سألها «عندك كفاية من الطعام؟»

«وجئتُك برنجتك على فكرة. فإذا كنت تحبُّني ستأكلها».

رسم أندرو على وجهه الأسى.

سألته «ماذا كان أحبَّ شيء لك؟ أعني بالأمس. ولا تقل لي «فستانك

الجميل يا جريس، أو عيناك الحلوتان». أعني ماذا كان أفضل شيء لك؟»

فكَّرَ هنيهة.

«دعيني أتذكَّر، ربَّما الكنيسة. أو الرقصة الأولى؟ لكن أتعرِّفين فعلاً

ما أفضل شيء؟»

«هيا، فاجتني».

«أجمل جزء بالنسبة لي جلستنا في سيارَةِ المفتِّش مورس فور أن تزوجنا.

أوَّل لحظة خاصَّة لنا ونحن زوجان. نحن فقط. سعيدين. جائعين طبعاً بعد

إذْلك، لكن نعم، سعيدين. وأنت؟»

سكتت جريس لوهلة.

«أعتقد أنَّها خطبة أبي، فقد أفرغ روحه كلَّها فيها ودون مبالغة. بدا فيها

هذا الصفاء العاطفيُّ. هو يعرفني طوال حياتي ويبدو أنَّ علاقتنا تزداد ثراء

مع تقدُّمنا في العمر. كانت لحظة مهمَّة له، أعرف هذا. أراد فعلاً، فعلاً، أن

يقتنصها بشكل صائب. كان في غاية ال... ما الكلمة التي أبحث عنها؟

الحنان. نعم، هي هذه، الحنان. لم أعرف من قبل أنَّه يمكن أن تُشعر شخصاً

بالحبِّ في اللحظة التي تتركه فيها يذهب. لن أنسى هذا أبداً».

رفعت الأغذية المعدنية عن الأطباق وبدأت تتناول أوَّل إفطار لها بعد

الزواج ناقلة الفطر من طبقها إلى طبق أندرو وبطاطس الهاش براونز من

طبقه إلى طبقها.

التفت في جلستها قائلة «ما رأيك أن نأكل ثم نرجع لننام؟ ماذا عن هذا؟»  
نقر كأس عصير التفاح في كأسها وأضاف العسل إلى عصيدة ما قبل  
الجماع.

\*\*\*

في طابق أدنى، كانت هيلين جالسة إلى طاولة الكتابة في غرفتها، تتناول  
القهوة وتنتظر إلى الصباح الضبابي، ولم يزل بيتر نائماً بعد ليلة شخير أخرى،  
وقد ساءت حمى القش التي يعانيتها بفعل ما شرب من بيرة القمح. أحسن  
في ما فعل. كانت تعلم أنه برع في العروض خلال عمله، لكنها لم تسمعه قط  
يلقي خطبة منذ زفافهما قبل سنين. الطريقة التي بدأ بها وتكلم عن أسرتهما  
وعماً تعنيه له. الطريقة التي تكلم بها عن هيلين. «حب حياتي الحقيقي  
الوحيد» مثلما قال. وهو، في المقام الأول، رجل اقتصاد.

كان يوماً فريداً، أثمرت حقاً كل تلك المكالمات الطويلة مع جريس على  
مدار الأسابيع القليلة السابقة وظهرت آثارها في جميع التفاصيل التي تألفت  
في جمال ودون أيّ جلبة ظاهرة. ستفتقد هيلين تلك المكالمات. فسرعان ما  
ستسافر جريس في إجازة شهر العسل الممتدة ولن يكون الاتصال رخيصة  
من اليابان. وبعدها من يدري؟ زواج جريس متأخرة بعض الشيء معناه  
أنهما لن يؤخرا تأسيس الأسرة. «إنما المتعة في المحاولة» كما قال لها أبوها هي  
في تلك المرحلة.

بعدها شرح لها هنجري بول في المساء السابق وظيفته الجديدة وتوافر  
الشقة المصاحبة لها، لم تعد هيلين تقوى على إنكار إحساسها الوليد بأنها  
تدخل مرحلة جديدة في حياتها، وأنه عمّا قريب لا بدّ من مواجهة بعض

القرارات والخيارات المهمة، لكن يمكن إرجاؤها في اللحظة الراهنة. بدا غريبًا بعد كل تلك السنين من دفعها ولديها إلى الاستقلال أن تشعر بالرهبة إذ تُردُّ إليها حياتها. لكنَّها سنَّة الحياة. حياة الأبناء ملك لهم. يسلمها لهم الآباء منذ اليوم الأول قطعة بعد قطعة إلى أن يمضوا هم في طريقهم.

ألقت نظرة على بيتر النائم، الرجل الذي أنفقت حياتها عليه وأحبته حبًّا كبيرًا، مرَّ زمن طويل منذ أن خلت علاقتهما من المسؤوليات والتبعات، وقد تكلمًا في ذلك بضع مرَّات، فتكلَّما في خطط للسفر، وفي التواعد في بعض الليالي، بل ربَّما في أن يستبدلا ببيتهما بيتًا أصغر. لا تكاد تقوى على الاعتراف لنفسها بالذعر الطفيف الذي تستشعره في أحشائها من فكرة ألا يكون هناك غيرهما، هما الاثنان فقط، اعتبارًا من الآن.

أنهت قهوتها ورجعت إلى السرير، وقد شعرت بشيء من البرد في قدميها، وتلملم بيتر وهي تدفئهما تحت ساقيه. جذبها إليه برفق، ولم يزل الاثنان يتواشجان بعد كل تلك السنين تواشج مكعَّبين في لعبة.

## الفصل السابع والعشرون

### سندوتشات حديقة الحيوانات الموتى

مضى عمل ليونارد بطيئًا. فالرَّسَّامون العاملون من البيوت انشغلوا بأبنائهم في إجازة منتصف العام ولم ترد منهم مسودات جديدة للمراجعة. دخل كتاب الرومان المعيارِيُّ مرحلة ما قبل الطبع ولن يكون جاهزًا للمراجعة قبل أسبوعين آخرين. وقيل له إنَّ في الطريق بضعة مشاريع أخرى، لكن لم يُعهد إليه بشيء محدّد، فقط شائعات عن كتاب في أديان العالم توقّف العمل فيه لكونه «جافًا أكثر من اللازم». تمَّ تحديث جهازه فأهدر عشرين دقيقة في تغيير خلفيته وتجربة إعداداته السريّة الخاصّة، وساءت الأمور إلى حدّ ذهابه طوعًا ليتحدّث مع جريج موظّف الدعم الفنيّ.

«مرحبًا يا جريج، مشغول؟»

كان جريج موظّف الدّعم الفنيّ يفتح رغيف باجيت بطول قدم فوق طاولته بجوار إناء فيه محتويات سندوتش من كلّ شيء مخلوطة وجاهزة، وهي بالدرجة الأساسيّة المكوّنات الطّبيعيّة لسندوتش سلاطة، وقد خلطت حتّى بدت أقرب إلى صديد متعفنّ.

قال جريج «فقط أضع اللمسات النهائيّة على هذه التحفة الفنيّة. أنا يا ليونارد جسدي معبد، وبطني في هذا المعبد مذبحة» ورفع صوته متّجّهًا به إلى مارجریت، زميلة شيلي السابقة، المشغولة بمكالمة عميل مستاء «وطبعًا الطريق إلى قلب الرجل معدته» فرمته مارجریت بقلم دون أن تعنى حتّى

بالنظر إليه.

«ماذا جاء بك إليّ في حجرة الاعتراف يا ليونارد؟ بلغني أن الحبّ لم يعد يزهر في سروالك. وصدّقني لقد أسفت لهذا الذي بلغني. الرجال مثلك ومثلي لا يجدون الوقت لالتقاط أنفاسهم» وقال موجّهاً صوته مرّة أخرى إلى مارجریت «والشدّ والجذب أول مؤشرات الوحشة».

«أوه، يعني، الأمور ليست سيّئة. هل من أخبار عن مجيء عبوات الخبر الملوّن الجديدة للطابعات؟ عندي أشياء قليلة أنتظر طبعها، لأرى كيف تبدو».

«لا داعي لطباعة البورنو من الإنترنت يا ليونارد. هناك مجلّات تباع لأمثالك من الرجال الذين يفضّلون المتعة المطبوعة. وكتب إباحيّة أيضًا».

فتح جريج فكّيه استعدادًا للانقضااض على رغيّفه. تجمّد وجه مارجریت متقرّزًا وهي ناظرة إليه. أمّا ليونارد فاستبدّ به الفضول إلى أن يعرف هل جريج قادر فعلاً على أكل ذلك الشيء كلّهُ.

ولم يخيّب جريج موظف الدعم الفنيّ توقّعه.

صاح منتصرًا، رافعًا كلا إبهاميه، وهو يمضغ آخر كتل الخبز في فمه المفتوح محرّكًا إياها شأن غسّالة في دورتها الأخيرة.

قال ليونارد «أوكيه، يستحسن أن أرجع».

قال جريج بصوت معلّق على أحد برامج الطبيعة «ويغادر المتحدّي الشاب، وقد انهزم أمام الذكر الزعيم الذي سيحتفل بصيده الناجح وسط بقيّة حريمه».

مكتبة

t.me/soramnqraa

وفي هذه المرّة أوجعته الدبّاسة الطائرة.

عندما رجع ليونارد إلى طاولته، وجد رسالة إلكترونية من مارك باكستر،  
دبلومة التربية:

من: [himark@markbaxterbed.com](mailto:himark@markbaxterbed.com)

مرحبًا يا ليني

حضرت اجتماعًا عظيمًا مع الشباب في فكتوريال للنشر. هناك بعض  
العقول الذكيّة حقًا، ستنتقل الموسوعة إلى المستوى التالي. مخرب حقًا.

أحبُّوا كتابك. وأقول أحبُّوه يعني أحبوه. المشكلة فقط أنَّهم يقولون إنَّه  
ليس لهم. يقولون إنَّه ليس كتاب معلومات فعلاً. أقرب إلى كتاب قصصيّ.  
أخبرتهم، قلت «لا يمكن، إنَّه كتاب معلومات مخرب حقًا، وسيقلب  
الموازين». تقبَّلوا هذا بلطف لكن قالوا إنَّهم لا يمكن أن يجدوا له متسعًا على  
الرفِّ في قسم المراجع، وهم ليسوا ناشرو أدب، فهو واقع إذن بين المدارس كما  
أخضن. يقولون إنَّهم يريدون أن يبقوا ثابتين على كتب المراجع ويحاولون أن  
يكونوا فطيعين مخربين بتلك الطريقة.

وإذن أنا آسف يا صديقي. شكرًا على أنَّك قصدتني. في أيِّ مرّة تحبُّ أن  
تقفز بشيء عن طريقي، عاملني كما تعامل منطً قديم ودود.

خذ الأمور ببساطة (لكن لا تُفِرط في البساطة).

عسى أن تنتبه إلى الوارد أعلاه

مارك باكستر، دبلومة التربية

بعث إليه ليونارد ردًّا سريعًا شاكرًا له محاولته وراجيًا له التوفيق في  
مشروعه التالي، ومعربًا عن أمله في أن يتهيأ لهما العمل معًا مرّة أخرى في  
القريب العاجل. ومن نافلة القول إنَّه أعرب عن أمله في أن ينتبه مارك

باكستر، دبلومة التربية، إلى الوارد عليه.

طبيعي أنّه شعر بشيء من الإحباط. لقد وضع في الكتاب كلّ شيء، ولكنه أغفل الكثير أيضًا. ومع ذلك، إذا تحرّى الصدق الكامل، فإنّه ما كاد يقرّر أن يكتب الكتاب لباتريك، حتّى لم يعد يعنيه أن يقرأه أحد سواه. وقال في نفسه إنّّه يحدث في بعض الأحيان ألاّ ينكشف الدافع إلى الفعل إلّا بعد القيام بالفعل نفسه.

مضى الصباح بطيئًا حتّى بلغ أخيرًا موعد الغداء، فتناول ليونارد بذلته وذهب لمقابلة شيلي. كانت قد اختارت متحف التاريخ الطبيعيّ مكانًا لموعدهما على الغداء، وراق لليونارد الظنّ بأنّ في اختيارها ذلك إشارة خافتة إلى تنازل. بل إنّها وعدته بغداء نباتيّ، وإن بدت له تلك لفظة عبثيّة في ضوء أنّهما سيتناولان الطعام في مكان هو عمليًّا مخزن لغنائم الصيد.

عندما وصل إلى هناك رأى رتلًا من تلاميذ مدرسة ابتدائيّة يتقاطرون خارجين من المتحف وقد ارتدوا جميعًا سترات فسفوريّة، بينما وقف معلم يحصي عدد رؤوسهم وهم يعبرون. ارتقى ليونارد درجًا خشبيًّا قديمًا أخذ يصرّ مع كلّ خطوة صرير قارب، متجهًا إلى قسم الثدييات الذي رتّب أن يلتقيا فيه. مرّ بالصفّ الأول من الصناديق الزجاجيّة التي احتوت ملوك الحياة البريّة من أسود ونمور ودببة قطبيّة وقردة شمبانزي، وفي ساحة المنتصف، أسفل هيكل عظميّ لحوت أحذب ظلّ يخطئ الاختيار طوال مئة عام، رأى شيلي جالسة ومعهما دفتر للرسم أمام فرس النهر وبجوارها من تعرّف فيه فورًا، بفضل وصفها، على باتريك.

قال ليونارد «مرحبًا يا رفاق، أرجو أنّي لا أقاطعكم».

«مرحبًا، في الوقت بالضبط. نكاد ننهي صورنا. باتريك، سلّم على

ليونارد. أخبرتك أننا سوف نلتقي به اليوم. يريد أن يعرف رأيك في كتاب الرومان».

رفع باتريك رأسه.

قال «مرحبًا يا ليونارد. أوشكت أن أنتهي من رسمتي، فاتركني قليلًا لأفعل هذا، هنا، وخطٌ صغير هنا، وقليل فقط من هذه، وها هي، فينيتو». وعرضها على ليونارد.

قال ليونارد وقد جثم مخفيًا فارق الطول «أوه، جميلة فعلاً».

قال باتريك «هي فرس نهر طبيعيٌّ، لكن مع الكثير من التحسينات. هذه بعض التعزيزات من أجل السرعة ليستطيع الهرب من الحيوانات المفترسة. وهذا أسد بالكِ يقول «أوه، لماذا أكون بطيئًا هكذا فلا أستطيع أن ألحق بفرس نهر أخرق بطيء؟» هذه الأشياء في سيقان فرس النهر عجلات، مدفونة في بطون أقدامه لكنها تبرز كلِّها وجد قضبان قطار على مقربة، وبعد فهناك مسارات قطار تبرز من نابيه فيضعها على الأرض أينما يذهب فيستطيع أن يستعمل عجلاته على الطرق الترابية وعلى الطرق العادية».

قال ليونارد «وما هذه النقطة هنا؟»

«أوه، هذا ثقب الرصاصة التي قتله بها الفرنسيون».

«ولماذا الفرنسيون؟»

قال باتريك «أوه، لأنهم كانوا أصحاب أفريقيا قبل زمن بعيد وقامت حروب كثيرة، ولكن عندما أكون المسؤول عن العالم، لن يحدث شيء من هذا. فأني بلد يقاتل، زوووت، وتطير رؤوسهم» وحرَّك قلمه الرصاص على رقبته.



«ولكن كيف كانوا يطلقون الرصاص على الحيوانات دون أن يكسروا  
علب العرض الزجاجية؟»

مال باتريك برأسه إلى الوراء متأوِّها وقال «لم يطلقوا عليها الرصاص  
هنا. أطلقوا الرصاص عليها في أفريقيا وبلاد مثلها ثم وضعوها في علب.  
يجب أن تكون على علم بذلك ما دمت تؤلِّف الكتب».

قالت شيلي مبتسمة «بالمناسبة ها هو سندوتشك» مستخرجة قطعة خبز  
مهترئة بعض الشيء وملفوفة في بلاستيك خفيف وأعطتها لليونارد.

«أوه، شكراً. عندك مانع أن أسألك ماذا فيه؟»

«بيض».

«بيض؟»

قالت شيلي «نعم، بيض. لا أريد أن تنخفض لديك نسبة البروتين. عليك  
أن تعتني بنفسك».

«الحقيقة أن البيض يصيبني بالانتفاخ، ويعني، نحن لا نستطيع أن نفتح  
الشبايبك في المكتب».

«ستجد طريقة. خذ سندوتش أنت أيضاً يا باتريك».

«إيه! لا بأس بالسندوتشات. لكن، ألا توجد أيُّ حلوى؟ وإذا لم تكن  
معك أيُّ حلوى، هل يمكن أن أشتري شيئاً من متجر الهدايا، أرجو ووووك؟»

أخذ باتريك يتأرجح متعلّقاً في كمّ شيلي. قالت «سنرى» والتفتت ناظرة  
إلى ليونارد، «سنرى».

## الفصل الثامن والعشرون

### النادي الهادي

في الاتحاد الوطني للتمثيل الصامت رتب هنجري بول ولامبرانت الغرفة ترتيباً جميلاً لتشهد الاجتماع الأول للنادي الهادي. وضعت الكراسي في دائرة وعلقت على أسفل خشبة المسرح سلاسل مصابيح الكريسماس وتلك فكرة لطيفة اقترحها لامبرت الذي تبين أنه موهوب بصرياً. تناثر فنّانو التماثيل الحية في المكان متخذين أوضاعهم تاركين مسافات بينهم: فشح مارلي عند الباب حيث يدخل الناس، ووقف رجل الريح<sup>(1)</sup> بجانب مكتب الاستقبال، واختلط العديد من منظّفي المداخلن وممثلي شخصية موتسارت وسط الكراسي. وأدار هنجري بول في الخلفية مقطوعة أربعة، ثلاثة وثلاثون<sup>(2)</sup> لجون كيج، لمساعدة الجميع على الاسترخاء.

بشكل طبيعيّ حضرت هيلين وبيتر. وقد حرصت هيلين بالذات على المجيء لتتفقّد الشقة، برغم أنّ هنجري بول أوضح لها أنّهم لم يحدّدوا بعد موعداً تحليها فيه صديقة أرنو، وتلك مشكلة كياسة رأى أنّها ستحلّ من

---

(1) رجل يعصف الهواء بشعره وربطة عنقه، ويمكن البحث عن صورته بكلمتي Wind-swept Man

(2) [4'33] من مؤلّفات الموسيقي التجريبي الأمريكي جون كيج John Cage (1912-1992) ألفها سنة 1952 لآلة أو مجموعة من الآلات، وتؤدي في ثلاث حركات من الصمت التام، الصمت الذي يشمل الآلات المشاركة نفسها، طول أربع دقائق وثلاث وثلاثين ثانية.

تلقاء نفسها مع الوقت.

ومع أنَّ جريس كانت لم تزل في شهر العسل، فقد قالت إنَّها تودُّ أن تشارك، وقالت إنَّ كيوتو بمعابدها وأضرحتها ربَّما تبقى في نهاية المطاف عاصمة الصمت. فرَّتبت هي وأندرو في الموعد المحدَّد جلسة صمت في معبد زن قريب فيشتريكان في اللحظة وإن على بعد آلاف الأميال.

وبالطبع حضر ليونارد وأسعده أن يمدِّد العون، وهو الذي اقترح فكرة تناول الشاي والبسكويت لاحقاً، ثم طوَّر الفكرة حينما سأل في المحلَّ عن أقلَّ أنواع البسكويت ضجيجاً، فكان الجواب البديهيُّ هو كعك جافا.

للأسف لم تستطع شيلي أن تحضر، فموعد ليلة الأحد تعارض مع المحاضرة الإرشادية في الدراسات المسائية لبيكالوريوس الفنون الجميلة التي تقدَّمت لها، بإلهام من ليونارد وتشجيع من أبيها. ولعبت شقيقة شيلي دوراً بإصدارها قسيمة مجالسة طفل متكرِّرة الاستعمال لتكون في متناول شيلي وقت أن تحتاج إلى مساعدة. وباتريك هو الآخر أصدر قسيمته التي تتيح له السهر وتناول الحبوب محلاة بالسكر في كلِّ مرَّة يترك فيها لمجالسة. وقالت شيلي إنَّها تحبُّ أن تحضر اجتماع النادي الهادئ في الشهر التالي.

كانت هيلين قد ذكرت الأمر لباربرا أيضاً بعدما غادرت المستشفى وبدأت البحث عن أشياء جديدة تجرُّبها. وبرغم اعترافها أنَّها لم تجرِّب الصمت لساعة كاملة طوال حياتها السابقة، فقد رأت أنَّها صحيَّة وباعثة للسلام، وقد تكون طريقة لطيفة لمقابلة أشخاص جدد. فحضرت مبكِّرة وجلبت معها البسكويت الخاصَّ بها من النوع الملائم لمرضى السكري.

وكان هنجري بول قد ذهب في وقت سابق من الأسبوع لزيارة السيِّدة هاوثرن فوجد أنَّها نائمة منذ عدة أيَّام ولا يطرأ عليها أيُّ تحسُّن، فقضى

بالقرب منها ما يزيد على الساعة، ممسكاً يدها ومستمتعاً بنصيب كليهما من الصمت.

وفي تمرين الجودو خلال الأسبوع، حيث كان هنجري بول لم يزل متيبس العضلات من رقصة ليندي هوب في الزفاف، ذكر الأمر لمدرّبه وللأزواج، ولما كان الاثنان غير ثرثارين بطبيعتيهما، فقد راقّت لهما الفكرة وحضرا قبل نوبة عملهما الليليّ فرديّ أمن في مخزن. تأثّر هنجري بول حين رآهما في غير أوقات الجودو، وشعر أنّ شيئاً من الدفء بدأ يسم ما بينهما وبينه.

كان لامبرت قد سأل السوبر ماركت إن كان بوسعه أن يعلّق ملصقاً على لوحة الإعلانات وتحدّث مع المدير الذي سبق أن فتح علبة الشوكولاتة لهنجري بول. فقال الرجل إنّّه ما من مشكلة في استعمال لوحة الإعلانات بل قال إنّهم إذا احتاجوا إلى مساعدة في جمع التبرّعات فمن الممكن أن يسمح لهم بعلبة تبرّعات عند المحاسب في ظهيرة يوم سبت. شكره لامبرت بحرارة ودعاه إلى النادي، لكنّ ذلك لم يناسب طبيعته، قال إنّّه أشبه بسمك القرش عليه أن يبقى دائماً في حالة حركة.

بل حضر بعض الوجوه الجديدة: امرأة في ثياب التمارين الرياضية تحمل حصيرة يوجا مبرومة، وطالبان إيطاليان، ورجل في ثوب ميكانيكي لم يقل أكثر من أنّه صديق قديم لآرنو، لامساً جانب أنفه وهو يقول ذلك.

ولما حان الوقت وضع هنجري بول زهرة عبّاد شمس في أصيص على كرسيّ بلا مسند في منتصف الدائرة. فحلّ الصمت، إن كان بحاجة إلى أن يحلّ، على المجتمعين.

قال «أوكيه، شكراً للجميع على الحضور في اللقاء الأوّل لنادي ليلة الأحد الهادئ. حينها استقرّ في مقعدي، سوف نبدأ ساعة من الجلوس. ما من

تعليمات خاصّة، باستثناء أنّ علينا أن نبذل أقصى ما في وسعنا لنكون في مثل هدوء هذه الزهرة».

خاض كلٌّ من المشاركين تجربته الخاصّة في تلك الساعة بما يكشف عن التنوّع اللانهائي في الحياة، فالناس، حتّى وهم لا يفعلون أيّ شيء، مختلفون في طريقتهم في هذا. فمدرب الجودو ولازلو جلسا متجمّدين يركّزان على الصمت، فالانضباط الذهني المتجذّر في نفسيهما بأثر من الفنون القتاليّة منعهما من أن يفعلوا غير ذلك. في المقابل، بدت باربرا مشتتة تمامًا، تتلقت في الغرفة بحثًا عن تواصل معه بالنظرات، راجية أن تشارك أحدًا في إحساسها بجدّة الوضع كلّها عليها. ولامرت الذي بذل الكثير في الترتيب للأسمية جلس يتأمّل حميميّة مشاركة الآخرين عمدًا في الصمت. وفنّانو التماثيل الحيّة تفوّقوا على أنفسهم وقد استفزّ اقتسامهم مساحة داخلية صغيرة جانبهم التنافسيّ فحاول كلٌّ منهم أن يباري البقية في ثباتهم. واتخذ صديق أرنو وضعيّة جلسة التأمل المزهوّة قاصدًا منها أن تكون إشارة تتلقّاها سيّدة اليوجا الجذّابة، أمّا الطالبان الإيطاليان فجلسا في هدوء متسائلين إن كانا في المكان المناسب لهما أصلًا.

لم يمض وقت طويل على بيتر حتّى بدأ يغفو، أمّا هيلين فاستغلّت الساعة في رصد التغيّرات التي طرأت على أسرتها وعلى حياتها الجديدة التي تفتح أمامها على مهل. وفي الجهة الأخرى من العالم، جلست جريس القرفصاء في معبد زن، بينما يكافح أندرو حرارة أوّل الصباح بجوارها. وجلس ليونارد، الذي كان يرتاح في الصمت ارتياح الآخرين إلى أسرّتهم، مستمتعًا بالوقت، وقد بدأ كونه ينبسط من جديد.

ووسط ذلك كلّه جلس هنجري بول، لا يدري أحد ما الذي يجري في عقله.

برغم الكثير والكثير ممَّا كُتِبَ عن الزهور، أو قيل في حقِّها، على مدار القرون، كان لا بدَّ من شخص في مثل تفرُّد هنجري بول ليلاحظ إلى أيِّ مدى هي صامته.

## شكر وعرفان

أدين بكلّ شيء لزوجتي سينيد. ما كان لهذا الكتاب أن يكتب مطلقاً لولا حبك ودعمك.

شكراً للولديّ الحبيبين، توماس وجاكوب. كتب هذا الكتاب على طاولة محاطة بموسوعاتكما وألعاب الرقعة الخاصّة بكما، وبحماستكما المحيطة من كلّ جانب.

سوف أبقى ممتناً إلى الأبد لكيفين وهيثا جوفي وللجميع في بلوموس بوكس على القرار الذي غيّر حياتي بنشر ليونارد وهنجري بول وعلى كلّ ما بذلوه من عمل مضمّن وإبداع وشغف.

شكر خاص لمحرري لين ويب على كلّ الرعاية والاهتمام والبصيرة التي أظهرتها في تحرير هذا الكتاب. نتيجة لذلك أنا الآن قارئ أفضل وكاتب أفضل.

شكراً لفياتشرا مكارثي على تصميم الغلاف الجميل.

شكراً لمايكل ستيفنس على إلهامي بمحاولة تأليف كتاب، وتشجيعي وأنا أفعل ذلك.

شكراً لآنا كاري على النصيحة الكريمة.

شكراً لكو مور وجيليان رابل أن كانا قارئين أوليين داعمين.

شكرًا لكل العاملين في مكتبة بولدويل في دبلن على معاونتهم وعلى توفيرهم لي مدد العمر من الكتب المهمة.

وشكر صادق لكل من استمعوا لي وأنا أتكلّم عن الكتابة وقالوا كلمات لطيفة حينما احتجت إليها: تعرفون أنفسكم وأنا ممتن لكم إلى الأبد.

وإلى أسرتي كلّها، وأصدقائي وزملائي: كلُّكم رائعون، والكتاب ليس عنكم، فلا داعي للانزعاج.

شكرًا لمجلّات أونست أولسترمان، وذي بوهيميث، وبرليانت فلاش فيكشن على نشر قصصي الأولى، وشكرًا لجميع من قرأوها.

مكتبة

t.me/soramnqraa



## عن الكاتب

رونان هيجن (Rónán Hession) موسيقي وروائي أيرلندي، عمل في فرق موسيقيّة عدة في دبلن، صدر أوّل ألبوماته في عام 2003 بعنوان «جرائم معجميّة» Dictionary Crimes الذي أعلنه موقع نبالر ناين Nialler9 وصحيفة أيرش إنديبندينت ألبوم العام في أيرلندا، ورُشّح لجائزة تشويس ميوزيك.

أصدر روايته الأولى (ليونارد وهنجري بول) سنة 2019 ووصلت إلى القائمة الطويلة لجائزة ريبليك أوف كونشسنس.



## الفهرس

|           |                                          |
|-----------|------------------------------------------|
| 5.....    | الفصل الأول: ليونارد                     |
| 11 .....  | الفصل الثاني: بارلي فيو.....             |
| 29 .....  | الفصل الثالث: الرومان.....               |
| 34 .....  | الفصل الرابع: جريس .....                 |
| 40 .....  | الفصل الخامس: تحيات .....                |
| 49 .....  | الفصل السادس: جريس قبل الوجبات.....      |
| 63 .....  | الفصل السابع: يوم الاثنين العارض.....    |
| 70 .....  | الفصل الثامن: لا تستعمل المضاعف.....     |
| 90 .....  | الفصل التاسع: شكرًا على الحلوى.....      |
| 103 ..... | الفصل العاشر: ملء العطلة الأسبوعية ..... |
| 114 ..... | الفصل الحادي عشر: شيلي .....             |
| 130 ..... | الفصل الثاني عشر: جريس تحب آندي.....     |
| 148 ..... | الفصل الثالث عشر: السيدة هاوثرن.....     |
| 156 ..... | الفصل الرابع عشر: الوجبة السعيدة.....    |
| 174 ..... | الفصل الخامس عشر: خطط السفر.....         |

|     |                                                        |
|-----|--------------------------------------------------------|
| 179 | الفصل السادس عشر: الغرفة التجارية                      |
| 187 | الفصل السابع عشر: عشاء عائلي                           |
| 198 | الفصل الثامن عشر: مرحبًا يا مارك!                      |
| 206 | الفصل التاسع عشر: لعبة الحياة                          |
| 212 | الفصل العشرون: أبو العروس                              |
| 222 | الفصل الحادي والعشرون: مقابلة التمثيل الصامت           |
| 230 | الفصل الثاني والعشرون: البيضة الهرميّة                 |
| 239 | الفصل الثالث والعشرون: أحد الفصح                       |
| 253 | الفصل الرابع والعشرون: يوم الزفاف                      |
| 267 | الفصل الخامس والعشرون: حفل الاستقبال                   |
| 278 | الفصل السادس والعشرون: الصباح التالي                   |
| 284 | الفصل السابع والعشرون: سندوتشات حديقة الحيوانات الموتى |
| 290 | الفصل الثامن والعشرون: النادي الهادئ                   |
| 295 | شكر وعرفان                                             |
| 297 | عن الكاتب                                              |

# ليونارد وهنجري بول

ليونارد وهنجري بول صديقان بسيطان تجاوزا الثلاثين ولم يغادرا بيتي أبويهما. لكل منهما ميوله وطبعه وهوايته وعمله الذي يُخلص له. ولهما معًا لقاء في الأسبوع ينهمكان خلاله في لعبة من ألعاب الرقعة، ويتكلمان في ما يعنيهما، فمرة قصة حب متعثرة، ومرة ظاهرة كونية محيرة، ومرة لوحة شهيرة أسىء فهمها. وربما يمثل أهمية ذلك أنهما يعرفان كيف يصمتان معًا.

قد يبدو عالم ليونارد وهنجري بول خرافيًا في نظر من يتابعون العالم عبر شاشات الهواتف وأجهزة الكمبيوتر والمطارات وأسواق المال، لكن المفاجأة، السعيدة أو المأساوية، التي تحملها هذه الرواية هي أن هذا العالم السعيد البسيط قريب منّا جميعًا، لا يفصلنا عنه إلا أن نرفع أعيننا عن الشاشة، وننظر للحظات من الشباك.

"رواية فاتنة ومطمئنة، طريفة وحكيمة، حنون ومبدعة. ينقّب كاتبها عن الذهب في الحياة العادية، والصدقة العادية، وعما لا يعد بالكثير في نظر كاتب غيره، ويا إلهي! إنه يجد ما ينقّب عنه. وهي أيضًا رواية تبعث السعادة، وما أحوّنا إلى ذلك".

ديان سترفيلد، مؤلفة "الحكاية الثالثة عشرة".

"من أراد كتابًا خارجًا على الأعراف الأدبية، أوصيه بليونارد وهنجري بول؛ رواية بسيطة وفريدة ... احتفاء بالطيبة والرضا والحياة الخالية من الدراما والصراع، رواية شديدة الطرافة، جيّدة الكتابة، شعريّة في بعض المواضع. لكنها في المقام الأكبر رواية طيبة، تحثني من تغفل عنهم الأبصار"

كيت دي وال، مؤلفة "اسمي ليون".

مكتبة

t.me/soramnqraa



تصميم الغلاف:  
أحمد الصباغ

